رواية

رواية واقعية لسيرة حياتها

الطاهرة

قرّة العين

كلارا أ. إيدج

ترجمة
سيفي سيفي النعيمي



الطّاهرة

(قرّة العين)

الطاهرة (قرّة العين)

كلارا أ. إيدج

Taherah

By Klara A. Edge

ترجمة: سيفي سيفي النعيمي

الطبعة الأولى: يناير ـ كانون الثاني، 2020 (1000 نسخة)

بيروت ـ لبنان



لبنان ـ بيروت / الحمرا

تلفون: 345683 1 961+ / 541980 1 961+

بغداد ـ العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: 9647714440520+ / 9647811005860+

info@daralrafidain.com

daralrafidain@yahoo.com

www.daralrafidain.com

dar alrafidain

Dar.alrafidain

@daralrafidain_1دار الرافدين

ISBN: 978 - 9922 - 623 - 52 - 8

رواية واقعية لسيرة حياتها

بقلم
كلارا أ. إيدج

الطاهرة
(قرّة العين)

ترجمة:
سيفي سيفي النعيمي



www.daralrafidain.com

الفهرس

هذا الكتاب يضعك أمام «جان دارك» الديانة البهائية، «قرة العين»؛ أو كما لقبّت فيما بعد: - «جناب الطاهرة». لم تنادِ الطاهرة بصراحة ضد تدهور الأخلاق المستشري في أيامها فحسب؛ بل من المحتمل أنها أيضًا، أول من نادت بحقوق المرأة في العالم، واضعة حجر الأساس لأشهر مبادئ البهائية في مساواة حقوق النساء مع الرجال.

لقد أظهرت إمكانية غير عادية للتعلم حتى وهي طفلة صغيرة جدًا، لقد سمح لقّرة العين بالحضور سرًا إلى محاضرات والدها، أشهر فقيه ورجل دين مسلم في إيران. وبالرغم من كونها بنتًا، فقد أصبحت معروفة بالتدريج بغزارة علمها الواسع، وكذلك مثالًا للتقوى الروحية. وبسبب هذه الصفات والشمائل الاستثنائية إضافة إلى فصاحتها وجمالها، نالت احترامًا وتقديرًا عالميين، وحينما نضجت وأصبحت سيدة، كانت شهرتها قد اخترقت حدود العالم الإسلامي إلى الدول المسيحية المجاورة في أوروبا مثلما هو الحال في آسيا.

من هذا الكتاب، ستكتشف نظرة داخلية لنوع من أنواع ظاهرة تأسيس أعمدة التاريخ. ومن المحتمل أن تلتمس القوة الجبارة التي مكّنت امرأة مثل الطاهرة لأن تخلع حجابها الذي غطى وجوه النساء المسلمات لمئات السنين، وأن تموت برغبتها من أجل تحرير بنات جنسها.

***

[الطاهرة] (1819م ـ 1852م) قامت على نشر تعاليم «الباب» بكل قوتها، وانتقدت بشدة فساد أخلاق أبناء جيلها، وعملت بكل شجاعة على إحداث انقلاب فكري بتغيير عادات الأهالي وأخلاقهم. وكانت نار محبة «الباب» قد أشعلت روحها التي لا تقهر وتعاظم لديها مجد رؤياها بما اكتشفته من البركات الفائضة المكنونة في أمره، وزادت شجاعتها الباطنية وقوة شخصيتها أضعافًا مضاعفة بسبب اعتقادها اليقين في نصرة الأمر الذي اعتنقته، وتجددت طاقتها التي لا حدّ لها، حين معرفتها مقدار أفضال هذه الدعوة التي قامت على ترويجها ونصرتها. فكان كل من يقابلها في كربلاء ينجذب من فصاحتها وسحر بيانها، ويتملكه الإعجاب من أثر كلماتها، ولم يقدر فردٌ على مقاومة سحر لطافتها، والقليل هم من تمكنوا من الإفلات من تأثير معتقدها. وشهد كل الناس بكمال أخلاقها الرائعة وأعجبوا بشخصيتها المدهشة وقنعوا بصدق إيمانها الراسخ.

***

إلى أحباء عائلتي، وإلى أصدقائي الأعزاء

في العديد من البلدان،

لاهتمامهم المتزايد وتشجيعهم

أقدم لهم

بمحبة

هذا الكتاب.

المؤلفة

تقدم المؤلفة

شكرها العميق للمحفل الروحاني المركزي لبهائيي الولايات المتحدة

لسماحهم باقتباس فقرات محددة من مطبوعاته المعتمدة في هذا الكتاب.

عن المؤلفة:

رغم حيلولة اعتلال صحتها عن إكمال دراستها في جامعة ميتشغان في الولايات المتحدة، دخلت كلارا إيدج مدارس بهائية من 1937 حتى 1953، وصرحت فيما بعد: ـ «من خلال دراستي والعمل الذي حاولت تقديمه لأجل الدين، أشعر أن افتقاري للتعليم الرسمي قد استعضت عنه بدرجة أكبر كثيرًا في المدارس البهائية. فطالما أن المظاهر الإلهية هم معلّمو البشر، فلن أستبدل ثقافتي البهائية ـ إذا كان هناك استبدال ـ بشهادات كثيرة».

تشعر مس إيدج أن قليل مما تدين به للعالم البهائي، قد أعادته من خلال جهودها الدؤوبة بتقديم نبذة قصيرة عن الديانة. فقبل أن تستهل عملها في سرد السيرة الذاتية لحياة الطاهرة، كانت قد شاركت بكتابة مقالة في صحيفة محلية في بريسكوت في أريزونا، حيث كانت محاولة لتوضيح إيمان البهائية بوحدانية الله ووحدانية الجنس البشري.

***

استهلال

لفهم قصة الطاهرة، أشهر امرأة إيرانية؛ على المرء الاطلاع على شيء من أحوال إيران في زمانها، وفهم التعجيل الاستثنائي لظاهرة الدين الذي عرف باسم الديانة البهائية وولد في تلك الأرض في منتصف القرن التاسع عشر. فحتى ذلك الوقت، كانت النساء تخضع بشكل من الأشكال للعبودية. اليوم - تشكل النساء نصف عدد سكان الأرض - وبعد قرون من السبات، انتبهن بشكل واسع لأهمية أدوارهن وتحمسنَ للمشاركة بأدوار جديدة. ومن المثير جدًا أن يَعلمنَ إن أول امرأة استشهدت كي ينلنَ حق تقرير المصير والحرية والاقتراع والتصويت، لم تكن امرأة من الغرب على الإطلاق، بل كانت امرأة شابة، شاعرة من مدينة قزوين في إيران، تعرف بـ «الطاهرة» أو في بعض الأحيان «قرّة العين».

ستقف شخصية الطاهرة الخالدة الشجاعة إلى الأبد أمام خلفية مشهد الخلود، لتقديمها حياتها فداء لبنات جنسها. إن شذى بطولتها وتفانيها وشجاعتها العطرة قد انتشرت في جميع القارات الخمس. فجميع البشر من مختلف الأديان والأجناس والمستويات يستنشقون حتى هذا اليوم عطر مآثرها وينوحون بدموع المحبة اشتياقًا عندما تنشد قصائد أشعارها العظيمة.

بتأثيرات مواقفها الشجاعة، أصبح الرجال والنساء أكثر تساويًا؛ إن

القوة والتقاليد القديمة، بدأت تفقد هيمنتها وصيتها ونفوذها، وحصلت نهضة ودعوات لمساواة روحية عالمية ومشاعر محبة للخدمة، كان للنساء دور رائد في انتشارها. حيث يلاحظ في هذا العصر الجديد تقاربًا للتساوي بين الذكور والإناث.

إن الرجل والمرأة مثل جناحي طائر الإنسانية، ولن يطير ويصل أوج طيرانه إلا بتساوي قوة جناحيه واستعدادهما. إنَّ أحد أهم تعاليم الديانة البهائية، هو أن تعتبر النساء متساويات مع الرجال ويتمتعن بحقوق وامتيازات متساوية وتعليم متساوٍ وفرص متكافئة. لقد قتلت الطاهرة من أجل هذه المبادئ، ومهمتنا اليوم العيش من أجل تحقيقها.

المترجم

قمة عملاقة شامخة باذخة.. سيدة جبارة ثائرة مُهابة.. شاعرة شابة رقيقة لطيفة.. روح شفّافة مُلهَمة.. عالمة مؤمنة وخطيبة فصيحة مجلجلة.. نيزك ناري في فضاء عشق محبوبها.. شهاب حارق لمعانديها.. محرّك خرافي لمن قرب مجال جاذبيتها.. مزلزلة لأعماق أسس معتقدات أعدائها.. جسورة محيّرة لعقول كل من سمعها وتعرّف عليها.. عظيمة جبارة أسقطت أوثان خرافات مجتمعها.. محطمة مكسّرة لأصنام أفكار كارهيها.. رمز قدوة فريد شجيعة لمحبيها.. تركت آثار خالدة مسحت مواقع سابقيها.. ذكرى عبير عطر لبنات جنسها.. باعثة لقوى الرعب في قلوب أعدائها.. مُبَجَلة عند أحبابها ومريديها.. قائدة حكيمة ملهمة في قراراتها.. شريفة عفيفة (طاهرة) باعتراف من تعرّف عليها.. ثريا منير لديجور مجالها.. سافور صمّ آذان مناهضيها.. إعصار لمن وقف في سبيلها.. هي: فاطمة أم سلمة، زرين تاج، قرّة العين، روح الفؤاد، روح الزهراء الزكية في عَوْدِها... الطاهرة.

تسرد هذه الرواية المترجمة عن الإنجليزية، أحداث قصة حقيقية وقعت في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، عن شخصية نسائية عجيبة أحدثت شبه ثورة فكرية في المجتمعين الإيراني والعراقي، ما دفع برجال الدين في البلدين، إضافة إلى والدها وعمها وزوجها ـ وكانوا من كبار رجال الدين في مدينتهم ـ وغيرهم من بقية أفراد عائلتها، لمعارضتها والقيام ضدها واتخاذ

كل السبل الممكنة لوقف اندفاعها في نشر ديانة سيدها (الباب) الذي آمنت بدعوته وفدت نفسها في النهاية بسرور وهي في عزّ شبابها من أجل انتشار دعوته، حينما تزينت وتعطرت وارتدت فستان زفافها حاملة شالها الحريري بيدها لتقدمه إلى جلادها كي يخنقها به ويكتم أنفاسها.

كانت عالمة يشار لها بالبنان، متعمقة في فهم معاني القرآن الكريم وتفسير آياته، وخطيبة فصيحة متفوهة جسورة في مساجد بغداد وطهران وكربلاء والنجف وقزوين، وشاعرة متمكنة باللغتين العربية والفارسية خلبت قصائدها ألباب سامعيها وأثارت إعجابهم وأحيت فيهم روح الإيمان، مما فتح عليها أبواب الاعتراض والحقد في مجتمع يعيش ظلمات القرون البالية لم يكن قد سمع أو شاهد من قبل امرأة بهذه الثقافة والعلم وقوة الشخصية.

بعدما ارتفع بيرق اسمها واشتهر نجم صيتها كعالمة من علماء المسلمين الأفذاذ وفاقت أقرانها من رجال الدين، راح الناس يتوافدون عليها أفرادًا وجماعات للتعرف على عقيدتها، وكلما مرّت في طريق عودتها من بغداد إلى مسقط رأسها في مدينة قزوين راكبة هودجها، كان الرجال يقدمون أنفسهم لخدمتها مستعدين للذود عنها بعدما يستمعون لخطبها الحماسية، رغم أنها كانت تدعو بصريح الخطاب إلى الإيمان بالدين الجديد، ومع ذلك، كانت هناك قرى كثيرة آمن أهلها بها واتخذوا لهم اسم «القرّتية» إعجابًا منهم بإيمانها وسعة علومها وقوة شخصيتها.

ـ ملاحظة: ـ أسماء شخصيات هذه الرواية وتواريخها وأحداثها حقيقية مثبتة في كتب التاريخ البابي والبهائي.

الفصل الأول

كان الوقت شتاءً في مدينة قزوين والبرد قارسًا، لكن غرفة مكتبة الحاج صالح كانت دافئة. فالمنقلة تبعث بحرارة نارها الذهبية في الأرجاء، حيث جلس على دثار يقرأ بصوت مرتفع كتابًا بين يديه على مسامع طفلة تجلس بكل هدوء بالقرب منه على وسادة مخملية.

كان الوقت قد قارب الضحى، حينما أنهى الحاج قراءته مغلقًا الكتاب، ملتفتًا بوجهه الجميل ذو الأنف المدبب نحو ابنته. وقال وهو يبتسم للوجه الصغير الذي ما زال مرفوعًا ينظر إليه سارحًا في عالم التأمل: -

- كنتِ هادئة جدًا يا صغيرتي. أكنتِ غارقة في أفكار بعيدة تحلمين بالتماس متعة الشباب؟ أم هي نوع من غفوة التأمل حين سماعك هذه الحقائق الإلهية؟

كانت الطاهرة[1] قد أزاحت نقاب وجهها خلال فترة الاستماع، ومالت نحو والدها وهي مغمورة في حالة من الإصغاء المدهشة. فتنهدت، كما لو أنها تصحو، بينما خفَّت حدة بريق عينيها السوداوين، لترتسم على شفتيها الفتية المدورتين ابتسامة ساحرة. وأجابت: -

---

(1) - اسمها عند الولادة (فاطمة) ولقبت في طفولتها (زرين تاج) بسبب لون شعرها الذهبي. ثم لقبت (قرّة العين) في أول رسالة وصلتها من السيد كاظم الرشتي حينما كان في كربلاء. وأخيرا القبت (الطاهرة) من قبل بهاء الله أثناء مؤتمر بدشت. (المترجم).

ـ لم أكن أحلم يا والدي. كنت أسمع وأفكر.

ـ تفكرين في ماذا؟ هل تنوين كتابة بعض الأشعار المدهشة كعادتك؟

ـ لا يا والدي، ليست هذه المرة. كنت أتساءل كم أمامي من أمور كثيرة لأتعلمها؟ وكم سيطول الوقت لأعرف حقائق وأسرار الكتب المقدسة.

ارتسمت على وجه الوالد ابتسامة إعجاب، وقال: ـ

(إذا تعلمتي بسرعة، فستتجاوزين والدكِ. ما أزال أذكر وكأنه يوم أمس فقط، عندما كنتِ تتهادين في هذه الغرفة وتقفين على رؤوس أصابعك لتلتمسي أغلفة كتب الرف السفلي. أما الآن فتقرأين جيدًا وتكتبين بخط جميل وتدركين معانٍ عميقةً فيما تقرأين. إنه لَأمر مدهش).

قال ذلك، ثم نهض من فوق وسادته مادًا خطواته فوق السجادة الثمينة ليعيد الكتاب إلى مكانه بين كتب رفوف مكتبته. ثم قال: ـ

(في الحقيقة، كنتِ أصغر سنًا من أختكِ الصغيرة «مرضية»، حينما بدأتي تضايقيني بأسئلتكِ التي لا ترحم. أسئلتكِ الذكية. تملكين رغبة للتعلّم يفتقر إليها الرجل. لو كنتِ صبيًا، لاحتللتي مكاني باعتبارك «مُلّا»).

فوعدت الطفلة الصغيرة والدها وبريق الحماسة ما زال يشع من عينيها: ـ (سأدرس بجد كما لو كنت ولدًا. هناك الكثير لأعرفه، خاصة في أمور الدين. لقد وضعت علامات على بعض آيات القرآن. فهل يمكن الاستفسار منك عنها؟)

أجاب الملّا صالح وهو يهزُّ رأسه بشيء من الحزن: ـ (ليس الآن.. أين ستقودك حماسة التعلّم هذه يا بنيتي؟ عليك الاهتمام بالملابس الجديدة،

وبتدبير أمور المنزل، بأفضل السبل لأداء واجبك تجاه زوجك الذي ستنضمين إليه قريبًا).

كان الملّا صالح رجل علم وسلطة وثروة. وبدت على وجهه معالم الجدية وهو يضيف: ـ (ألا يمكنك الاقتناع إلا بمعرفة كل شيء عن كل شيء؟ في رأيي أن والدتك امرأة متكاملة، ومع ذلك، فمن ناحية التعليم هي مجرد نقطة بالنسبة لسعة معارفك. ولكن تعالي الآن! فلقد حان موعد حضور الملالي للدرس الصباحي. أسمع صوت أحدهم في فناء الدار).

نهضت الطاهرة برشاقة الشباب تاركة شادورها الطويل الحريري الكثيف ينسدل على جسدها، ثم راحت ترتبه بأصابعها الرشيقة النحيفة الطويلة، وقالت بعد أن رفعت عينها تنظر إلى والدها بمحبة.

هل يمكنني البقاء اليوم؟ لقد اعتدت السماح لي بالاستماع لنقاشات الملالي في رواية الأحاديث وقراءة القرآن.

وبعفوية.. صدرت منها ضحكة خافتة، وقالت: ـ (هل تذكر حينما غفوت نائمة خلف الستارة، ولم يعرف أحد بمكاني؟).

أجاب والدها وهو يتوجه نحو باب الغرفة بهيبة وثبات وعليه عباءته وعمامته: ـ (أتذكر جيدًا، لقد كان الجو باردًا حينما عثرت عليكِ، وأسرعت لأضمك بيديَّ كي أدفئك. وأتذكر أني قلت لوالدتك، أنك كنتِ تبدين مثل ثعلب صغير تقرفص نائمًا في مكانه).

بقيت الطاهرة جالسة في مكتبة والدها، وقالت: ـ (حسنًا يا والدي.. لن أنام هذه المرة، فكما تعلم قد بلغت الثالثة عشر من عمري، ويمكنني البقاء صاحية بسهولة. فأنا أستمتع في الإصغاء لأحاديث الملالي، مع أنهم

يربكوني في بعض الأحيان بخلافاتهم وقلة استيعابهم. كما أن هناك الكثير من الحقائق تفوتهم. في الحقيقة يا والدي، ليس بينهم من هو أفضل منك في القراءة).

رفع والدها كتفيه العريضين وهو يغادر المكتبة وعلى وجهه ابتسامة خفيفة: ـ (عليّ أن أكون منتبهًا لمسايرتكِ. وأركز على ما تقولينه كي أستطيع متابعتك حينما يكون الحديث عن أمور مهمة.. من المؤسف أن يكون إخوتكِ أقلّ اهتماما منكِ بالأمور العلمية).

في تلك الأثناء.. دخل خادم يحمل سماور مليء بالماء الساخن، تتبعه خادمة تحمل صينية فضية عليها مجموعة من «الإستكانات» الزجاجية الرقيقة مزخرفة بألوان ذهبية وصحون صغيرة تحمل ذات النقوش والألوان.

نظرت الطاهرة إليهما ثم عادت لتكمل حديثها: ـ (ألا يجب علينا البحث دون كلل لنيل مفاهيم مشتركة للحقائق؟).

قال الملّا صالح بصوت يشوبه نفاد الصبر: ـ (بالطبع.. بالطبع..!)

وتمتم مع نفسه قائلا: ـ (حقائق..! من أين تعلمت مثل هذه الكلمات؟).

ثم كرر بصوت مرتفع: ـ (حسنًا اذهبي خلف الستارة لو كنتي تودين البقاء، وخذي معك لحافًا.. أسئلة.. أسئلة.. أسئلة! دائمًا تنقبين عميقًا.. عميقًا.. في الغوامض. ما يحيرني كونكِ مجرد بنت قادرة على فهم وتوضيح العديد من الأمور العميقة. إن كثيرًا من الملالي سيسعدون لامتلاك قدراتك. ولا شك أن الغضب سيتملك العديد منهم حينما يدركون مقدار عمق واتساع ثقافتك).

استجابت الطاهرة لأمر والدها وتقدمت لتتخذ لها مجلسًا خلف الستارة

السميكة الزرقاء المطرزة بالخيوط الذهبية والمعلقة في ركن صغير منزوٍ من المكتبة، ثم جلست على مخدة ثخينة وغطت كتفها بلحاف حريري، يتبعها والدها وبيده دثار ناعم مدّه فوق ساقيها. وهو يقول: ـ

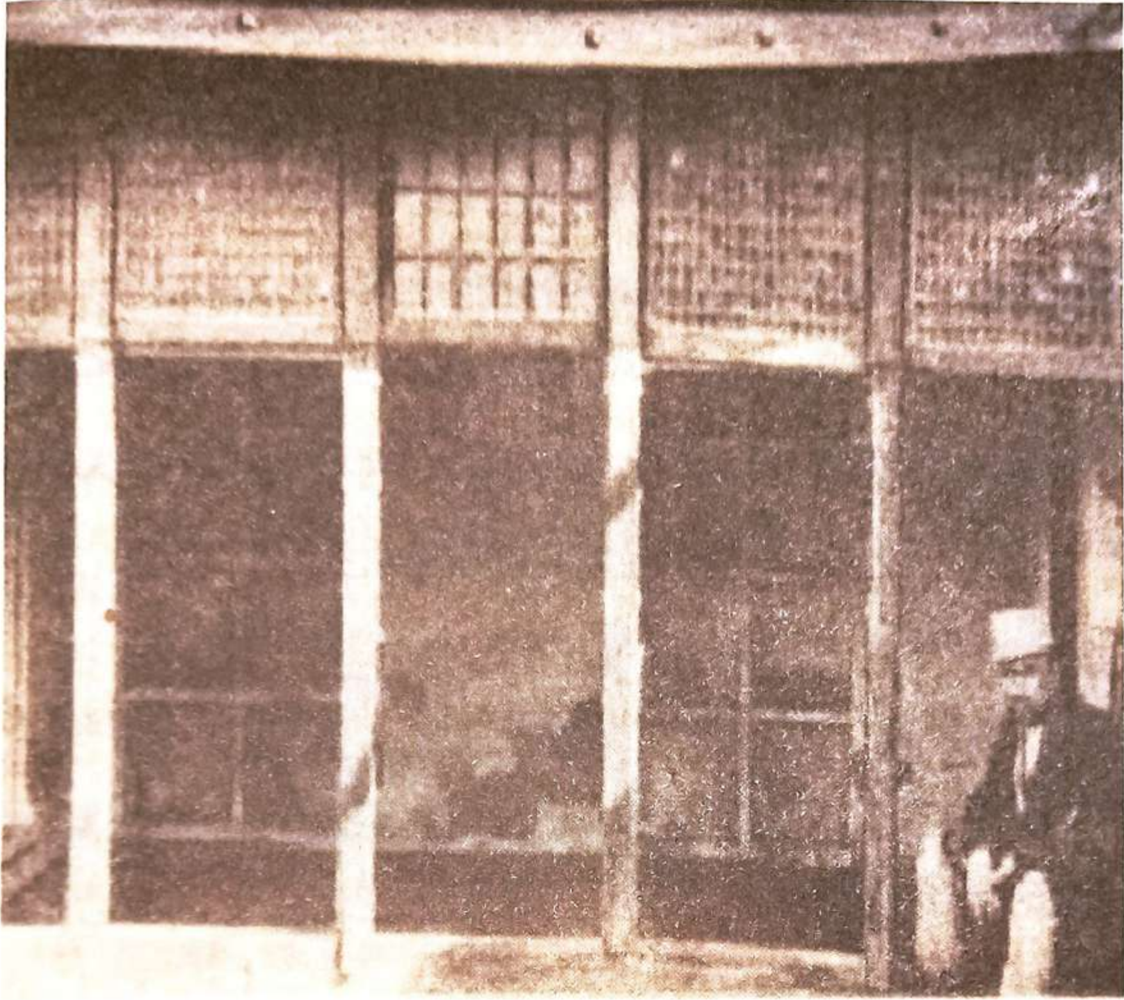
ـ (لا أريدك أن تمرضي من البرد. فحرارة نار المنقلة في صالة الرجال لا تصلك عبر الستارة).

شكرت الطاهرة والدها وهي تقول: ـ (أنت منتبه دائمًا لكل شيء).

ثم جلست وأسندت ظهرها إلى المكتبة بعينين مغمضتين.

كانت تأنس في تمييز أصوات الرجال حين قدومهم. فهي تعرف منهم صوت الملّا أصغر أكبري، الفخم الرنان وما يشوبه من غطرسة معهودة. لكن أول صوت سمعته، كان صوت عمها اللطيف الحاج ملّا علي، ذا النبرات الجميلة. وبقيت تنتظر ذلك الصوت الأجش المرتفع المخيف لعمها الكبير تقي.

كانت تتساءل عن أي موضوع سيتكلم الرجال هذا اليوم. هل سيتكلمون عن الشريعة الإسلامية، أم عن الأحاديث الشريفة للنبي محمد؟ لكن ذلك غير مهم. فستكون مستعدة لسماع كلماتهم حتى تتمكن من بناء أفكارها. فهذا ما يرغب به والدها العلامة ويطالبها العمل به.



مكتبة الشيخ الملا صالح البارغاني والد قرة العين الطاهرة في البيت الذي نشأت فيه بقزوين و يظهر في الصورة أحد أحفاد عائلتها.

بعدما تبادل القادمون التحية، واحتل كلٌ منهم مكانه على الفرش المرصوصة أسفل حائط الصالة. تحول تفكير الطاهرة نحو ما ذكره والدها عن الزوج الذي سترتبط به يومًا ما، والذي بالكاد تتذكر ملامح وجهه عندما كان صغيرًا. فهي مخطوبة لمحمد ابن عمها تقي منذ أمد بعيد. وحسب التقاليد الإسلامية، فهي تتوقع الزواج منه بعد أسابيع قليلة، بمجرد إكمالها سن الثالثة عشر.

بدأت تتساءل، كيف سيكون الحال حين الانتقال إلى قصر عمها،

حينما تترك بيتها الجميل وعائلتها، والخدم الذين أحبتهم. وبدون أن يتكدر خاطرها، أدركت أن آمالها ستكون في مهب الريح. كانت امرأة.. أداة بين أيدي الكبار، وعلى الخصوص والدها وعمها تقي.

وفكرت: ـ (كما تعلمت، فعليّ تعليم بقية البنات. فليس من الإنصاف أن يَعِشنَ في جهل، فالعلم كنز ثمين).

لقد شاهدت محمدًا، الصبي الذي ستتزوجه، لكن ذلك حدث منذ أمدٍ بعيد، عندما كانوا صغارًا. وبصعوبة تذكرت وجهه الأسود، وعينيه السوداوين المتقاربتين. وصوت والده العم تقي بنبرته العالية المزعجة. فهي لم تستلطفه، لكن عليها محاولة الشعور بالمحبة تجاهه.

كانت الطاهرة تفكر وتقول في نفسها: ـ (ولد مسكين.. قد يكون آنذاك تعيسًا لأمر ما. لا شك أنه كبر الآن وأصبح راشدًا. أما إذا ما زال مزعجًا ومتهورًا وسريع الغضب، فمن واجبي محاولة تغيير نظرته للحياة. فمن واجب الزوجة العمل على إسعاد زوجها). قالت ذلك، وهي تتذكر وتكرر ذات كلمات والدتها.

كانت الطاهرة مستغرقة في أفكارها غافلة عما يدور خلف الستارة. وفجأة، انتبهت أن مجمل الحوار الدائر قد فات عنها. وها هم يتكلمون الآن عن الخلق. كانت قد سمعت من قبل آرائهم بازدراء، ولا تتوقع شيئًا جديدًا. فهي لم توافق على العديد من تفاسيرهم للكتب المقدسة.

علق الملّا أصغر بملاحظة جوابًا لسؤال أثار تحديها فجأة. فرتبت جلستها واستعدت لتستمع جيدًا، بينما احمرت وجنتاها.

كان صوته هادرًا حينما قال: ـ (لا يجب استشارة النساء في أمور الشريعة، طالما كنَّ مخلوقات جاهلات أدنى مستوى من الرجال كثيرًا).

صدمت الملاحظة البنت المختبئة، فلقد كانت ملاحظة ظالمة غير عادلة. وبحزم.. كما اعتادت طلب توضيحات من والدها حينما ترتاب في أمر ما. رفعت صوتها وقالت: ـ

(أين نجد في القرآن ما يستدل عليه بأن النساء غير متساويات في الأهمية مع الرجال؟ ألم يقل تعالى: «أيحسب الإنسان أن يترك سدى. ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى»؟[1] ألا يوحي مفهوم هذا النص، أن الرجال والنساء متساوون أمام الله الذي خلقهم؟)

كان صوتها موسيقيًا هادئًا لا يشوبه ما يوحي بغضب أو توبيخ؛ بل ثقة هادئة تستند على ثقافة كبيرة ونبرة استفهامية تبحث عن تفهم وعدالة، ليس أكثر.

ومع ذلك، اندفع الملّا أصغر في ثورة عارمة.

وبوجه أسمر يمتلئ غضبًا، ويدين مرفوعتين. رمى بعباءته جانبًا، بينما انفرجت سترته على جانبيه، ونهض ليقف يجيل ببصره في أرجاء المكان، يبحث عن مصدر الصوت.

ثم صاح بصوت عال: ـ (من المتحدث؟ من ذا الذي يتحداني بمثل هذه الإهانة الوقحة؟ أنا أصغر أكبري...).

شخصت أنظار الملالي نحو مصدر الصوت خلف الستارة.

وبقلب خافق، انتظرت الطاهرة جواب والدها، متوقعة تدخله لمساعدتها في تصحيح الموقف لجرأتها غير اللائقة. إذ على البنت

---

(1) ـ سورة القيامة 36 ـ 39.

الإيرانية أن تبقى محجبة وتتدرب على الصمت في محضر الرجال. كانت متوقعة من والدها توضيح مداخلتها وإنقاذ الموقف.

وما هي إلا ثوان حتى انبرى والدها الملّا صالح لتهدئة الحالة، وقال: ـ (إنها ابنتي. وهي مهتمة بدراسة القرآن وجميع كتب الأديان الأخرى. ولا شك عندي إنها اقتبست الآيات بدقة متكاملة، فذاكرتها استثنائية. وعلى كل حال، لم يكن من اللائق أن ترفع صوتها أثناء هذا الاجتماع. ولن تفعل ذلك مرة أخرى يا سادتي. ولنكمل حديثنا).

ثم جاء إلى خلف الستارة، وخفض بصره ينظر نحو الطاهرة. لم تكن نظرات غضب؛ بل نظرات عتاب. وفي الحقيقة، ظنت أنها لمحت إشارة استحسان في عينيه، لكنها أومأت برأسها حزنًا، لتؤكد له أنها ستبقى صامتة.

لم يكن الملّا أصغر رجلا يسهل إرضاؤه.

فهدر متذمرًا: ـ (لقد أهنتُ من فتاة في هذه الغرفة، مع إنها تخفي نفسها خلف ستارة).

كانت شفته السفلى منتفخة بارزة تضغط على أختها، بينما عيناه تقدحان غضبًا، وهو يقول: ـ (أن تُسأل بهذه الطريقة! ومن طفلة! أمر غير معقول!).

قال والد الطاهرة وهو يشير إلى أحد الخدم الواقفين، مخاطبًا الحضور: ـ (هل نتناول الشاي!)

لكن الملّا أصغر، التفت وهو يتقدم نحو باب الحجرة ليغادرها. وما هي إلا ثوان حتى سمع الجميع صوت وقع حوافر حصانه تبتعد.

ولمعرفتها بما حدثَ من إرباك في مجلس الملالي، ووالدها أكثرهم، انسحبت الطاهرة بهدوء من باب جانبي، ونزلت مسرعة نحو جناح السيدات.

أسرعت أختها الصغيرة «مرضية»، للقائها، وأمسكت بيدها ترجو مرافقتها لإلقاء نظرة على بعض الأقمشة الجديدة التي اشترتها لهما والدتهما هذا اليوم.

قالت لها الطاهرة: ـ (نعم عزيزتي، كما تشائين. لكن عليّ التحدث أولًا مع الوالدة، لأخبرها عما حدث الآن في مجلس والدي).

حزنت الأخت الصغيرة وعمَّ وجهها الاكتئاب. وقالت متذمرة: ـ (تحشرين أنفك في الكتب العتيقة دائما. بينما هناك مليون حاجة أود إخبارك عنها).

ضحكت الطاهرة، وهي تسحب يدها بلطف من يد أختها المتشبثة بها، واتخذت لها مجلسًا بجانب والدتها.

وكالعادة.. كان هناك عديد من السيدات والخادمات في الغرفة الكبيرة، وحال رؤيتهن الطاهرة بينهن، توقفن عن الثرثرة وشنَّفن آذانهن لسماع ما ستقوله. فالنميمة هي سبيلهن الوحيد لمعرفة أخبار العوائل وما يشاع عنها، ويتكالبن لاستماع أي خبر صغير. فليس هناك الكثير ليتكلمن عنه طوال ساعات تواجدهن حبيسات في بيوتهن، عدا هذا الفتات القليل.

كانت الطاهرة تعلم عادات النسوة، لذلك تكلمت هامسة بصوت منخفض. وبعدما انتهت؛ نظرت تتفحص وجه والدتها اللطيف، وتشاهد تجعدات القلق على حاجبيها الكثيفين السوداوين.

تساءلت الوالدة: ـ (هل كان عمك تقي حاضرًا؟).

أجابت: ـ (لا).

زفرت الأم ما احتبست من شهيق، ثم همست في أذن ابنتها: ـ (الحمد لله. لقد نصحتك يا بنيتي من قبل أن تصوني لسانك. وأكررها مرة أخرى. لأنك قد تتسببين لنا جميعا بمشاكل عظيمة؛ ولنفسك أكثر من الجميع).

ثم اختلج صوتها وهي تحذرها بجملة غير كاملة: (لو كان تقي هناك...!).

ـ (لا أفهم سبب قلقكِ من عمي تقي؟ هل الأمر مهم لهذا الحد؟ الحقيقة هي الحقيقة، فلماذا يغضب منها؟)

تنهدت الوالدة وهزت رأسها مظهرة صبرها، ثم قالت: ـ

(يا ابنتي.. هناك حقائق كثيرة. أولها: إن عمك تقيًا رجل متكبر مغرور، وصاحب سلطة، ومن السهل أن يشتم الآخرين ويتجاوز عليهم، كما يسهل عليه إثارة المشاكل للآخرين هنا وهناك كيفما يشاء. أنتِ حكيمة أكثر من عمرك بمقدار كبير، وخاصة في مجال التعليم، ولكن في المقابل ما زلتي ساذجة مثل أختك الصغيرة مرضية. لقد أحرجتِ «أصغر». ألا تدركين ذلك؟ وبغض النظر عن الحقيقة، فمثل هذا الموضوع يغضب أي رجل لمجرد سماعه أن بنتًا تتحدى كلماته الوجيهة. يمكنني تصور مقدار غضبه. ماذا قال والدك؟)

أشرق وجه الطاهرة مبتسمًا لتؤكد لوالدتها: ـ (لم يقل لي شيئًا. لكن نظرته لي كما أتصور، كانت ضحكًا أكثر من غضب).

قالت والدتها: ـ (لا شك.. لا شك.. فهو فخور جدًا بكِ وبقدرتك الرائعة على تذكر كل ما تحفظينه من علوم تلك المقاطع الصعبة بكل سهولة. ومن المحتمل أنه لم ينتبه للنتائج الآن. تقي.. أوه.. تقي.. لا يمكنني احتمال التفكير بما كان سيحصل هناك، لو كان موجودًا).

ثم ضربت بلطف راحتيها ببعضهما، بينما وصلت خادمة، لتقول: ـ (دعونا نشرب الشاي ونهدئ أعصابنا).

ابتسمت الطاهرة وقالت: ـ (أعصابي هادئة. ومع ذلك، فقليل من الفواكه وبعض الشاي الساخن، سيكون مفيدًا ومنعشًا. لقد كانت قاعة الدرس باردة).

ابتعدت مرضية الصغيرة في هذه الأثناء، فمالت الوالدة تهمس في أذن الطاهرة: ـ (لم يجد عمك الملاّ تقي من قبل ما يثيره بخصوص تصرفاتك، لذلك لم يكن هناك موجب للكلام. أما الآن.. فعلي أن أخبرك: صحيح أن من حقه رفض بنتٍ غير مناسبة لزواج ولده. لكن ذلك سيكون عيبًا كبيرًا بحق عوائل البرقاني جميعًا، وعلى الخصوص بالنسبة لكِ يا صغيرتي، فذلك سيجعل منكِ امرأة منبوذة. بالتأكيد أنتِ تعلمين أحكام الشريعة أكثر مني بعد طول سنوات دراستك.).

تأملت الطاهرة كلام والدتها، ثم قالت: ـ (بالتأكيد.. لكن عليه تقديم سبب معقول قبل أن يقرر التخلي، وأنا...)

قاطعتها والدتها: ـ (حماستك هذه ستوجد سببًا لذلك، إذا أراد خلق موضوع منها. فالرجال الإيرانيين ـ وكما تعلمين جيدًا ـ يعتبرون أن من العيب على البنت إظهار وجهها في محضرهم، والعيب الأكبر، إظهار المرء علومه لمعارضة علوم رجال يعتبرون أنفسهم علماء الأمة).

أجابت الطاهرة: ـ (فهمت. ولكني ما زلت أشعر أني لم أفعل شيئًا خاطئًا).

قالت والدتها: ـ (بنيتي.. أنتِ لست كبقية بنات سنك. أنا فخورة بكِ كما أنتِ.. متحمسة وحيوية جدًا. لكن عمك تقيًا، ليس واسع الأفق مثل

والدك الطيب. ولن أستريح حتى أعرف ما يضمر في رأسه تجاه... أوه، لا أظن خبر طيشك لم يصله بعد. من المؤكد أن الملّا أصغر أخبره الآن).

تنفست الطاهرة بعمق غير مبدية اهتمامًا للموضوع. وقالت: - (أنا واثقة من محبة والدي. ومهما حصل، فسيكون عطوفًا ومحبًا. فقط... عليَّ بالدراسة لبعض الوقت. أمي.. حتى أتجهز للدرس، فهل تسمحين لي بالانصراف؟).

تبسمت والدتها، وقالت: - (نعم أيتها المعلمة الصغيرة. ولكن عليك أولًا أن تسمحي للخادمة بتسريح شعرك وترتيب هندامك. وسأذهب معكِ إلى غرفتك. كما عليك منح أختك الصغيرة بعض الوقت. إنها تبتغي موافقتك على ما اختارته من أقمشة. كما أرغب أيضًا أن تختاري لنفسك أفضل أنواعه).

- (دعينا نفعل ذلك أولا).

ثم نادت على مرضية.

لم يحز اهتمام الطاهرة ما عرضته الخادمة من مطرزات وحرائر. لأنها تفضل البساطة والأناقة في ملبسها، وتبحث عن الأقمشة الجيدة والملابس الجذابة.

ومع ذلك فقد أعجبتها قطعة فضية بيضاء جميلة مطرزة، وأخرى وردية غامقة مطرزة بزرقة لامعة، فهي تفضل الألوان الوردية للطافتها والأصفر الباهت بلون الشموع والوردي الغامق الدافئ. وتميل للون الأبيض، فهو دليل الطهارة، ودائما ما يحوز رضاها.

وبعد تنقيب وتقليب الكثير من قطع القماش والألوان، اختارت الأخت الصغيرة لونًا أصفرًا وبرتقاليًا بمساعدة الطاهرة ووالدتها قائلتين، إنه ينسجم مع لون بشرتها الحليبي وشعر رأسها الأصفر الغامق.

أخيرًا انتهت من واجبها تجاه أختها الصغيرة، فأسرعت الطاهرة إلى جناحها ذي الغرفات المتعددة.

كان هناك الكثير من الكتب المبعثرة في كل مكان، استعارت العديد منها من مكتبة والدها، والبعض الآخر هدايا من أفراد عائلتها الذين يعلمون مقدار نهمها للمعرفة. أعزّ الكتب إلى قلبها، كان هدية من معلمها الشيخ المحبوب أشرف النوري.

إن حالة كتبها، توحي للناظر أنها ليست غرفة بنت لطيفة. فقد كان على طاولة منخفضة كتاب ما زال مفتوحًا، بينما تكدست على الأرض بجانبه ثلاثة مراجع.

كانت الغرفة تبدو لسيدة عالمة، وليست لفتاة على حافة سن المراهقة. لكنها تعلمت أن تتصرف كامرأة. فمنذ دخولها سن الثمان سنوات، جُلب لانتباهها، أنها لم تعد طفلة، وعليها التصرف على هذا الأساس.

قالت والدتها: ـ (سأجلس معك بينما يُمشط شعرك. من الجميل أن أكون معك. وأفزع من اليوم الذي سيكون لكِ بيت خاص بعيد عني).

تبسمت الطاهرة. ففكرة الزواج لا تخيفها. لأن العديد من قريناتها أصبحن زوجات. ومنهن من أمسنَّ أمهات.

قالت وهي تتأمل: ـ (الحجاب.. قسم الحريم.. التقاليد.. العديد من

نساء إيران محرومات من أمور كثيرة، وأظنني سأبقى على ذات الحال. لدينا حريات شخصية قليلة جدًا، ولكن أعتقد أنه من خلال التعليم، يمكننا تحقيق ذلك ولو جزئيًا).

فجأة رفعت رأسها لتميله، بينما الخادمة ما زالت تمشط شعرها الأسود اللمّاع، لتأمرها بصوت لطيف: - (أكملي بسرعة وألبسيني ردائي).

ثم التفت إلى أمها التي بدت مندهشة ومرتبكة، وقالت: - (أظن يوسف قادمًا للقائي. أتساءل ما الغرض)؟.

سمعتها والدتها وضحكت رغم غرابة الموقف. وقالت: -

(لا بد أن لكِ آذانًا في أخمص قدميك، طالما تسمعين كل شيء. بالطبع أن هناك أمرًا مشتركًا بينك وبين يوسف العجوز. هناك تفاهم وتناغم عجيب بينكما. أنتما تقرآن أفكار بعضكما. أفكر في بعض الأحيان...).

في تلك الأثناء دخلت خادمة لتعلن أن هناك شخصًا يقف على باب قسم الحريم يطلب الأميرة طاهرة.

قالت الأم: - (يوسف!).

أجابت الطاهرة: - (بالطبع.. أنا متأكدة أن والدي يطلبني. لأمر يتعلق بما حدث هذا الصباح، ولكن لا تقلقي كثيرًا يا والدتي. وتذكري أنه يحبني. إن العم تقيًا رجل متشدد، لكني أشك أنه نِد لوالدي).

سألتها الوالدة: - (هل أطلب من تلاميذك الانتظار؟).

أجابت: - (أرجوكِ أن تفعلي، سأعود بسرعة قدر الإمكان. واسمحي للأمهات الجلوس خلف الستارة إذا رغبن، فهن لا يتعلمن بسرعة بناتهن، لكنهن يتعلمن).

تنهدت والدة الطاهرة وهي تقول: ـ (هذا صحيح، فالمرء يتعلم بسرعة أكبر في صباه؛ إن تعود والدك في مناقشة أمور الدين معنا أثناء الأمسيات، أنارني. كما أني تعلمت الكثير منكِ يا بنيتي. لقد ولدتي حكيمة.. أعتقد، لتتمكني بسهولة من استيعاب أمور ثقيلة. ومن خلال كلامه معك، قدَّم لي خدمة كبيرة).

أنهت الخادمة «قانتة» عملها وغادرت الغرفة.

قالت الطاهرة: ـ (يا للخجل، إن شابة مثلها عليها أن تكون خادمة. إن لها عقلًا منورًا يا والدتي. هل يمكننا العثور على طريقة لتحسين حياتها؟).

أجابت الوالدة: ـ (ألا تلاحظين كم تساعدينها؟ أنا فخورة بعملك المتفاني من أجل النساء. إنها مهنة نبيلة. وكما تقولين: «عندما تصل النساء لتفهّم حقوقهن بشكل أفضل، ويمضين كتفًا لكتف مع ذكور أفراد عوائلهن، فسيبدأن بالنظر قدمًا نحو نزع الحجاب ونحو فجر حرياتهن الشخصية. عليكِ بالإسراع يا حبيبتي، فلا يحبذ والدك انتظاركِ كثيرًا).

الفصل الثاني

بيدين مضمومتين إلى صدره، وقف يوسف منتظرًا في صالة الانتظار الصغيرة لمجلس السيدات، حينما أزاحت الطاهرة الستارة بينهما؛ فانحنى إجلالًا لتحيتها، وهو يتمتم منزلًا البركات عليها. وقال: ـ (لقد أمر والدك بحضور سعادتكِ).

فهمست: ـ (أنا جاهزة.. هل هو غاضب جدا).

أجابها يوسف بصوت منخفض وهو يعلم أن هناك من يسترق السمع بفضول من خلف الستارة الخفيفة: ـ (لا.. ليس غاضبًا. حزين نوعا ما وقلق. لقد كان في حوار مع عمك تقي).

فسألته: ـ (وعمي تقي، هل شاهدته يصل؟ هل كان منزعجًا؟).

تردد يوسف وهو يجيب: ـ (عمك تقي عاصفة بملابس رجل. صوته حاد مستنكر، منزعج على الدوام، مثل دوامة زوبعة ترابية).

تمتمت الطاهرة: ـ (يحتمل أني تسببت بمشكلة لعائلتنا).

رد عليها يوسف بحزم: ـ (أنتِ جلبتي السعادة لنا جميعا منذ يوم ولادتكِ. أنتِ مبعث سرور لنا يا أميرتي).

مسَّها تفهمه العميق كثيرًا، واغرورقت عيناها بالدموع تحت حجابها.

كان يوسف صديقها وخادمها طوال حياتها، ولم تشعر بعلاقة تفاهم مع أي شخص بمثل ما معه، فهما متفقا الأفكار في كثير من الأحيان.

تقدمها يوسف ماشيًا في ممر قصر والدها الهادئ الكبير، والطاهرة تتبعه وتتحرك برشاقة، دليل التربية والتدريب.

أعلن يوسف عن حضورها داخل المكتبة، وأغلق الباب خلفها.

مرة أخرى كانت وحيدة مع والدها في الغرفة التي أحبتها أكثر من غيرها؛ لكن هدوء الساعات السابقة قد اختفى. فطالما قد استدعيت. فهنالك أمر ما سيكشف النقاب عنه. فجأة بدأت ترتجف، لكنها رفعت رأسها عاليًا وسعت لإظهار هدوئها.

فقالت: ـ (والدي).

كان يقف بعيدًا في نهاية الغرفة، وظهره باتجاهها. التفت نحوها ببطء، ونظر إليها بعينيه الكبيرتين من تحت حاجبيه السوداوين الكثيفين ليستقر نظره على هيكل ردائها الوردي وكأنه مثل بقعة ملونة زاهية على باب الغرفة الضارب للحمرة.

ـ ابنتي! تعالي يا عزيزتي واجلسي.

كانت هناك عاطفة في نبرته. ميزتها دون أن تعرف السبب، ولا عن ماذا تنبئ. ثم اقترب بقامته الطويلة المهيبة الوقورة، وأخذ بيديها الساختتين بعدما قدمتهما له لتحيته. لم يتكلم معها بغضب، فهدّأ ذلك من مشاعرها؛ ثم أجلسها قرب موقد النار حيث موجات الترحيب الحارة. جلس بجانبها، لكنه وضع يده تحت ذقنه لبعض الوقت متأملًا، وقد حوّل بصره عنها كأنه شارد الذهن.

رفعت الطاهرة حجابها لاطمئنانها أنهما وحيدان في الغرفة، ولما لم تعد تتحمل الانتظار، لمست كتفه بحياء. وقالت: ـ

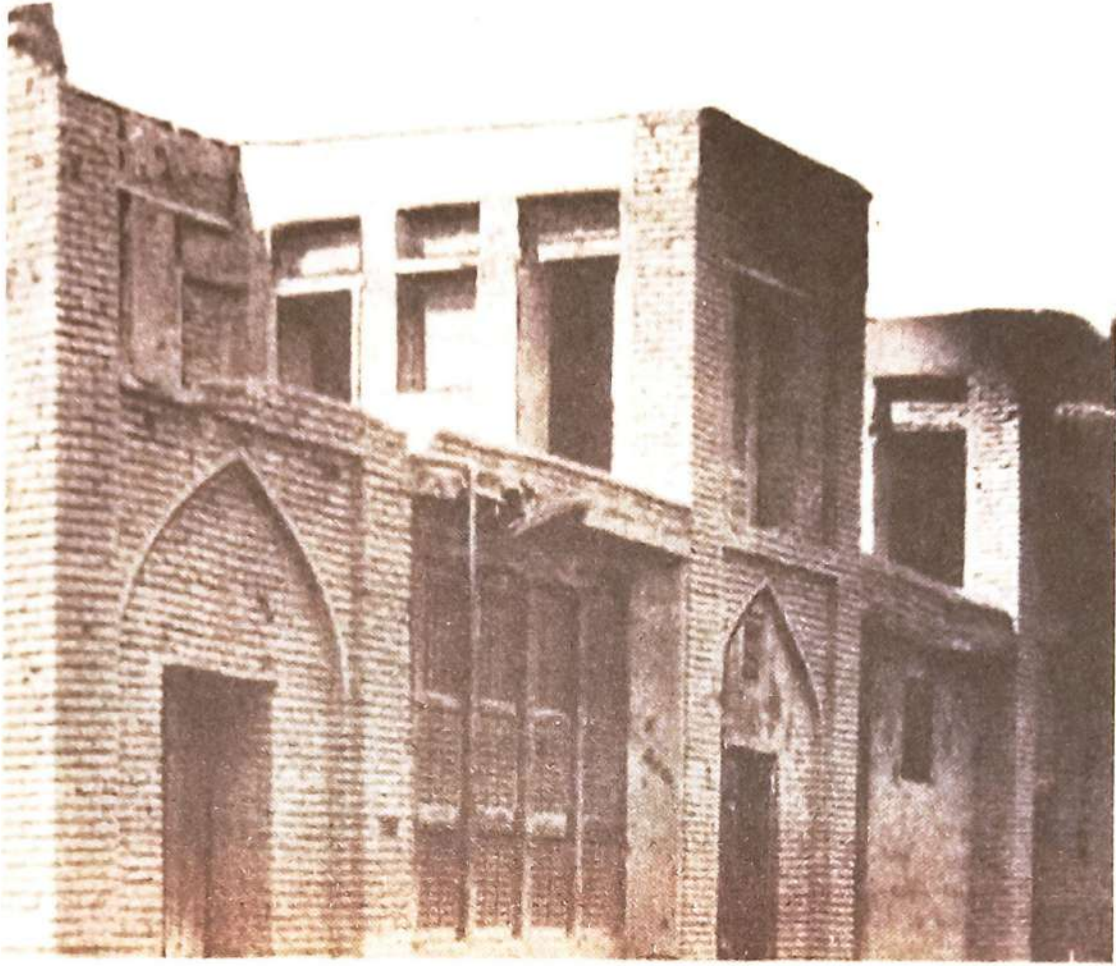
(والدي.. ماذا يزعجكَ؟ هل الموضوع عن أصغر؟ هل تسبب بمشاكل؟ هل أخبر العمّ تقي بتعليقي؟)

أومأ الملّا صالح برأسه. وقال: ـ

(كان من الممكن أن يسوء الأمر كثيرًا بالنسبة لنا، وخصوصًا لكِ. ولكن لحسن الحظ استطعت تغيير أفكار أخي. وأوضحت موضوع أصغر، الذي لا يستلطفه هو. وأخبرته كم بدا أصغر أحمقًا عندما اقتبستِ له آياتٍ كان المفروض به أن يعرفها. ثم اقترحتُ عليه: «طالما يملك أصغر عقلًا جيدًا، فعلينا دعوته لإعطاء دروس في مدرستنا، فهذا سيزيل من عقله أي شعور بالضغينة. ويبدو أن الاقتراح قد أعجب أخي. ثم قلت له، وسيكون من المستحسن لكِ أيضًا، أن تشاركي في التدريس ـ محجوبة عن الرجال، بالطبع ـ طالما تمتلكين عقلية نيرة. فأبدى موافقته كذلك»).

وهنا ظهرت على وجه الطاهرة ابتسامة رضى.

ثم أكمل حديثه: ـ (والآن.. فقد حان الزمن للموضوع الذي يبدو أنه يزعجك يا ابنتي. كما تعلمين طوال حياتك أنه يومًا ما ستتزوجين محمد، ابن عمك تقي. وتقي يضغط عليّ مرة بعد أخرى لتحديد موعد للزواج. واليوم بعدما أنهينا موضوع أصغر، ذكرت له موضوع الزواج، وأخبرته بأني سأحدد له الموعد حينما أراه في المرة القادمة. لذلك، فعلينا أن ننجز ذلك في هذا اليوم بالتحديد، ولا يمكنني تجاهله أكثر من ذلك، وعليّ المبادرة، فقد وعدته).



أحد البيوت المملوكة لعائلة آل البرغاني في قزوين
و الذي عاشت فيه قرة العين الطاهرة قبيل تمكنها من الهرب إلى طهران برفقة مأمونة

قالت الطاهرة ورأسها منحنية: ـ (لو كان لا بد من ذلك، فأود الكلام مع محمد قبل أن أصبح زوجته، أود أخذ فكرة عن مبادئه وشخصيته. فلقد سمعت أمورًا عنه، حماقته، تكبره، احتقاره للمرأة. فهل تدبر لنا لقاء يا والدي؟).

نظر الملّا صالح إلى وجهها، ومعالم الارتياب ترتسم على جميع ملامحه.

ـ (مستحيل! أنت تعلمين إن ذلك مستحيل).

تساءلت الطاهرة بحيوية: ـ (لماذا..؟ صحيح أنه سيكون مخالف للأعراف. نعم، لكن القران...).

قفز الوالد ليقف، وقال صائحًا: ـ

(الآن لا تقتبسي لي من القرآن، إن الملالي سيجدون أكثر من سبب للظن بجنوني إذا تصرفت ضد جميع العادات والأعراف السائدة بهذه الطريقة الهوجاء. اذهبي واخبري والدتك أنكِ ستتزوجين محمدًا حالما تنتهي الترتيبات اللازمة، واطلبي منها تحديد موعد مناسب).

نهضت الطاهرة متجهة نحو الباب متفكرة، لكنها التفتت لتقول: ـ (يا والدي.. كيف سأتمكن من العيش في بيت العم تقي؟ فهو لن يسمح لي بالدراسة مثلما تفعل أنت، أو استعمال كتبه في غرفتي الخاصة. فالكتب هي حياتي يا والدي. وبدونها... سوف أموت، حتى ولو كنت أتنفس).



بيت عائلة آل البارغاني في قزوين الذي عاشت فيه قرة العين الطاهرة

فذكّرها الوالد: ـ (تملكين مورِدكِ الخاص، ولن تحرمي منه بسبب الزواج. وغرفك هنا ستبقى لكِ، تستعملينها كيفما تشائين. كما يمكنك استعارة كتبي، كذلك يمكنك شراء كتبك الشخصية، وستزورين والدتك وأنا يوميًا، إذا كانت هذه رغبتك).

ـ (ولكن لنفترض أن عمي...).

فأجابها بحزم مثل خنجر قاطع: ـ (يعلم عمك تقي جيدًا أني أعرف عنه أمورًا معينة لا يسره كشفها. سيكون عنيدًا في موضوع اهتمامك بالتعلم. وحالما تتزوجين من ولده، فمن المحتمل أنه سيكون صارمًا، فهو يخشى ـ كما أظن ـ أنكِ ستُظهرين مدى جهله ببعض الأمور. في الحقيقة، لقد قال هذا الصباح: «كيف يكون الرجل سيد عائلته، بينما زوجته أكثر تعليمًا منه؟» إنه يعلم أن ولده محمدًا لا يجاريكِ في ثقافتكِ، ولا يوجد ـ في رأيي ـ شاب من العوائل الراقية بهذه المستوى. ولكن، إذا كنتِ حكيمة حقًا كما أعرفك، فستتمكنين من إخفاء حكمتك واستعمال تدبيرك كامرأة، مع عمك تقي وولده).

وكأنه وداع أخير. نظرت الطاهرة إلى الغرفة الجميلة وإلى مزيج ألوان السجادة الناعمة، والستائر المخملية المتدلية، وإلى الثريات العديدة بمصابيحها الزجاجية البراقة منشورية الشكل، وإلى بلاط الغرفة، وللتحفيات والمزهريات النادرة التي تزينها، وكرسي الأبنوس الوحيد المرصع بحِرفية متقنة بأصداف اللؤلؤ، وإلى كنوز أصدقائها المرصوصة من صفوف الكتب.

كانت متعتها الرائعة الأولى، تصفح تلك الصفحات الغنية البراقة؛ أما الثانية فكانت في تعلم وقراءة كلماتها الرائعة.

تقدم الملّا صالح نحوها، ورفع ذقنها بإصبعه. وقال: -

(والآن.. الآن.. افرحي. هل من المرعب التفكير بالزواج؟ جميع الفتيات يحلمن بيوم الزفاف، أليس كذلك؟ لم تكن أمك الغالية أكبر منكِ سنًّا عندما جاءت إلى بيتي، وكان لنا حياة سعيدة).

قالت الطاهرة: - (كان أملي أن لا أتزوج حين إتمامي الثلاثة عشر).

أجابها: - (تبدين الآن أكبر كثيرًا من سن الثالثة عشرة. حسب بعض الثقافات، أنتِ امرأة ناضجة الآن. أنتِ لا تنتبهين كم أصبحتِ متألقة يا ابنتي. كم هو استثنائي لأي أنثى في إيران، صغيرة كانت أم كبيرة، الحصول على مستوى ثقافتك التي اهتممتِ بها. أقول اهتممتِ، لأنكِ لم تكوني تملكين الوقت لتعلم ما برعتِ به. الاهتمام هي الكلمة المناسبة. أما الآن يا صغيرتي، فستتعلمين من الحياة).

أسدلت الطاهرة برقعها ونقرت على الباب. ففتح يوسف على الفور، وهو منحنٍ بطريقته المحترمة المعهودة.

في هذه المرة سبقته وهي صامتة طوال الممر، تكتنفها الانفعالات. ثم انتبهت لوجوده. وبدت أفكاره وكأنها تصل عقلها. فالتفتت نحوه متحفزة وقالت وهي تحاول أن لا يشوب صوتها اهتزاز: - (سأتزوج يا يوسف).

- (نعم يا أميرتي، أعلم ذلك).

- (قريب.. قريب جدًا).

- نعم يا أميرة.

ـ هل كنتَ تعلم ذلك؟

ـ أعلم. سيكون هذا البيت مقفرًا من دونك.

ـ (وأنا أيضًا سأكون كذلك من دونه).

لم تكد ترفع الستارة، حتى أسرعت مرضية للقائها.

ـ ماذا أراد والدي منك؟ يبدو أنكِ فعلتي أمرًا سيئًا، إذا كان قد وبخكِ. هل أنتِ تبكين؟

خفضت الطاهرة بنظرها إلى وجه أختها الصغير الكئيب وهي تجتهد رسم ابتسامة على وجهها. واعترفت لها: ـ

(أنا لا أبكي، لكني أحب أن أفعل. فوالدي يصر على زواجي من محمد في القريب العاجل. عليّ أن أخبر والدتي، واسمحي لي أن أخبرها بنفسي، فلا يهم مقدار اندفاعكِ لإخبارها بدلًا مني).

ويبدو أنه لم تكن لمرضية الرغبة في العجلة. فرمت بكلتا يديها حول الطاهرة واحتضنتها بقوة. ولثوانٍ كانت صامتة مندهشة.

حينما رأت الوالدة، الطاهرة تدخل عليها، ناولت طفلًا كانت تجلسه بهدوء في حضنها إلى إحدى الخادمات، في الوقت الذي أخذت الطاهرة مكانها المعتاد على ركبتها، فسألتها الوالدة: ـ (لقد أخبر يوسف قانتة، أن تقيًا كان مع والدك؛ في البداية كان يبدو في مزاج سيء، ولم يتحسن إلا حين مغادرته بيتنا. أظنه جاء مصرًا مرة أخرى على تحديد موعد للزواج).

اندهشت الطاهرة وقالت: ـ (كم تعرفين جيدًا عادات الناس. هذا

صحيح. فقد طلب والدي مني أن أخبرك بتحديد موعد للزواج، وأن لا يكون بعيدًا. إنه يريد أن تبدئي التحضيرات فورًا).

- (فورًا؟)

قالت ذلك ومعالم التعجب تملأ وجهها.

- (ولكن، نعم. سأفعل طالما يريده والدك على هذا النحو. تبدين صغيرة جدًا، لكنك أكبر بستة شهور مني عندما أصبحت زوجة).

صاحت الطفلة الصغيرة مبتهجة، وراحت تدور في الغرفة أمام أختها ووالدتها مثل درويش صغير: - (عرس.. عرس.. كم سيكون ذلك مثيرًا. سيكون هنالك كثير من الطعام الجيد لنأكله، وهدايا، وسيأتي جميع الناس. آه.. يا أختي، لا أود أن تتركيني. لكنه من الممتع الذهاب لرؤيتك في قصر آخر. أتمنى زيارتك كل يوم، ولديكِ طفل لي ألعب معه، و...).

فحذرتها والدتها: - (أهدئي، فالموعد لم يحدد بعد).

فجأة.. اختفى الفرح من وجه مرضية وبدأت في البكاء، ملقية بذراعيها حول الطاهرة مرة أخرى. وهي تقول: -

- (لكني سأكون وحيدة، أريد منكِ البقاء هنا. أريد أن تستمري بتعليمي. لا أحد يحسن التعليم كما تفعلين. ولن أتعلم أي شيء آخر، إذا ابتعدتِ).

أكدت الطاهرة: - (سأكون هنا يوميًا. إلا إذا عارض... زوجي ذلك. وبالطبع سأستمر على تعليمك يا حلوتي. أعتقد أن الوالد يرغب استمراري في التدريس).

قالت الوالدة: - (اذهبي ونادي على قانتة، قولي لها أن هناك أمورًا عليّ

مناقشتها معها بشكل مطوّل. وأعثري على عمتك، فهي جيدة في تجهيز المناسبات. سأحتاج لكل مساعدة ممكنة. وسنحتاج أفكارًا وتحضيرات طعام وأعمال خياطة لا نهاية لها... أركضي أيتها الأخت الصغيرة من أجل العروس القادمة).

تغلبت الأخت الصغيرة على انفعالاتها وأطاعت لتترك المكان. فالتفت الطاهرة مرة أخرى إلى والدتها.

ـ (ستتأخر دراستي. ولكن يا والدتي، أشعر أنكِ تملكين الكثير لتعلميني).

أخذت الوالدة يديّ ابنتها وضمتهما بقوة.

ـ (أفهم ذلك.. أنتِ شابة حكيمة، لكنكِ جاهلة بأحوال الرجال وأمور الزوجة. أنا لا أملك عقل والدك المجرّب. لكن هناك أمورًا يمكنني تعليمها لكِ. قبل كل شيء، أنبهكِ لاستعمال كل لباقة مع ابن عمك محمد. فهو أناني مستبد. وسيكون من واجبك تعليمه اللطافة والاحترام).

تمتمت الطاهرة: ـ (سأحتاج إلى الصبر. صلّي كي أحصل على ما أحتاجه من صبر. لقد ذهبت إلى القرى وشاهدت النساء يعملن جنبا لجنب مع الرجال، وهذا ما أثار فيّ الغضب، فنحن نساء الطبقة العليا، علينا أن نعامل مثل عبيد جميلات).

تنهدت الوالدة وقالت: ـ (لا يمكننا تغيير عادات وموروثات الناس في يوم واحد. ألا تلاحظين كم تبذلين من جهد كبير لتحسين حالة المرأة هنا في بيتنا الخاص. أنا أعلم إنكِ ستستمرين في هذا العمل. فأنتِ شخص متفانٍ يا ابنتي. ومع الأيام، سيمنحك الله أفضل القدرات).

أجابت الطاهرة: - (أنتِ تخجليني. لقد سمحت لنفسي بالنسيان لفترة قليلة. فهل تسمحين لي الآن يا والدتي؟ أشعر بحاجتي للهدوء والقراءة بعض الوقت قبل مواجهة طلابي).

تركت جميع أفكارها جانبًا وانسحبت إلى غرفتها لتغلق الباب عليها. وبعيدًا عن العائلة والخدم، توجهت إلى كتابها المفتوح وجلست بجانب المنضدة المنخفضة. وفورًا جلبت انتباهها ذات الجملة التي كانت تقرأها قبل تركها المكان.

فقرأت كلماتها بصوت عال، مركزة على جمال باطن معانيها الدقيقة: -

(ليس لله ندٌّ ولا مثال).

(يفعل ما يشاء ويريد. وليس ما نشاء أن يفعله. لا يمكننا تغييره، فهو لا يتغير).

رددت الطاهرة في سرّها، ووجهها يضيئ بنفاذ البصيرة: -

- «لا يمكننا تغييره، فهو لا يتغير».

- (لا يمكننا تغيره، ولكن يمكن تغيير أنفسنا... لا يمكنني تغيير التقاليد، ولكن يمكنني تغيير ردة فعلي تجاهها. ويمكنني أيضًا تغيير نفسي لتأخذ التقاليد معنى مختلفًا لي وللآخرين. وفي هذه الحالة، عليّ اختيار الأفضل مع مراعاة السمعة الحسنة. سأتقرب منها بفرح كأمر مقدّر لي من عند الله).

وبينما هي جالسة، بدأت تسمع في داخلها كلمات روحانية لقصيدة هيام تنساب متناغمة لتتشكل داخل عقلها. ولعلمها أن عليها تسجيل هذه الإلهامات الثمينة على عجل قبل أن تفرَّ منها، بدأت تكتب كلماتها بخط جميل ورشيق.

وفجأة.. مثلما جاءتها لحظات الإلهام.. تركتها. فعادت مرة أخرى بهدوء لتكمل دراستها.

كانت طالباتها قد تجمعن بانتظارها، وشرارات حواراتهن تتطاير. وحالما شاهدنها، التزمن السكون، والتفتن إليها بوجوههن الصغيرة.

نظرت إليهن بقلب تملؤه المحبة.

كانت تفكر في نفسها: ـ (لو كان باستطاعتي إعطاؤهن ولو جزء قليل من الكنوز التي تنفرد أمامي، فسيكون في ذلك مكافأتي. عليّ بتوصيل أمهات المستقبل هؤلاء. لا بد لي من ذلك. سيكونن أول مدرسات لأولادهن. وسيأتون من بعدي. لذا عليّ قيادتهن جيدا).

كانت ترغب الكلام بطريقة راشدة. فالكلمات الصعبة التي يستعملها والدها وبقية الملالي المتعلمين مألوفة بالنسبة لها، لكن هؤلاء البنات الصغيرات لا يفقهنها، لذا كانت تتكلم بتردد كما لو أنها تترجم من لغة أجنبية، حتى تكون كلماتها بمستواهن البسيط.

ولتبعث النشاط في الحضور قصت عليهن حكاية فأر صغير وصعوبة تعلمه طرق الفئران. أما أختها الصغيرة فقد سمعت القصة عدة مرات، لكنها كانت جديدة لبقية البنات. وكنَّ مفتونات حين السماع وانفجرن بالضحك عند ختامها.

في هذه الأثناء، وصلتها صوت ضحكات مكتومة تكاد تسمع من خلال الستارة المؤدية إلى باحة الكبار. فتحركت بطريقة تلقائية لا تلفت النظر، وبحذر نظرت من خلال فتحة الستارة إلى النساء الجالسات. كان هناك مجموعة من أمهات البنات الصغيرات.

رقَّ قلبها إليهن. فهنّ لم يتمتعن بمثل فرصة بناتهن، فالعديد منهن لا يقرأن ولا يكتبن. لكنهن، جالسات يلتزمن الصمت والهدوء كي لا يتسببن بإزعاج المعلمة وتلاميذها، منصتات يتطلعن للمعرفة.

فكرت الطاهرة بتواضع: - (هذا هو الخبز الغني الذي أقدمه لعقولهن الجائعة. عسى أن يساعدني الله بإرادته).

ثم أضافت بعد تأمل قصير: - (عسى أن أقدم لأرواحهن خبزًا أغنى).

الفصل الثالث

باستمرار ترتيبات زواجها من محمد، راحت الطاهرة تنسحب بالتدريج من مجلس النساء شيئًا فشيئًا. في الظاهر كانت تبدو هادئة، لكنها من الداخل كانت مضطربة مثل عاصفة هوجاء. كان هناك الكثير لتنجزه قبل أن تتقبل التغيير الكبير في حياتها، ومن خلال قدراتها المدهشة على التركيز في عملها أدهشت حتى نفسها.

قالت: - (أنا أنضج يا والدتي. لم أعد أجلس وأحلم نهارًا. لكن أفكاري تتزاحم بسرعة مذهلة، وأفقد الكثير منها بسبب تشابكها ولا أتمكن من كتابتها لسرعة تواليها في عقلي. إنها مثل فقاعات تتفجر داخلي. فأقول لها: «انتظروا.. انتظروا..!» أعرف أني أفقد الكثير منها في كتاباتي).

نزلت الدموع من عيني والدتها، واحتضنت جسد ابنتها النحيف وطبعت قبلة لطيفة على جبينها. وسألتها بصوت حزين: -

(كيف يمكنني مساعدتك؟ ألست أنا موجودة حتى الآن خلفك أدعمك؟ يمكنني فقط محبتك والصلاة من أجل تأييدك).

***

كانت الطاهرة قد بدأت في تلك الفترة مهمة التدريس في المدرسة، أو كلية الشريعة، تحت إدارة والدها وعمها تقي.

الأغنياء في إيران وخاصة الملالي منهم، كانوا رمزًا للقوة. وإيران كانت مركزًا دينيًا للملالي الذين اغتصبوا السلطة بالتدريج وسيطروا على الحكومات المحلية ووصلوا في بعض الأحيان إلى أعلى المناصب الحكومية حتى في العاصمة طهران، عن طريق الرشاوى إذا فشلت السبل الأخرى. هؤلاء الملالي كان باستطاعتهم الوصول إلى أهدافهم بمختلف الوسائل الملتوية. لكن بعضهم كان متفتحًا، من ضمنهم تقي والملّا صالح، فهم يتساهلون مع البنات الراغبات في التعليم أو التدريس مثل الطاهرة.

لكن.. بسبب تساهل والدها وأخيه الملّا تقي ـ الذي ستصبح الطاهرة زوجة ولده قريبًا ـ لم يعترض على قيامها بالتدريس، وكان ملالي قزوين يستمعون لخطبها من خلف ستارة، ولم يثيروا ضدها هيجانًا أو نقمة.

في صباح أحد الأيام، قالت منتقدة تصريحات الملالي: ـ (لقد جاء جميع رسل الله بذات الكلمة والرسالة الإلهية. ألم يقل كرشنا وبوذا والمسيح (إني ذاهب وأعود مرة أخرى)؟ أليس من المؤكد أنهم لم يكونوا يشيرون بذلك إلى أنفسهم كرجال، ولكن كممثلين لله ولكلماته من خلالهم؟)

فارتفع صوت رجل من بين الجموع ليسألها: ـ (ماذا تقولين عن موسى؟)

كانت هذه أول محاضرة عامة لها في المدرسة، وانتشر خبرها بين أهل المدينة كالنار في الهشيم، وراح الجميع يتكلمون ويبدون آراءهم عن فحوى موضوع خطبتها وما ستقوله للناس، فالقليل منهم كانوا موافقين، بينما امتعض كثيرون لسماعهم خبر شابة في مقتبل عمرها، تلقي خطبها على مسامع العامة في محاضرة دينية؛ وتساءلوا عن جدوى ذلك والمدينة تغص بالملالي من كل الدرجات والأطياف.

- (هو أيضًا مظهر إلهي، أرسل لبني إسرائيل. جاء لأناس أكثر اختلافًا في الأصول ممن جاء إليهم كرشنا. إن الرسل العظام يظهرون حينما يحتاجهم البشر بشدة، بعدما يفقد الناس المعنى الحقيقي للكلمة الإلهية. فيجددون رسالة الله ويثبتوا كلمته، ويذكروهم بأن هناك ربًا واحدًا وهو ذات الإله).

قال آخر: - (ألم يدّع المسيح أنه ابن الله؟)

- (لقد قال عن نفسه، أن ليس باستطاعته فعل شيء لوحده، فالآب هو الذي يفعل كل شيء. أنا أؤمن أن جميع رسل الله تجسيد لكلمة الله. ففي العهد الجديد في كتاب يوحنا، نجد هذه الكلمات: (في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله)[1]. كان ذلك نورًا حقيقيًا، أنار كل إنسان جاء لهذا العالم. إن شعاع الحقيقة يأتي من عند الله من خلال قنوات بشرية أو من خلال ممثليه).

- (إن المعاني الباطنية لهذه العبارة تأخذنا إلى أزمان حضارات منسية. موسى، المسيح ومحمد، جميعهم كانوا جزءاً من دورة النبي آدم العظيمة).

- (ومن هو آخر مظهر إلهي؟)

أجابت: - (يبدو وكأنك تضيع الوقت! هل تمتحنني الآن؟ إن آخر تنزيل للوحي الإلهي من الآب، كما ورد في القرآن، هو النبي محمد من الجزيرة العربية).

ارتفعت أصوات استحسان: - (رائع.. رائع..!).

كما كانت هناك ثرثرة تأييد من ملالي آخرين جلسوا يستمعون باهتمام لهذا الحوار.

---

(1) - إنجيل يوحنا 1:1.

انتهى الدرس، ولم تصدق الطاهرة إن ساعتين قد مضتا، كانت الجلسة ممتعة جدًا. والحقيقة أنها أخذت جزءًا حيويًا واهتمامًا كبيرًا منها. وعندما استعدت لمغادرة البناية، فكرت مرة أخرى عن السائل. وذلك الصوت! لمن كان؟ أهو أصغر؟... بالتأكيد، لا..! نعم.. نعم.. كان ذلك صوت أصغر. لم يكن غاضبًا. كان مستمتعًا وإيجابيًا. لكنها لم تصدق ذلك إلا بصعوبة.

من جانب الستارة الآخر، جاءها صوت، وكان لأخيها عبد الوهاب...

ـ (يا أختي، هودجكِ بانتظاركِ).

ـ (شكرا لك، أنا قادمة).

قالت ذلك وتبعته إلى ساحة المدرسة.

كان والد الطاهرة يقف بجانب حصانها القزم المطيع، بينما كانت تستعد للركوب، قال: ـ (هل تمكنتِ من تمييز صوت أصغر؟ كان ودودًا ومتشوقًا للتعلّم. لقد ارتفعت منزلته في نظري أخيرًا. لقد اعتذر عن ثورته ذلك اليوم، بعدما أدرك عظمة عقليتك).

ـ (هذا لطف منكَ لتقول لي ذلك يا والدي، أنا مسرورة. لا أريد التعرض للعداوة).

تبسم والدها في الوقت الذي كانت تستلم منه لجام حصانها بيدها المغطاة بقفازها.

قال لها: ـ (عندما تصلين البيت هذه المرة، حاولي نسيان دراساتك لبعض الوقت، واسعدي والدتكِ بمساعدتها، أو على الأقل أظهري بعض

الاهتمام بما تعده لزفافك، فهي تشتكي من عدم اهتمامك حتى بتفاصيل خزانة ملابسك، ولا تنظرين أبدًا إلى ما يصلكِ يوميًا من هدايا).

ـ (اعترف لكَ يا والدي أني لم أعد أهتم بالطعام والعبث والملابس الجميلة. فأنا أفضل تعليم طلابي. أحاول جاهدة فتح أبصارهن ليعلمن أن هذه فرصتهن؛ وعليهن الدراسة، دراسة، دراسة، لتمتلئ عقولهن بمعرفة العلوم الرائعة الجميلة المتوفرة، لو حاولن فقط التمسك بها).

ـ (أوه.. ذاك هو يوسف مستعدًا لمرافقتي).

* * *

أي حدث يجري في قصر الحاج ملّا صالح البرقاني، كان من أعظم الأمور بالنسبة لمدينة قزوين، كان لديه أصدقاء مقربون عديدون، وكثير من المعارف المشتاقين لدعوتهم إلى الحفلات التي ستعقب زفاف ابنته الشابة.

كان أخوه الملّا تقي ذا سلطة مؤثرة وغنيًا جدًا وله أتباع كثيرون أيضًا.

لذلك، فمن المتوقع أن يكون احتفال زفاف الطاهرة ومحمد، احتفالًا عظيمًا بهيجًا، وسيستمر استقبال المحتفلين من الضيوف على موائد الطعام في بيت الملّا صالح لعدة أيام.

ومن الطبيعي أن يجلب الضيوف الكثير من الهدايا، ومن المتوقع أيضا أنهم سيقابلون بترحاب كبير في جوٍّ من الترف والرفاهية، مما يعني أن سيدات عائلة الملّا صالح والمضيف نفسه سيرتدون أفخم الملابس الجميلة.

* * *

جاء التجار بمجموعات كبيرة من الهدايا ووضعوها في ساحة البيت لتعرض في القسم الحريمي من القصر، وسمح لسيدات الدار تفحص الملابس الحريرية والمزركشات والأقمشة الموصلية وغير ذلك من بضائع الهدايا. ولم يقتصر الأمر على الرؤية فقط، فكل سيدة من أهل البيت لها الحق في اختيار ما تشاء من الأقمشة لخزانة ملابسها، طالما الهدايا مقدمة على شرف ابنة العائلة التي ستظهر أناقتها.

جهزت الخادمات سماورات الماء الساخن؛ وخلال أوقات الاستراحة، جاء الخدم من الرجال للتأكد من حصول التجار على ماء الشرب والأراجيل للتدخين.

وقدمت الجواهر والأحجار الكريمة لوالدة الطاهرة وعمتها وزوجات الأخوة أيضًا، ليخترن ما يشأنَ. أما مرضية فكانت صغيرة السن على مثل هذه الأمور. لكن كل هذه الهدايا الثمينة، لم تلفت اهتمام الطاهرة، فهي تعتبر الأزياء أمورًا تافهة، فجل اهتمامها منصب على اعتبار الوقت شيء ثمين جدًا.

كما لم تكن مهتمة بما قدم من أنواع الأطعمة الشهية والحلويات، من الگز القاسي، واللوز المحمص الممزوج بالدقيق، أو بالفستق الحلبي، ولا بعطور الورد، ولا بالـ«آجيل» المكون من التين والجوز والمكرزات والبذور والزبيب ذو النكهة الشيرازية العطرة. فهذه المكسرات مشهورة جدا للشباب والمسنين من مختلف الطبقات. في أيام صباها، كانت الطاهرة مولعة بالعصائر اللذيذة التي تقدم دائمًا، أما الآن فهي تكتفي بتناول أبسط الأطعمة من الرز الساخن مع فواكه قليلة.

أخيرًا.. انتبه الجميع، وحتى الطاهرة، أن أيام التحضيرات والاحتفالات وصلت نهايتها. وبعد الغد سيوقع عقد الزواج. فذكرتها والدتها ذات مساء:.

(لا تنشغلي بأي شيء في ذلك اليوم).

وحالما أدركت الطاهرة معاني كلمات والدتها، رفعت عينيها والذعر بادٍ على وجهها، متمتمة: ـ (حسن جدًا، إذن فيوم غد هو آخر أيام الترتيبات).

ـ (نعم يا ابنتي، كنت أتمنى تأجيل الأمر أكثر، إلا أن عمك تقيًا، منزعج من تأخرنا. لكن والدك يقول إن أخاه يعلم أن سبب الاستعجال، هو لحصولكما أنتِ وولده، على جزء كبير من الهدايا التي سيستفيد منها. أما أنا، فاعتقد أن السبب هو إلحاح ولده، فهو الذي يدفعه للضغط علينا. لو علم محمد ما سيحصل عليه من زوجة ذكية وجميلة، فأنا متأكدة أنه سيكون أقل صبرًا).

عضت الطاهرة على شفتها وخفضت رأسها على كتابها، ثم قالت: ـ

(أظنكما، أنتِ وقانتة قد أكملتما فساتيني).

ـ (نعم.. ولا أقدم الشكر لكِ يا ابنتي. فلا يمكنني فهم عدم اهتمامك، وآمل أن مرضية ستكون أكثر تعاونًا معي حينما يحين وقت زواجها).

فإذا بمرضية تقف عند الباب مثل عفريت صغير بعيون راقصة، وهي تقول: ـ

(أحببت كل ذلك. لقد استمتعت بمد يد المساعدة لتجهيز زواج طاهرة، وفتحت هدايا وهدايا، رغم اعتراض الخدم. لا يمكنك يا أختي تصور مقدار جمال ما وصلك من أشياء جميلة. أجمل أنواع الفرش

والشال! وأجمل الصواني الفضية والشمعدانات والمزهريات، صحون من كل نوع، كل واحدة منها أجمل من الأخرى...).

قالت الطاهرة: ـ (يوم بعد غد، لن أسمع من مرضية أية كلمة من تقاريرها. يا له من وقت قصير..).

جاء يوم فرحها بسرعة. فنهضت ذلك الصباح قانطة عديمة الحيوية، وخطر على فكرها خلال ثوان قرار بتجنب الترتيبات التي أعدها والدها وعمها تقي، لعدم شعورها بالسعادة، ولعدم رغبتها بالزواج من محمد.

فسألت والدتها: ـ (هل ستطول احتفالاتنا؟ وهل يمكنني البقاء هنا شهرًا آخر قبل الذهاب للعيش مع محمد؟)

ملأ الحزن وجه والدتها، وقالت: ـ (بالطبع، سيكون من غير اللائقِ العيش مع محمد قبل نهاية الاحتفالات، وسأسأل والدك السماح لكِ في البقاء أسبوعين أو أكثر قبل بدء مراسم الزواج، ولكن بعدها يا عزيزتي ليس هناك ما يمكنني عمله).

تنهدت الطاهرة والتفتت نحو قانتة وقالت: ـ (أنا مستعدة لارتداء ملابسي).

كانت مراسم توقيع عقد الزواج والاجراءاتِ الدينية قصيرة جدًا، وحضر الجلسة عدد قليل من الأقارب كشهود.

قال رجل الدين المكلف بكتابة عقد الزواج، لمحمد: ـ «الآن يمكنك رؤية وجه عروسك». فرفعت الطاهرة برقعها لمحمد فقط، ليظهر له وجهها الوقور شاحبًا مصفرًا.

نظرت عيون وجه الشاب الشاحبة إلى وجهها لثوانٍ، قبل أن تبعد عينيها، منفرة من شكل فمه المتوحش ونظراته المتلهفة.

وبسرعة سترت وجهها بخمارها والتفتت إلى والدتها هامسة: ـ

ـ (لنذهب بسرعة).

ولولا أن ذكرتها الوالدة بآداب اللياقة، لما استطاعت إبقاءها.

ـ (سبق وأخبرتك يا ابنتي أن من سنة الله، زواج الرجال والنساء وإنجاب أطفال ليتعلموا ويتعبدوا الله. فالزواج المادي يجب أن يكون علامة محبة، لكن المحبة لوحدها، يجب أن تكون علامة طاعة ممن يحبون الله بكل قلوبهم ـ وهذا ما أعرفه عنك يا عزيزتي ـ العمل على إجراء وصاياه. وأنتِ كمعلمة جيدة، سترزقين بأطفال تعلمينهم. تأملي كم هي ثروات علوم الله وعوالمه التي يمكنكِ تقديمها لأولادك. ومن الممكن أن تكون أول دروسك عن المحبة وعن روعة خدمة الله، حتى يكبروا وهم مليئُون بمحبة البشر، كما كان عيسى بن مريم. ويمكنكِ تغذيتهم بتعاليم النبي محمد الحقيقية. وتعليمهم وحدانية الله. وأبوية الرب والإخوة البشرية. يمكنكِ تعليمهم الصدق، كما وجدتِ ذلك في القران الكريم والإنجيل، وفي بقية كتب الأديان العظيمة الأخرى. سيكونون ممنونين، كما أنا ممنونة لكِ لما سبق وعلمتني إياه).

تأثرت الطاهرة من كلام والدتها، وقالت لها: ـ

ـ (أمي.. أنت مثل نجمة في ليلة مظلمة).

شملت الطاهرة فترة سكون جديدة امتدت لأسبوعين مضيا بسرعة. ووجدت نفسها وسط أول ترتيبات الاحتفال الذي أعده والديها ليوم زفافها.

لم تكن قد شاهدت زوجها من قبل حتى وقت كتابة عقد القران. كانت

تأمل أن يتأجل يوم سكنها في بيته إلى موعد غير محدد. فلقد كانت غير مستعدة لترك دروسها وكتبها من أجل احتفالات تافهة. لكنها سرعان ما اكتشفت فرصة ثمينة أمامها حينما بدأت تستقبل العديد من النساء والبنات الذين حضروا لتقديم التهاني والتمتع بحفلة الموسيقى والرقص.

كانت إحداهن بنت عمها، حينما أخذتها للحظة إلى ركن هادئ، وبدأت فورًا بإخبارها عن تجربة خاضتها حديثًا. وقالت: ـ

(طاهرة.. هناك عائلة أرمنية تعيش قريبا من بيتنا، لديهم شابة من عمري أصبحت صديقتي. ذات يوم، في السوق، اكتشفت فجأة أنها كانت تقف بجانبي، وبدأنا في التحدث. وبسرعة بدأت الحديث عن ديانتها. فهي مسيحية. غير محجبة كما تعلمين، لذلك عرفتها داخل السوق بسرعة. على كل حال، قالت إنها تأمل الحديث معي في بيتها يوما ما لتخبرني عن المسيح. وقالت إن على المسلمين أن ينسوا محمدًا ويدخلوا ضمن المؤمنين الحقيقيين. وبقيت أتساءل منذ حينها، ماذا قصدت بالمؤمنين الحقيقيين. في تلك الأثناء انتهت والدتي من التسوّق، ولعلمي أنها ستعبّس وجهها في وجه صديقتي، أسرعت في وداعها. لذلك آمل أن توضحي لي الموضوع).

ـ (أنا آمل ذلك أيضا. وكما فهمت مما قالته لكِ، فلقد قصدتْ أن تدخلي ضمن أمة المسيحيين. فهم يعتقدون أن المسيح هو الراعي ويحب رعيته من الأغنام، ويأخذهم في حظيرة رحاب عنايته).

هتفت بنت العم وقالت: ـ (هذا رائع. ولكن هل علينا أن نترك النبي محمدًا؟)

قالت الطاهرة: ـ (هناك آيات في القرآن تبجّل قداسة السيد المسيح،

وتصفه (كلمة الله)، و(روح الحق). لقد جاء المسيح إلى هذا العالم من خلال نفحة روح الله. ووالدته حضرة مريم، كانت تقيّة وقديسة. لذا يمكنك إخبارها، باعتبارك كمسلمة جيدة، بأنك تؤمنين حقًا بالسيد المسيح).

قالت ابنة العم بحزن: - (كم أتمنى أن أكون بقربك. فليس لي معرفة كبيرة بالكتب، والشريعة والدين، وآلاف الأمور الأخرى).

وهنا.. قفزت لعقل الطاهرة فكرة جديدة.

- (أتمنى تأسيس درس للشابات من عمرك. فأنا أعلِّم البنات الصغيرات هنا في هذا القصر. ولا يوجد مانع من تأسيس صفوف أخرى. أنت أكبر قليلا مني كما أظن. محتمل في السادسة عشر؟... أظن ذلك، وستكونين ندًا لي).

قالت ابنة العم ووجهها يشع حماسة: - (أحب أن أكون إحدى طالباتك. وأعرف صديقات لي سيحببن الحضور معي. سنتدبر ذلك بطريقة ما، مع أنها ليست بالمهمة اليسيرة. فزوجي يعتقد أنه لا فائدة من تعليم النساء. ها هي مريم هناك... دعيني أناديها.. يا مريم...! اسمعي يا عزيزتي.. دعتني الطاهرة لحضور درس ستنشؤه قريبا للبنات والسيدات. كنا نتكلم عن المسيحيين، وكان أمرًا ممتعًا. لقد أخبرت الطاهرة أني سأواجه صعوبة في إقناع زوجي في حاجتي للتعليم).

رسمت مريم ابتسامة ساخرة على وجهها ورفعت كتفيها ثم قالت: - (أتفهَّم ذلك، لكن زوجي يتجاهل توسلي لمزيد من المعرفة، إنه يسخر مني).

حفّز كلام مريم الطاهرة، وقالت: - (إن النبي محمدًا رفع من شأن النساء، فأي حق للرجال ليتجاهلوا أحكام شريعة النبي ويرفضون إتباعها؟ هل هم أرباب خالقون ليحطّوا من قدر النساء؟ نحن من يأتي بالأطفال؟ يا

للسخافة! ماذا جرى لعقولهم! ألا نملك عقولا مثلهم؟ ألسنا قادرين على استعمالها بجدارة مثلهم؟)

ثم ضحكت وهي تقول: ـ (إن برهان قوتنا يكمن في حقيقة قدرتنا على تدبر مجاراتهم طوال العمر).

ضحكت رفيقاتها ثم تفرقن. لكن الاقتراح راح ينتشر، وقبل أن ينتهي اليوم، كان صف طالباتها قد ثبت واكتمل. وسوف لن تدرس الراغبات من الصبايا فقط، بل من كن في سن المراهقة والأكبر أيضا.

والآن.. مع إن انتهاء الاحتفالات يعني تحقق زواجها من محمد، إلا أنها بدأت تترقب ذلك الموعد، مدركة إنها ستفتتح كذلك أول صفوفها لكبار البنات.

أخبرتها إحدى الشابات بعيون براقة، أنها تود معرفة شيء عن عودة القائم، وماذا يعني ذلك، كما تنبأ النبي محمد.

فقالت لها: ـ (في درسي القادم.. سأجهز ما أخبركم به عن نبوءات جميع الكلمات المقدسة عن عظمة الموعود، وعودة المسيح، وكيف تتفق النبوءات ـ خاصة تلك التي في الإنجيل المقدس والقرآن الكريم ـ وأن الوقت قد حان لظهور شخصين عظيمين منورين.

قالت البنت: ـ (لقد جعلتِ أنفاسي تتوقف. لم أكن أعلم أن هناك من يفهم بهذا المقدار في شؤون الأديان. حتى أني لا أعرف عن ديني جيدًا. هل تعلمين يا طاهرة.. لو كنت مكانك، فسأكون حذرة قليلًا، لإن الملالي سيكونون غيورين منكِ. ألا تخافينهم؟)

أجابت الطاهرة: ـ (لا.. لست خائفة منهم. إن والدي هو ملّا. وكثير من علومي حصلت عليها منه. فطالما أؤمن بالحقيقة كما أراها، فلن أهاب أحدًا).

ثم أضافت: ـ (لا أهاب حتى الموت).

بهتت البنات عند سماعهن هذا الكلام.

ـ (أنتِ تخيفنني بشجاعتك. لم أعرف من قبل شخصًا بهذه الشجاعة. الموعود! إنه لَاسم ساحر. هل من الوارد أن نرى ذلك الموعود، هل تظنين ذلك يا طاهرة)؟

تمتمت الطاهرة بوجه منتشٍ وعيون سارحة تبدو وكأنها تنظر من خلال صاحباتها إلى مكان ساحر يفوق الوصف والكمال: ـ (أتمنى ظهوره من كل قلبي).

في تلك الليلة، وقفت الطاهرة على سجادة صلاتها، تدعو متمنية ظهور الموعود.

ولأول مرة، بعد عدة أيام، شعرت بالجوع، فطلبت قطعة من خبز الـ «لافاشا»، الإيراني الدسم، فهو يصنع بأشكال مدورة رقيقة جدًا، مع قليل من الزيتون والزبيب والشاي الساخن.

إنها آخر وجبة ليلية لها في منزل والدها، قبل أن تصبح زوجة حقيقية لمحمد.

ففي اليوم التالي، شهدت نهاية الاحتفالات ومغادرة الضيوف، والسكون الذي تبع الفرح والاحتفال. فقد جمع الخدم ملابسها في صناديق ونقلوها إلى قصر عمها تقي. وتركت كتبها خلفها في غرفتها اللطيفة.

سألتها الوالدة بقلق: ـ (هل أنتِ مستعدة يا طاهرة؟ فعلينا أن لا نقلل من شأن زوجك وعمك بإظهار شيء من الممانعة).

رمت الطاهرة يديها حول والدتها وانحنت على جسدها الصلب الدافئ، تستمد منها السلوى. وما هي إلا ثوان حتى استعادت تماسكها. وقالت: ـ

ـ (أنا جاهزة).

مشت مجموعة قليلة من قريباتها معها إلى قصر تقي ومحمد، وأوصلنها سالمة إلى قسم النساء.

كانت قانتة التي ستخدمها في منزل زوجها، كما خدمتها في طفولتها من قبل في منزل والدها، تنتظرها هناك. وقالت تتمتم، والمحبة والعطف في عينيها السوداوين: ـ

ـ (غرف سعادتك جاهزة).

رفعت الطاهرة ذقنها، ورتبت هيئتها بشموخ، وقالت: ـ

ـ (شكرًا قانتة).

ثم دخلت جناحها المترف المفروش والمكون من عدة غرف حيث ستحتله كزوجة لمحمد.

كان محمد بانتظارها.

فنهض من على المراتب التي كان يتكئ عليها وتقدم للقائها.

وبقدر ما كانت تكره الحجاب وكل ما يتعلق به، إلا أنها في تلك اللحظة كانت كارهة أن ترفعه عن وجهها. لكن هذا كان زوجها، هذا الشاب المتهور

بعينيه المحدقتين وابتسامته المستهترة. وكان هذا بيتها الآن، وعليها بذل جهدها لتجعله بيتًا سعيدًا. بيتًا حيث تكمن فيه المحبة والثقة والتفاهم بين الزوج والزوجة كما كان الحال مع والدها ووالدتها اللطيفة.

وبصعوبة.. كشفت عن وجهها الجميل. فأسرعت الألوان إلى وجنتيها الشاحبتين، حينما أخذ محمد يدها وسحبها إليه.

الفصل الرابع

كانت هدايا زواج الطاهرة التي جلبت لبيت تقي تشكل كنزًا ثمينًا. الصواني الفضية والمزهريات والسماورات والمزخرفات والمصنوعات الصينية الخلابة والأقمشة الذهبية والمخملية والأوشحة اللطيفة. أما بقية الهدايا الخاصة، كالجواهر والكتب، فقد خزنت في غرفتها في بيت أبيها. لقد نصحها والدها بنفسه الاحتفاظ بهذه الكنوز في بيت طفولتها. وقال لها بوجه ينمّ عن قساوة وآثار حزن: -

- (إن تقيًا رجل حريص جدًا، يا ليته كان يشبه أخي الأصغر اللطيف «علي»، لكنه ليس كذلك. لذا لا بد أن نكون شجعان بما فيه الكفاية لنواجه هذه الحقيقة ونحمي أنفسنا. فليفتح جميع الهدايا كيفما يشاء، لكن هذه لكِ أنت وحدك. ويوما ما قد ترغبين في إعطائها إلى بناتك وزوجات أولادك).

كانت الطاهرة منبهرة لكثرة الهدايا النفيسة. وقالت عنها كما قالت سابقًا عن غيرها، أن لا رغبة كبيرة لها في امتلاكها.

ومع أنها كانت ترتدي الجواهر مسايرة للتقاليد، إلا أن ذوقها كان بسيطا. ومن بين جواهر شواطئ البحار الجميلة، من أساور وخواتم ومرصعات التي كانت تحتفظ بها بعناية في صندوق جواهرها. هناك حلية

واحدة صغيرة جلبت انتباهها. عقدًا براقًا جميلًا من اللؤلؤ بلون الحليب، كان منظره مناسباً للون بشرتها حينما تضعه حول رقبتها لتجربته.[1]

حينما وضعته حول عنقها، بقيت تنظر إليه بمتعة لا علاقة لها بثمنه الخيالي. فهي تدرك إنه جزء من البحر الأعظم، ومجرد قطع من حيوانات حيّة لا أكثر. لقد شاهدت فيه تفوق الألم وترجمة لمشاعر التعاسة لأمور مغالى بها في ناحيته الجمالية. ثم راحت تتأمل قصته المؤلمة، ذرة الرمل الصغيرة، آلام ردة فعل المحارة بالمقابل. كل ذلك كان بحكمة الله وعظمته الخفيّة.

كانت هناك هدية أخرى جلبت الفرح إليها. قرية أهداها لها والدها. لملكيتها الشخصية، والتي يجب عليها تولي مسؤوليتها. أسمتها الطاهرة «بهجة آباد»، وأخذت على نفسها عهدًا أن تجعلها مكانًا سعيدًا لساكنيها المقيمين فيها؛ وكانت تنتظر بلهفة أول زيارة لها باعتبارها المالكة، لتكون ملمة بخير وسعادة الرجال والنساء والأطفال المعتمدين على مدى اهتمامها.

ولكن الأهم، كان واجبها تجاه محمد زوجها، فلقد أظهر مبكرًا غيرته تجاه عائلتها وقوة نشاطها العقلاني. حينما وبّخها لأول مرة وهي تتجهز لزيارة بيت أبيها: ـ

ـ (هذا هو بيتك الآن. وأنا لا أرغب أن تمضي وقتًا كثيرًا في منزل والدك).

وبعقلانية لطيفة، ابتسمت الطاهرة في وجه الشاب الشاحب الكئيب، وهي تقول: ـ (لكنك تغيب طوال النهار، وعند عودتك سأكون هنا

(1) ـ إنجيل يوحنا 1:1.

انتظارك. أنا أجلس وحيدة هنا ولا أجد شيئا أفعله. كما أن المسافة إلى بيت والدي قصيرة جدا).

ردَّ عليها: ـ (تريدين الذهاب حيث يمكنك أن تكوني مكروهة لتحدي العلماء من خلف ستارتك. كم ضحك الملالي منكِ، أنتِ بنت جاهلة، تتظاهرين بامتلاك حكمة عظيمة أكثر مما يمتلكون بعد سنوات دراساتهم الطويلة).

قالت العروس: ـ (سأكون صامتة إن شئت ذلك. لكن يا زوجي.. دعني أريك لماذا أتكلم. دعني استشهد لك...).

أومأ لها محمد بإشارة فظّة من يده، ثم تركها ومضى يتغطرس في مشيته.

قالت: ـ (من تزوجت أنا؟ ملّا متنكر؟)

راقبته الطاهرة وهو يخرج بتشامخ من غرفتها، بينما كان قلبها يعتصر. كم من الخبرة ستحتاج لتغيير مثل هذا الشخص الحاقد إلى إنسان محبوب عاقل مثل والدها؟ هل ستتمكن من الحصول على القوة الكافية لإتمام مهمتها؟

وكالعادة.. حينما تقلقها مشكلة؛ انحنت للصلاة، لتهيم في سماء الأدعية والتضرعات لشحذ نشاطها.

***

بعد عدة شهور، وفي يوم مشمس من أيام الشتاء، ذهبت في أول رحلة لزيارة قريتها «بهجة آباد»، وبصحبتها والدتها وقانتة ومرضية، وكان يوسف بمرافق لهن.

كن يلبسن براقع كثيفة داخل هوادج مبطنة بدثار جيد، جلسن على ظهور خيول هادئة سارت خلف بعضها.

كان يوسف حارسًا مسلحًا منتبهًا، كما لو أنه رئيس سرية حرس في الجيش.

توقع أهل القرية وصولهم، فقد سبقهم مرسال بالنبأ. وبذلك فقد نظفت الشوارع، وارتدى القرويون أفضل ملابسهم كما لو أنهم ذاهبون إلى احتفال كبير. وانحنوا لها احتراما حينما مرّت في الشارع وهي تمتطي حصانها.

أوقفت جوادها وبدون انتظار مساعدة أحد، قفزت إلى الأرض.

تعالى صياح القرويين: ـ (سعادتكِ ولي أمرنا، ونحن عبيدك، فأمري ما تشائين).

ردت عليهم: ـ (لا.. أنتم لستم عبيدي. أنتم أصدقائي. أنا هنا لأخبركم بذلك، وبمساعدتكم سنجعل من «بهجة آباد» قرية نموذجية تحسدها جميع القرى. فهل تساعدونني في تحقيق ذلك؟)

صاح الجميع والبشرى تطفح من وجوههم: ـ (نحن تحت إمرتك).

سمعت الطاهرة صوت والدتها وهي تصرخ بصوت مكتوم حاد، وكانت منتبهة لمجيء قانتة بقربها. أما يوسف فأسرع بالترجل أيضا ليقترب منها ويقف بجانبها، لكنها لم تشعر بخوف من القرويين ولم تشك في نواياهم الطيبة تجاهها.

وقفت الطاهرة منتصبة منتبهة، تعلو خيمتها الصغيرة كامل جسدها. بينما كانت نساء القرية غير محجبات يقفن إلى جانب أزواجهن. ولم

يُجبرن على الانزواء في حجراتهن مثل ملكات نحل لا يرتجى منهن سوى زيادة الأعداد. لقد كنَّ فرادى، يعملن غير خائفات.

كانت الزيارة قصيرة. والوالدة متوترة، أما مرضية فيبدو أنها أخذت بردًا.

فقط الطاهرة التي كانت نشطة خلال السفرة.

قالت الطاهرة وهم يهمّون بالركوب والعودة، موجهة كلامها لوالدتها: - (انظري يا والدتي، إنهن أكثر تحررًا منا، وعلينا نحن أتباع الطبقة العليا، إيجاد طريقة لترك براقعنا وخمارنا ومواجهة العالم).

صرخت الأم: - (لا.. لن أجرؤ على هذا الفعل أبدًا. إنه يرعبني. ويا ابنتي لقد كنتي جسورة جدًا في التكلم معهم. كان عليكِ أن تتركي يوسف يتكلم بالنيابة. فقد يأخذ القرويون فكرة سيئة عنكِ).

ضحكت الطاهرة وقالت: - (لا أظن ذلك. لقد راقبت وجوههم. لقد أحبوني. ولم يكونوا مستغربين).

فعادت الوالدة لتحذر: - (لن يرضى محمد وتقي بهذا الوضع).

سألتها الطاهرة: - (وكيف سيعرفان؟)

أجابت المرأة الكبيرة: - (سيعرفان! إن لهما جواسيس في كل مكان).

وبالفعل فقد عرفا. ولم يدخر محمد وقتًا لملامتها.

وعند التقائهما، تمتم يخاطبها، ونظرات الاستغراب تملأ عينيه رافعًا حاجبيه وشفتيه بطريقة ساخرة، كي تدرك زوجته أن الأخبار قد وصلته بالفعل: - (لا أحب التفكير بأني تزوجت امرأة لا تستحق أن تكون أمًا لأولادي. ذلك يثبت بالطبع أنها ستصبح قضية، وباستطاعتي دائما إحداث تغييرات).

فلامته الطاهرة والدموع في عينيها: ـ (هل تهددني بالطلاق، أنت تظلمني يا زوجي. لم أفعل أمرًا يجلب عليك العار).

قال وهو يتكلف الابتسامة: ـ (ما عدا إظهارِكِ لمدى ثرائك بزيارة قريتك. ثم ألم تقدمي لهم وعودًا كبيرة؟ ألن يتسبب ذلك بسخط سكان بقية القرى ومزيدًا من الحساسية تجاه قلة أجورهم؟)

هزت الطاهرة رأسها بحزن وقالت: ـ (وأنت كذلك؟ تبقى مصرًا على أني لن أتمكن من إرضائك، لكني أصبحت زوجة منذ فترة بسيطة. أرجو أن تكون صبورًا معي).

لكن الصبر لم يكن من مزايا محمد.

وعلى كل حال، فقد تضاءلت تصرفاته المستبدة بعدما اتضح أنها ستمنحه طفلًا بكرًا، أو بسبب انحراف صحتها والتزامها البقاء في قصرها ساعة أطول كل يوم.

كانت له عادة الظهور فجأة وبدون سابق إنذار أمام باب غرفتها، للنظر إلى الداخل، وفي بعض الأحيان يعود كما ظهر دون أن يتفوه بكلمة.

قالت الطاهرة لوالدتها: ـ (بقدر ما أرغب أن يكون زواجي مثلكما أنتِ ووالدي. أخشى أن لا أحقق ذلك ولا أصل لهذا المستوى. محمد إنسان غيور، من والدي، ومنكِ، ومن مرضية، من إخوتي وأولاد عمي وأخوالي. إنه يغار حتى من الخدم، لأني أخاطبهم بلطف. أما بالنسبة للكتب، فهو يشمئز لمنظر كتاب في يدي).

تنهدت الوالدة وهزت رأسها ثم قالت: ـ (حينما يرى طفله بين يديك، فمن المحتمل أنه سينضج قليلا. إنه شاب الآن، ولقد أفسد تقي تربيته).

قالت الطاهرة مذعنة: - (من المحتمل أني أثقل عليه بطلباتي، وأتمنى أن يحدث الطفل تغييرًا في تصرفاته).

وبينما هي تنتظر والمخلوق الصغير في بطنها يثبت وجوده أكثر وأكثر؛ استمرت على إعطاء دروسها.

قالت تخاطب طلابها ذات يوم: - (طالما سأجبر على ترك التعليم لبعض الوقت، لذا سأحاول إطالة فترات دروسي اليومية. أتوسل إليكم أن تدرسوا.. وتتعلموا.. وتسمعوا.. وتتبينوا حقيقة ما تسمعوه، لا تجعلوا للموروثات سلطة كبيرة على عقولكم، فلقد ثبت أن التقاليد تتغير بتوالي السنين، بينما الحقيقة خالدة. فابحثوا عنها).

وجاء يوم لم تذهب فيه لدرسها، فهرعت قانتة إلى بيتها لتذكرها أن الطالبات في انتظارها.

وهناك سمعت قانتة والدة محمد تقول لها باختصار: - (لن تحضر اليوم. هي الآن في غرفة الولادة).

كانت والدتها تعلم أنه ما زال هناك شهرين على موعدها، لكنها هرعت إلى جانبها، بينما امتلأ قلب الملّا صالح بحزن كبير، وأمر بتضحية خروف أبيض لسلامة ابنته الحبيبة.

وانتشرت الأخبار بسرعة: «طاهرة مريضة جدًا». كان عدد محبيها كبير، فانشغلوا بالصلاة والدعاء لشفائها. وأمر العم تقي صبيين بالجلوس وقراءة آيات القران عند مدخل بناية النساء التي كانت الطاهرة تجاهد داخلها لولادة الجنين القادم قبل أوانه. وفي الغرفة التي كانت تجري داخلها عملية الولادة، كان هناك هياج كبير ونساء تخرج وأخريات تدخل وهن بحالة قلق شديد.

ومرَّ النهار، ومن بعده الليل. وعند شروق شمس الصباح، ارتفعت صرخة من فوق سطح قصر تقي، تعلن النبأ السار.

- «الله أكبر.. الحمد لله.. لقد ولد اليوم صبي لعائلة أكبر الشخصيات، لأكبر العلماء، المحترم المحسن الحاج ملّا تقي البارقاني. لتنزل بركات الله ورسوله على روح هذا الصبي».

كان وجه الطفل الصغير يشبه صورة جده الملّا صالح. ورغم طول معاناتها، إلا أن الطاهرة تبسمت فرحة حينما شاهت وجهه الجميل. أما محمد، الذي نسبت إليه سبب فرحتها، فلم يتبسم، وقال متهكمًا: -

- (لا يبدو سوى وجه طفل أحمر صغير. أنتِ تتصورين أن هناك تشابه، لأنكِ تعتقدين أن والدك أعلى من كل الرجال. وعلى كل حال، فلقد رتبت رعاية خاصة لولدي. فلا أريده أن يكبر متلوثًا بسخافة النساء).

أجابت الأم الشابة موافقة: - (بالطبع، فعلى جميع الأطفال الصغار أن يكون لهم مربيات ومعلمون خصوصيون).

كانت تظهر من عيني محمد نظرات خبث، لكنه لم يزد في الحديث ساعتها.

بعد عدة أسابيع، اتضح معنى كلامه، عندما عادت إلى جناحها بمساعدة أخريات لرعاية الرضيع، فوجدت الطفل قد نقل من مكانه إلى جناح آخر في القصر.

ركضت إلى محمد وتعلقت بذراعه، وقالت وهي تنظر إلى عينيه الباردتين باستعطاف: - (إنه ما زال صغيرًا جدًا. إنه بحاجتي. أرجوك أرجعه إليّ).

أجابها بوجه جامد لا أثر فيه لملامح الاحساس تجاه لوعتها وجزعها:- (سيكون في رعاية أفضل، أحسن بكثير من عنايتكِ. أنتِ..! تركضين دائما إلى أمك وأبيك مثل طفل صغير مع أفكارك الخرقاء، ترتبين دائمًا من كتبك السيئة المهتمة بقراءتها جدًا، تلك العبارات التي ترددينها في غرور وتكبر).

هنا.. أدركت الطاهرة في تلك الكلمات، غيرة عقل الشاب الخبيثة.

وفجأة.. إذا به ينهال عليها بالضرب والبصاق في وجهها.

لكنها كانت ضعيفة لتقف في وجهه وتمنعه.

تفرست به للحظات، مثل نمر يكشف عن أنيابه قبل انقضاضه، ثم رتبت جلستها بفخر وهي تشعر بالحليب ينضح من ثدييها، وقالت بهدوء وبرودة أدهشتها وأفقدت محمد توازنه:-

- (هل تريد إطعام الطفل، أم لا)؟

عندما أحضر الرضيع إليها، احتضنته بمحبة لا حدود لها، بينما فمُ الصغير يتلقف حليب ثديها. لقد أحبت الطفل بكل كيانها، وأحست بشعوره لفقدانها. كان لمحمد السلطة الكاملة ليفعل ما يشاء مع ولده. وطالما كانت قادرة على ارضاع الطفل، فسيسمح لها برؤيته؛ ومن بعد فلن يتذكرها.

لقد سارع حزنها، بتسريع موعد فراق طفلها، فمرارة دموعها ومعاملة زوجها السيئة، تسببت بتدرج تقليل درّ حليبها وانقطاعه في النهاية.

***

بعد عدة شهور من ولادة الطفل الأول، قالت مرضية ذات يوم: ـ (تبدين متغيرة بعض الشيء. كأنك أمسيت أكبر سنًا.. أظن.. مختلفة بعض الشيء).

أجابتها الطاهرة، وهي تحاول رسم ابتسامتها المعتادة على وجهها: ـ (أنا متغيرة حبيبتي، تجارب الحياة تصيغ وجه الإنسان، إضافة إلى وقع الكلمات وشدة تأثيرها. تعالي الآن لنبدأ عملنا. فلدي الكثير لأعلمك).

كانت الطاهرة قد بدأت تطلب في صلاتها الحصول على بنت تحبها وتعتني بها بشكل خاص.

لكن طفلها الثاني كان صبيًا مثل الأول. كان سمينًا لطيفًا حينما حرمت منه لاحقًا، مثلما نزع عنها الأول. ومن شدة غيرة زوجها، عيَّن حارسًا على باب غرفة الصبيين، ولم يسمح لها، إلا بزيارات محددة.

قالت الطاهرة لوالدتها: ـ (إنه يكسر قلبي، ليس مرة واحدة، بل يوما بعد يوم. ألا يكون لي طفل أشعر بالأمومة معه؟)

احتضنت الوالدة ابنتها المكلومة بين يديها الدافئتين لتخفف عنها، وقالت: ـ (كففي دموعك يا عزيزتي. يبدو أنه أمر مقدَّر. ولو رزقت بطفلة بالفعل، فمن المحتمل أن يسمح لكِ محمد المجنون برعايتها).

قالت وهي تبتعد عنها بحزن: ـ (لا.. لن يتغير. لقد عزم أن لا يتغير أبدًا. ولقد قرر أيضًا ـ إن أدرك ذلك أم لم يدركه ـ تدميري. فحتى لو طفلة صبية، فلن تلين قلبًا متحجرًا).

وهكذا كان بالفعل.

فحينما أبعدت طفلتها الصغيرة الجميلة من جانبها بشكل نهائي، علمت

الطاهرة كم كان تصريحها تنبؤي. وكالعادة.. في أوقات الحزن، انهمكت في الصلاة والتبتل، تبحث عن السبيل، عن النور.

ومن خلال كربة روحها، جاء الجواب كقبس من نور.

(يا أمة الله.. هذه الفترة كانت ضرورية لحياتك، لإعدادكِ لما هو آتٍ. فستحتاجين لكل حكمتك وقوتك، لتكوني قوية بما فيه الكفاية لأداء دورك المعد. فمن خلال هذا الحزن، تعلمتي معنى المحبة ونكران الذات).

وبينما كانت تنهض ببطء، لامس اللؤلؤ ثدييها. فامتدت أصابعها إليه، كما لو كان رمزًا لنقاوتها، وتمتمت بشفاه ظامئة: ـ (ساعدني يا ربي العليم.. حتى أستسلم لإرادتك، اجعل آلامي مثل لآلئ خرجت من بحر رحمتك).

لم يعد باستطاعة محمد أذيتها أكثر. فلقد لبست درع القدر.

***

جاء الآن موعد مرضية لتكون عروسة ومحط عناية عائلتها وعوائل المدينة.

وبخلاف الطاهرة، فقد تملكتها لهفة عناية التحضيرات بروح عالية، وآمال محلقة في أمل زواج سعيد.

أسرَّت مرضية، للطاهرة عندما أعلن موعد الزفاف: ـ (لقد جاءت والدة «ميرزا محمد علي» لرؤيتي، وأخبرتني كل شيء عن عريسي القادم المحبوب. سأكون سعيدة جدًا معه يا شقيقتي. فهو شاب لطيف يعشق القراءة. أعلم.. أنكِ ستستلطفينه. كما أنه صديق مخلص لعمنا المحترم الحبيب «علي». وكما تعلمين أن والده هو العالم «ملّا عبد الوهاب»... لماذا يا طاهرة تعتقد حماتي أن والدنا لا يميل إليه؟)

أجابت الطاهرة دون اهتمام: ـ (لا أعرف).

قالت مرضية وهي تنهض: ـ (على كل حال، لديَّ الكثير لأفعله قبل دخولي في هذا الزواج المحبوب).

عانقتها الطاهرة بحرارة. وقالت: ـ

(آمل ذلك.. آمل ذلك بالفعل. تصوري..! أنت أطول مني يا مرضية، يا أختي الصغيرة! وجسمك أضخم أيضًا، وبالطبع أنتِ جميلة، كما حالك دائما. أنتِ أكثر نضوجًا مما كنت عليه أنا في سنك، وأكثر استعدادًا للزواج. تمتعي بكل دقيقة من الاحتفال القادم.. حبيبتي).

ضحكت مرضية وقالت: ـ (تعالي لتشاهدي المطرزات... أليس هذا ذات صدى صوت كلماتي قبل زواجك؟ أتذكر كم أقلقتكِ حينما كانت ترتيبات زواجك جارية. ولكن..). وأضافت بهدوء وهما تمضيان جنبًا لجنب إلى الغرفة حيث تكدست الأقمشة الفاخرة وأعدت للخياطة: ـ (لعل لديك بعض الأفكار لما كنتي تأملين أن يكون زواجك عليه. كنتِ.. أنتِ..! روحًا حساسة استثنائية).

بعد بضع ساعات عادت الطاهرة لتتذكر اسم عبد الوهاب، حمو مرضية، وهي جالسة بهدوء في مكتبة والدها خلف الستارة، تستمع لحوار عن العدالة. كان عمها علي ضمن الحضور.

نسيت أن تستمع، وبذلك فقدت بداية الحوار، حيث كانت تبحث في عقلها لتكتشف ماذا سمعت قبل سنوات عن الملّا عبد الوهاب. وبدى أنها سمعت والدها وعمها تقيًا يتكلمان عن ذلك الرجل.

ـ لماذا كان كل ذلك؟

ـ هناك أمر آلم مشاعر عمها تقي... ولكن ما هو؟

ففكرت أن تسأل أباها أو عمها عليًا حالما ينتهي الحوار. وانسحبت من مكانها خارجة من مدخل جانبي لتقف في بقعة منزوية حيث يمكنها مراقبة مغادرة الضيوف دون رؤيتها.

غادر الرجال واحدًا تلو الآخر. وخرج عمها علي ليقف في باحة الدار المشمسة، بينما بقي والدها يناقش أحد الملالي غير المقتنعين.

لم تستطع الطاهرة أن تصبر أكثر، فنادت عليه.

وقالت له بعدما انضم إليها في ردهة صغيرة: ـ (هناك أمر يحيرني. كنت أنوي سؤال والدي، لكن من الوارد أنك تعرف الجواب مثله. ماذا عن هذا الرجل الطيب عبد الوهاب، الذي سيتزوج ولده مرضية؟ ألا يوده والدي؟ وإذا كان الجواب: لا، فلماذا؟ لدي ذكرى مشوشة عن اسمه حينما كنت أسمع عمي تقيًا يذكره بغضب، وقتما كنت صغيرة).

وضع الملّا علي إصبعه على فمه وتلفت حوله بحذر، وقال: ـ

(سأعود إلى غرفتك بعد قليل، إذا كنتي ترغبين، حيث يمكننا الكلام بسرية أكثر، وسأخبرك عن الموضوع. لا أدري كيف تستطيعين التذكر بمثل ذلك العمر الصغير. ولكن لديكِ دائما ذاكرة مدهشة.. سأوافيكِ خلال بضع دقائق. عليّ بتوديع صديقي، فهو ما زال مع والدكِ).

جلست الطاهرة بهدوء تنتظر عمها داخل غرفة بهيجة في بيت والدها، وراحت تجمع شتات أفكارها بتركيز؛ وبالتدريج بدأ شكل الموضوع يتبلور.

وأخبرت عمها حين وصوله: ـ (لقد تذكرت الآن تقريبًا، كان الأمر عن أحد العلماء وتفاسير المعتقدات الدينية. وكما أتذكر، كان المعلم ضيفًا في بيت الملّا عبد الوهاب، ولم يهتم بالسؤال عن أحوال العم تقي).

قال الملّا موافقًا: ـ (نعم).

ثم مال برأسه نحوها ليهمس في أذنها كي لا يسمعه غيرها: ـ (إنها ما تزال حادثة مؤلمة لتقي... فالمعلم هو الشيخ الشهير «أحمد الإحسائي»، الشيخ أحمد العظيم. فلقد سأله شخص ما، إذا كان والدك الملّا صالح بدرجة مجتهد، فأطرى على فضائله وروحانيته وحكمته وبصيرته. ولكن حينما سُئِل عن مؤهلات تقي، أشاد الشيخ أحمد بثقافته وعلومه فقط، لكنه لم يذكر شيئًا عن مداركه الروحانية. وهذا ما أثار حنق تقي، الذي كما تعلمين، يظن نفسه شخصية جليلة).



لوحة حديثة رسمها الفنان إيفان ليلويد Ivan Lloyd تمثل السيد كاظم الرشتي مع أستاذه الشيخ أحمد الإحسائي

صمت الأخ الصغير لعائلة البرقاني برهة، وظهرت على وجهه الشاب النحيل ابتسامة لطيفة، وأكمل يقول: ـ (ولكن أين موقع الملّا عبد الوهاب من كل هذا؟ هناك شخص آخر أراد التزلف للملّا تقي، فراح ينشر خبرًا في مدينة قزوين، بأن «السيد كاظم الرشتي»، قال أيضًا عن تقي، بأنه بدرجة مجتهد. وهنا قام الملّا عبد الوهاب علنًا أمام الحضور، بتوبيخه بشدة لكذبه. وهكذا اتخذ الملّا تقي، موقفًا شديدًا ضده، وبقي لهذا الوقت مبتعدًا عنه).

ـ (ولكن بالتأكيد أبي...).

ـ (والدكِ رَحِبَ الفكر أكثر من تقي، ولكنه لا يبتغي وضع مزيد من النفط على نار الكراهية. ولهذا السبب لا يتردد الملّا عبد الوهاب للمدرسة حيث يتواجد البرقانيين، وهذه تعتبر خسارة كبيرة. لكن أنا وهو، صديقين حميمين. نتفق على كثير من نقاط الدين المهمة، خصوصًا حول تعاليم الشيخ أحمد العظيم، وخليفته السيد كاظم الرشتي).

قالت الطاهرة ووجهها يتوقد بهجةً لمعرفتها المسبقة: ـ (طالما أخبرت طلبتي بأن الهداية تأتي حينما يكون الانسان مستعدًا لقبولها. والشيخ أحمد، أحد أولئك الهداة، ومن المحتمل أن لم يفهمه أحد حتى اليوم).

قال عمها وهو منفعل قليلًا بعد مشاهدته نور انسجام روحاني غامض على وجه ابنة أخيه المكشوف: ـ (هذا صحيح، فهو لا يعلّم فقط معتقدات مختلفة عن النشور والقيامة وعن إسراء النبي محمد إلى السماء، إنما يلمّح كذلك إلى الكنز الإلهي الذي سيظهر.! نعم.. لقد ظهر..! ففي صباح 12 نوفمبر 1817م «الثاني من محرم سنة 1233 هجري»، قال: «إن ما أعلنته

لكم، قد ظهر». في تلك الساعة بالضبط! ومما قاله أيضًا، أن إيران ستصبح مزارًا عالي المقام... كذلك قال أمورًا عجيبة أخرى).

- (إن فجر اليوم الأول من محرم سنة 1235، الموافق 20 اكتوبر 1819م، كان تاريخًا مقدسًا أيضا، فمن خلاله سنتناول ‹المفتاح›، الذي بدونه لن تكون لنا حكمة كافية لفتح ‹الباب›).

كانت الطاهرة نصف مغمضة العينيين وهي تستنشق بتركيز كلمات الشيخ أحمد من فمِ عمها. فقالت: -

- (قناعتي إن العود والنشور لن يحدث بأجسادنا المادية، ولكن بأرواحنا).

ومثل زجاجة رميت بحجر. حدّق الملّا علي متعجبًا، وقال: -

(وبسبب هذه الفكرة، وبعض أمور أخرى في تعاليمه. لم يعد لوالدك وعمك تقي، ما يهتمان به تجاه كتابات الشيخ أحمد).

فجأة، بدت الطاهرة وكأنها ستفقد الوعي لما قاله عمها. وتوسع أنفها الدقيق واتسع بريق عينيها في حالة من التصميم الحاد وهي تضرب قبضتها الناعمة براحة يدها الأخرى. وقالت: -

(لا بد من حصولي على هذه الكتب! أين يمكنني العثور عليها)؟

اكفهرَّ وجه الملّا علي وتراجع إلى الخلف منبهرًا! وقال: -

(هل تجرئين على تحدي غضب والدكِ، ناهيك عن شدة كراهية تقي وولده؟ عليك بعدم التفكير في إحضار هذه الكتب إلى هنا، حتى ولو كان بالإمكان العثور عليها. لا شك أن عبد الوهاب يملك بعض المخطوطات منها، أو حتى بعض الكتب، لكن.. طالما يعلم مشاعر عائلتكِ، فلن يجازف بمصادرتها وتدميرها).

أسندت الطاهرة ظهرها إلى الخلف متفكرة قليلًا، ثم قالت: ـ (لا بد أن تكون هناك نسخ أخرى في قزوين. ربما يمتلكها أحد أفراد عائلتنا... تلك التواريخ.. يا عم علي..! أسرت لبّي. فكما تعلم، فقد ولدتُ في سنة 1817، وبهذا سيكون أحد الشخصين الذي سيعلن عن ظهوره في سنّيّ. يا له من أمر آسر! شاب! وحتى الآخر.. سيكون أصغر قليلا بسنتين! فكّر فقط! من الوارد أن نواجه عظمة ذلك اليوم. ومن الممكن أن نساهم في الإعلان عن ذلك الشخص. لكن علينا انتظار الإيمان به. إن بذور المعرفة الإلهية تنبت حينما يحين وقت تمامها. هذا الشخص ـ هذين الشخصين ـ سيعلنان أمرهما لنا في الوقت المحدد. حسب إرادة الله).

نهض الملّا علي واتجه صوب الباب. وهو يقول: ـ

(عليّ بتركك الآن. سيتساءل محمد بلهفة عما كنا نتباحث به بهذه الجديّة لو وصل علمه خبر زيارتي، فهو مخلوق تملؤه الشكوك، ولا شك أن له عيونًا توصل له كل شيء عنك. أقترح التزامك الصمت بخصوص الشيخ أحمد والسيد كاظم بين هذه العائلة، وبالتأكيد في بيت تقي أيضًا، إذا كنتِ تودين الهدوء).

أجابت الطاهرة وبريق التوهج يعلو وجهها: ـ

(لم يعد للسلام مكان في بيته).

الفصل الخامس

لم تمض عدة أيام على سؤالها لعمها عن الملّا عبد الوهاب، حتى أخبرها الملّا علي بهدوء: - (ابن أخي.. ابن عمكِ جواد، يمتلك كتبًا للشيخ أحمد والسيد كاظم. فلو كانت لكِ رغبة، فسأتدبر أمر زيارتكِ لبيته).

قالت الطاهرة بصوت منخفض جميل تعلوه متعة حقيقية: -

(لو أشاء..! آه يا عمي علي! متى نبتدئ)؟

فحذرها: - (رجاء..! ليس بهذه السرعة. أنتِ تتوقدين مثل مشعل، وتقرعين مثل أجراس. هدئي من روعك، وإلا لن تكون هناك زيارة. سيلاحظ والدكِ، وعمك تقي، وزوجك، مثل هذا الفرح الواضح، وسيرتابون ويشرعوا بمراقبتك).

ضحكت الطاهرة لمتعة إمكانية توفر الكتب التي تشتاق قراءتها قريبًا، ولما علا وجه عمها الشاب من معالم الدهشة والتعجب الواضحة. فقالت وهي ما تزال تضحك: -

(الآن..! وقد زال التوتر، تعال، واجلس... واخبرني كل ما تعرفه عن هذه الكتب التي قرأتها)؟

تلفت الملّا علي حوله بحذر، ليتأكد أن ليس هناك من يختبئ ويستمع

لهما، ثم قال: - (أعلم الكثير عنها. التعاليم مدهشة وجميلة. إنها تعد بظهور شخص جليل يأتي برسالة إلهية جديدة من عند الله. إن الشيخ أحمد الإحسائي رجل ملهم من عند الله، فطالما توجه بالمديح لمدينة شيراز المتواضعة، وأطرى عليها، لسبب لا يعرفه غيره. ولهذا، أميل إلى شيراز أتوقع صدور أمر عظيم منها، أخبار عن الموعود الذي سيأتي. ولكن مثل العديد غيري، فأنا متحيّر بخصوص الموعدين اللذين أشار إليهما المعلم).

قالت الطاهرة وجسدها النحيف مشدود مثل سلك رفيع: - (أنا مبتهجة الآن، لتناسب عمري كفاية مع مثل هذا الحدث العظيم. وربما كان فراق أولادي الذي اعتبرته حتى الآن من أعظم أنواع البلايا، سببًا لتحريري، كي أخدم الموعود، حينما يحين موعده).

وكما قطع لها وعدًا.. رتّب الملّا علي موعدًا متحفظًا، وحينما أزف الوقت، خرجت الطاهرة ومرضية ووالدتهما مع قانتة والملّا علي، يحرسهم العجوز يوسف، متوجهين نحو قصر جواد الفخم.

واستقبلوا بترحيب بالغ. لكن الطاهرة كانت نافدة الصبر لتتحمل طول مدة عبارات الترحاب والاستقبال وكلمات التحية الجميلة التي لا تعني لها شيئًا سوى التأخير.

فقالت لابن عمها جواد فجأة وبشكل مباشر: - (لدينا وقت قصير فقط. وهناك الكثير مما عليّ سماعه منك يا ابن عمي. هل تمانع لو ذهبت فورًا إلى مكتبتكَ، لأبتدئ بالقراءة بينما تنهي حديثك مع العم علي؟)

اندهش جواد بعض الشيء من هذه المباغتة، لكنه تفهّم مقدار شوقها،

لذا اصطحبها من فوره إلى مكتبته، ثم تركها وحيدة مع الكتب واعدًا بالعودة سريعًا.

بعد قراءتها بعض الفقرات، لم تعد الطاهرة تشعر ببرودة المكان أو حرارته، ولا بمرور الوقت. ومرت ساعة، قبل أن يعود ابن عمها).

فقال يكلمها: ـ (رأيتك غارقة في الكتب، فقلت أن لا أقاطعك بسرعة. والآن أخبركِ آسفًا، أن العم عليًا، يعتقد أنه من الحكمة العودة إلى البيت. واعلمي إنه مرحب بكِ للعودة إلى هنا في أي وقت).

نهضت الطاهرة لتقف والكتاب مشدود إلى صدرها. وقالت، وهي ترتعش من نشوة الاكتشاف: ـ (لا أستطيع تركهم هنا، لا استطيع مفارقة هذه الكتابات. يا ابن عمي جواد! اسمح لي باستعارتها بضعة أيام؟).

ثم استطردت لتقول: ـ (يا ابن عمي..! أنت تشاركني ذات المشاعر تجاهها، أليس كذلك؟ كم هي جميلة! اسمع: ‹إني أراه كشمس مشرقة، ولا تدع رغبتك تستريح في البحث والعثور عليه›. كم أتمنى أن بإمكاني البحث والعثور عليه وتقديم حياتي لخدمته. إن اختيار المرء لمرافقة من سيغير أفكار العالم، تجربة ستكون أغلى من كل ما يبذله الإنسان في سبيلها).

ارتد جواد عنها متراجعًا، كما يبتعد عن شيء تحول إلى خطر.

فقال يحذرها: ـ (إن والدكِ يعارض هذين المفكِّرين المتحررين. وسيكون غاضبًا منكِ إذا دخلا بيته من خلال كتبهما. وسيكون غاضبًا مني أيضًا لإعارتها لكِ. وكما تعلمين بالطبع، فهو يستهجنني لأني أرى الحقيقة في كتابات هذين العالمين المفكرين التقدمية الجريئة.

انفجرت الطاهرة لتقول بحدة: ـ (وماذا ينفع استنكاره! قد يغضب، لكني سأقنعه، أو بالقليل أحاول ذلك. إذا كان هناك مجال للخوف، فالخوف من زوجي والعم تقي. أما بالنسبة لي، فأنا أثق بحماية الله ورعايته لي، طالما هناك عمل سيوكله لي...)

ـ (ستعيرني إياهم.. صح؟).

رفع جواد كتفيه وهو ما يزال مترددًا، فاغتنمت الطاهرة هذا التردد، لتجمع بقية الكتب بين يديها وتغادر المكتبة بصحبته.

قابلها الملّا علي في الصالة، وراح ينقل بصره بينها وبين ابن أخيه مذعورًا.

فخاطبه جواد بوجه قاس عبوس، محاولًا الاعتذار: ـ (ستأخذهم).

فهز الملّا علي رأسه، وقال لها: ـ (ألن تجلبين مصيبة على نفسك؟)

نظرت الطاهرة إليه باهتة وهي مقطّبة حاجبيها لترد عليه، وقالت: ـ

(مصيبة؟ أليست المصيبة أن يكون المرء جاهلًا بما كتب هنا؟ أنت وأنا والعم علي، سيكون بيننا مهرجان نقاش عميق للتنقيب عن الحقيقة، نقاش غني بمعنى الكلمة. لينصبوا خيام مصيبتهم، فلن نسمح لهم بتهديدنا).

قال الملّا علي: ـ (أنتِ شجاعة مثل أسد شاب، ولكن على الأقل دعينا لا نجازف كثيرًا لحمل هذه الكتب بأجمعها إلى بيت أبيكِ كي لا يراها الجميع...).

ثم التفت إلى جواد يسأله: ـ (هل لديك قطعة قماش قديمة؟ قديمة.. رجاء.. لا تثير الشكوك).

أخذت الطاهرة الكتب إلى غرفتها الخاصة في بيت أبيها، وغرقت في

بحورها، تقرأ طوال اليوم، وتكمل حين المساء تحت نور الفانوس، حتى حذرتها والدتها بضرورة العودة إلى بيت زوجها.

ازداد غضب محمد أكثر فأكثر بسبب غيابها المتكرر الطويل. كانت تعلم بذلك وتحاول في بعض الأحيان أن تسترضيه، لكن لم يكن في قلبها محبة زوجة له، فلم يترك لها مجالًا لمحبته أو احترامه. فقد سبق وقال لها مبكرًا أثناء خلوتهما: -

(ليس للنساء أرواح، فقد ولدن لغرض الإنجاب فقط).

وبالعكس، فرغم جميع نقاشاتها الذكية معه، ورغم جميع الحقائق الثابتة بأن النبي محمدًا بنفسه كان يحترم زوجته خديجة ويشاركها الرأي والنصيحة، حتى أنه كان يرسل إليها أتباعه لأخذ نصيحتها. بقي محمد على عناده يستهزئ بها.

أخبرت الطاهرة والدها بيأس، كما لو كانت تحاول بناء جبل بيديها العاريتين: - (كيف لرجل بذكاء العم تقي، أن ينجب ولدًا غبيًا شريرًا بعقل ثخين مثل محمد؟ آمل أن لا يكون أولادنا مشابهين له).

حاول والدها تلطيف هذا الموقف الحزين، وقال: -

(أنتِ متزوجة الآن. وامرأة شهيرة في مدينتك وبلادك. لا تتركي مجالًا لطبيعتك العنيفة المضطربة أن تدمر أفضل مجهوداتك. فكامرأة.. عملتي تقدمًا كبيرًا في مجال ثقافتك. قدرتك في البحث عن الحقائق وتعليم الآخرين أمر رائع غير عادي. وطالما كنت أتساءل، لماذا أنتِ، دون أحد أولادي، ولدتي بهذه الدرجة من الحماس في عقلك).

ثم تنهد بعمق وعيناه حزينتان، وقال: ـ (لو كنتي ولدًا...! نعم..! لو كنت ولدًا!).

***

في أحد أيام ذلك الشتاء القارس، كانت الطاهرة ممددة بجانب زوجها وصوت شخيره يعلو بجانبها. فكرت بذلك الحوار مع والدها. فالملّا صالح رجل، عاقل، حكيم، قوي البنية، صلب وحنون أيضا، رغم عناده المتصلب أفكاره.

لم يكن محمد يملك شيئًا من هذه المزايا، سوى العضلات. ولقد احتجزها، موثقة بسلاسل علاقتهما الزوجية، كما لو أنها قرد صغير منبوذ لا أهمية له يطلق أصواتًا ليجلب الانتباه إليه بين الحين والآخر. لم يكن يدور بينهما نقاش إلا لمما. ولم يكن يكلمها عن أي شيء خارج حدود بيت الزوجية. حتى أنه لا يشاركها أولادها، وهذا ما كان يمزق قلبها أكثر من أي شيء. كانت تسأله كل يوم عنهم، وترجوه رؤيتهم، لكنه كان يتجنبها بمختلف الأعذار. لقد منع عنها حتى رؤية ابنتها الصغيرة الجميلة.

زمجر محمد في وجهها صائحًا: ـ (لا أريد لها أن تصبح مهرطقة. فسرعان ما سترتبط بفتى من عائلة محترمة. لا أريد لها أن تُرفض بسببك. يا زوجتي المتغطرسة. أوه.. أنا أعلم ماذا تدرّسين تلك النساء الساذجات في فصولك. فليس من الصعب رشوتهن لخيانتك. أنتِ.. يا من تملكين فكرة مغرورة عن أهميتكِ. بنت صالح..! طاهرة الذكية..! يا لكِ من شابة فصيحة..!)

ثم أطلق ضحكة شامتة كئيبة، وقال: ـ (لقد سمعت مثل هذه الكلمات، أعلم الحقيقة، يا لها من أمور تافهة! أنا أكرهها!)

أجابته متحدية: ـ (تكرهها..؟ وتكرهني أيضًا لهذه الأسباب؟ أدرك ما يزعجك يا زوجي. إنها الغيرة! وحش الغيرة! إنه يلتهم من يحاولون كتمانه في صدورهم. يوما ما ستكتشف أنك أمسيت هيكل رجل. إن الغيرة من امرأة تفترس طيبتك).

وتذكرت وهي تنام بجانبه، كيف أقسم أن يتركها ويبتعد عنها.

سحبت الغطاء فوقها، وهي تشعر بلسعة برد، لكنها لم تستطع النوم. كانت تفكر بأطفالها، هل هم مدثرون كفاية؟ والخدم..؟ فهؤلاء المساكين لا يأكلون جيدًا ولا يلبسون كفاية. إن تقيًا رجل مشهور ببخله الشديد مع خدمه.

قالت في نفسها: ـ (عليّ اكتشاف أحوال هذه العائلة).

فتسللت من مخدعها لتلبس خفّها وكساءها الدافئ.

كان في الغرفة المجاورة لجناحها، مقدار كبير من الأغطية والأقمشة من هدايا عرسها لم تستعمل بعد. فحملت الكثير منها مما أعاق مشيتها بشكل من الأشكال، وأسرعت تخطو خلال الممر البارد الهادئ المؤدي إلى قسم المرضعات والخدم، وأشعة ضوء القمر تنير طريقها من نوافذه المتعددة.

كان هناك حارس على باب المرضعات، لكنه كان ينام بقلق، ملتفًا بدثاره، مثل رزمة على الأرض.

تخطته الطاهرة بخفة ملتفة حوله، واندست من خلال الستائر نحو أعز الغرف إلى قلبها. وبصمت تقدمت نحو السرير، حيث ينام ولداها الحبيبان

القويان، كانا متقرفصين يحتضن أحدهما الآخر طلبًا للدفء. ففرقتهما، ودثرت كلًا منهما على حدة، تحتاط أن توقظهما.

فكرت وهي تحوم حولهما وتقرأ أدعيتها وتخاطبهما في سرّها: - (ولديّ الجميلين، كم كبرتما بسرعة! يبدو وكأنه لم يمض وقت طويل على معاناتي في ولادة ابني البكر. لقد نسيت آلام مخاضي، لكنني أتذكر بشكل واضح، عويل النساء، وصراخ الخروف الأبيض البائس الذي أحضره القصاب للتضحية به كي أعيش).

ثم تركتهما على مضض، لتتجه نحو سرير ابنتها الصغيرة، فاندهشت لرؤيتها تجلس بعينين مفتوحتين تلمع نحوها تحت ضوء القمر.

تمتمت الطفلة شبه النائمة: - (ماما.. ماما..؟)

وجهها المرسوم مثل قلب، وعيناها الكبيرتان السوداوان، وتجعيدة شعرها الكثيف فوق حواجبها، رسمت صورة لا يمكن لأم نسيانها. فرمت من ذراعيها ما تحمله من أغطية، لتأخذ جسد الطفلة الريان بين يديها الجائعتين، واحتضنتها، لتبدأ بتقبيل خدودها الناعمة.

- (نعم.. نعم.. حبيبتي. لا تنسي أبدًا أنني جئتك في ضوء القمر. أنا أحبك يا لذيذتي الجميلة. أنا أحبك).

عادت الطفلة لتضع رأسها فوق كتف الطاهرة وهي ترتعش. وتمتمت: -

(أنا بردانة.. هل تغطيني؟)

- (نعم.. يا حبيبتي).

مكرهة.. أعادت الطفلة إلى سريرها وغطتها جيدًا. وعلى الفور هدأت

وراحت في نوم عميق، لتستريح أهدابها الطويلة فوق خدودها. عندها تفجرت الدموع.. وسمحت الطاهرة لنفسها أن تأخذ قُبلة أخيرة طويلة.

كانت الخادمات نائمات قرب بعضهن في قسم الخدم، مثل «خراف في زريبة»، ففكرت وهي تتذكر تلك البنت التي تحيرت من إشارة المسيح إلى خراف الله الحقيقيين.

وبصمت مثل طيف، دارت حول النائمين، لتمد فوق كل منهم، دثارًا دافئًا.

وحينما توجهت للخروج عائدة، خالية اليدين، ظهر محمد أمامها فجأة.

فسحبها من يديها ليهزها بشدة ويهمس في أذنها ناهرًا بعد أن قرّب وجهه منها: ـ (كيف تجرئين على الطواف خلسة داخل هذا البيت؟ أي نوع من النساء أنتِ حينما تفعلين ما منعت عنه، أين كنتِ؟ في بيت المرضعات؟ إذا كنت قد ذهبتي إلى هناك، فسأطلق النار على الحارس، أو أمزق عنقه بسبب إهماله. هل كنتِ هناك؟ هل نجستي أولادي بكذب عواطفك الزائفة؟)

كان وقع الصدمة المفاجئ، وشدة الخوف، جعلت الطاهرة ترتجف، لكن معاملة محمد المذلة والمهينة، دفعتها لتستجمع شجاعتها وتقول بصوت تملؤه القوة: ـ

ـ (ارفع.. يدك.. عني)!

كان صوتها مليئًا بالقوة، مما دفع محمد لتركها مستغربًا.

وعلى الفور، استدارت منسحبة تتقدمه بهدوء نحو غرفة نومها.

فتبعها بحقد كظيم. وحالما أصبحا في غرفتهما، التفتت إليه مرة أخرى

بوجه جامد كالشمع، وبعينين واسعتين، لكنهما شرستان، لتقرر بشكل صارم في عتمة الليل: -

- (خذ فراشك إلى مكان آخر).

كان صوتها هادئًا وثابتًا، لكن الكلمات كانت ممتلئة بالحسم تمامًا، لدرجة أن محمدًا لم يجادلها. لكنه راح يدمدم لاعنًا، وتركها وانصرف.

كالعادة.. لم تخبر عائلتها بما حدث، وقلما كانت تتواجد في بيت عمها تقي.

- (لقد فقدت أطفالي، وزوجي، لكني ما زلت أمتلك فصول طلابي ودراستي).

كانت فصول تدريسها تنمو بشكل كبير، فاضطرت لتقسيمها إلى مجموعات، منها في فترات صباحية، ومنها في المساء. والآن.. مع أن طلابها لم يعرفوا السبب، إلا أنهم لاحظوا تغييرًا في أحوال معلمتهم. كانت تنتابها خلال خطبها حالات ذهول في بعض الأحيان. وشعرت والدتها، أنه من الضروري التحدث معها بخصوص ذلك.

- (ألاحظ في بعض الأحيان.. يا عزيزتي، وكأنكِ غير منتبهة لطلابك. لقد كنتِ من قبل تهتمين بكل واحدة منهن، صغارًا أم كبارًا؛ أما الآن، فهناك شيء من التراجع في مستوى تدريسك، وفقدتِ ضحكتك العفوية الدائمة. لماذا؟ هل تعبتِ من التدريس؟ أنا أعرف أنها مهنة صعبة عليكِ، وتفضلين البقاء دائما في مكتبة والدك. أهذا هو السبب، أم أن هناك تعاسة في حياتك البيتية؟ هل ترغبين بإخباري)؟

مررت الطاهرة إحدى يديها على وجه والدتها.

- (لا أملك يا والدتي فكرة عن قوة تحملي مستقبلا.. أمي.. لم أعد متزوجة الآن، بمعنى الزواج عمومًا. لقد كان هذا القرار حسب رغبتي، وسأخبرك أكثر عن ذلك لاحقًا. لكن، الجزء الأهم، كما أعتقد، أن شرود الذهن يأتي من خلال قراءاتي للكتب التي استعرتها من جواد)

تلفتت حولها لتتأكد من عدم وجود من يسترق السمع. وأكملت: -

(والدتي... أنا واثقة أننا على أعتاب يوم جديد. أشعر بثقله يزداد نموًا. أشعر أنه وشيك الحدوث. ستهتز إيران كما لو أن هزة أرضية تضربها. سيكون زمنًا رائعًا، لكنه وقت معاناة واستشهاد للكثيرين. أوه.. أين سمعت أن وقود نور شعلة المصباح الإلهي، دماء الشهداء؟)!

تبدل وجه الوالدة إلى صورة مجسمة من الخوف.

- (ابنتي.. ابنتي.. أعيدي تلك الكتب إلى جواد، ولا تكن لك بها شأن بعد الآن. دعي الرجال يقرأون، إذا كان ذلك ضروريًا، ولا تتخطي حدود حياتك إلى خضم الخلافات الدينية).

اهتز صوت الطاهرة بجدية، وقالت: -

(أمي.. ليتك تحصلين على قبس من ذلك النور. تعالي أقرأ لكِ).

أمسكت الطاهرة بيد والدتها ورافقتها خلال الممر إلى غرفتها، رغم ممانعة والدتها. وجلستا على وسادة فوق الأرض قرب طاولة منخفضة، وبدأت الطاهرة تقرأ لها.

هذا بعض مما ذكره السيد كاظم لتلاميذه: - ((سترونه بأعينكم، لكنكم لن تميزوه))! إنه من نسل شريف، من أحفاد نبي الله، من بني

هاشم، شاب صغير، يمتلك علمًا ذاتيًا. لا يستمد علومه من الشيخ أحمد لكن من عند الله)).

ثم أكملت: ـ (وهذا أيضا من كتابات السيد كاظم تلميذ الشيخ أحمد: ـ «علومي ليست سوى قطرة إذا ما قيست بحجم علومه، مؤهلاتي كذرة تراب أمام عظمته وقوته»).

واسمعي يا أمي هذا: ـ (ذات صباح أيقظ السيد كاظم أحد تلاميذه وطلب منه مصاحبته لزيارة (شخصية مهمة). كان ذلك في مدينة كربلاء. وفي أول ظهور أنوار الفجر، مشى الرجلان خلال أزقة المدينة الهادئة. وسرعان ما وصلا إلى بيت يقف على بابه شاب، وكأنه كان يتوقع وصولهما. كان يرتدي عمامة خضراء).

تساءلت الوالدة: ـ (هل كان من نسل النبي؟).

ـ (نعم! احتضن الشاب، كاظم. وأخبره عما أعد له من مقام مبجل، بينما التزم كاظم الصمت والاحترام. لكن ما أثارني ـ والكلام هنا للمرافق ـ هو: لقد شاهدنا قدحًا من الفضة وسط الغرفة. فملأه مضيفنا حتى حافته، وقدمه للسيد كاظم الذي تناوله دون اعتراض!).

ـ (آه.. يا أمي، أشعر بهزة شوق حينما أقرأ مثل هذه الكلمات، لأنها ذكرت جميعًا في النبوءات. «بعد ثلاثة أيام، حضر الشاب المبجل إلى درس كاظم وجلس مع الطلاب. فتوقف السيد عن الكلام. فسأله أحدهم، لماذا لا يكشف لهم عن اسم الضيف، وجوابًا لذلك، وضع السيد كاظم إصبعه على حلقومه». ألا تلاحظين معي أن هناك غموضًا عن شخصية هذا الشاب.[1]

(1) ـ قال «الشيخ حسن الزنوزي»، وبعد ثلاثة أيام، رأيت الشاب نفسه قد وصل واحتل

ـ أغمضت الطاهرة عينيها وجلست مستغرقة لبضع ثوان في تأملها. وتمتمت: ـ (يمكنني رؤيته، ذلك الوجه الهادئ المضيء، وتلك العيون النافذة، إنه يرى ويسمع).

كانت والدتها تبكي.

تبسمت الطاهرة وقالت: ـ (لا تبكِ يا والدتي. إلا إذا كان سبب ذلك العجب والانبهار).

أجابت والدتها وهي تمسح عيونها: ـ (أنا أبكِ لأجلكِ، فأنا أخاف. لماذا عليكِ التورط في هذا المسألة؟ ألا نعرف من الدين أمورًا جميلة كافية؟).

قالت الطاهرة: ـ (قبل ظهور النبي، لا شك أن هناك من تكلم مثلك. (كونوا مقتنعين لا تبحثوا عن كلمة الله جديدة)، ومن المحتمل أنهم حذروا الناس من أمثالي. لكني لست قانعة يا والدتي. عليّ بالبحث والصلاة، كي أعثر على من يأتي باليوم الجديد الذي سيظهر قريبًا. مثلما كانت قصة عيسى المسيح مع التاجر، أنا مستعدة لتقديم كل شيء من أجل لؤلؤة جميلة نقية، سأكون محظوظة جدًا حين العثور عليها).

مقعده وسط حلقة تلاميذ السيد كاظم. وجلس قريبًا من العتبة وكان يستمع لدرس السيد بذات الأدب والوقار. وبمجرد أن وقعت عينا «السيد كاظم» على ذلك الشاب، سكت السيد عن الحديث وبقي ساكنًا. فترجّاه أحد تلاميذه أن يكمل مناقشته للموضوع الذي لم يكتمل، فأجاب السيد كاظم قائلًا: (ماذا أقول لكم زيادة عن ذلك؟) ولفت وجهه نحو شخص (الباب)، ثم قال: (انظروا! إن الحق أظهر من شعاع الشمس الواقع على هذا الحِجر.) وفي الحين لاحظتُ أن أشعة الشمس التي أشار إليها السيد، كانت واقعة في حجر هذا الشاب الذي زرناه قريبًا. فاستفسر السائل: (ولماذا لا تكشف لنا عن اسمه أو تظهر لنا شخصه؟) فأشار السيد إلى حنجرته بإصبعه، يعني إنه لو كشف ذلك لتعرّض كلاهما للقتل في الحال. (مطالع الأنوار. صفحة 26). (المترجم)

قالت والدتها وهي تتنهد مرة أخرى: - (هذا ما أخشاه. أنتِ متشبثة حدًا برأيك، متصلبة كثيرًا في ردود أفعالك. في بعض الأحيان، أشعر أن مقدورك مقارعة الصخور من أجل أهدافك).

انحنت الطاهرة لتقبل رأس والدتها.

- (بارك الله بك. بارك الله بالمعرفة التي معك. عندما يحين وقت صلابة، أتوسل إليكِ أن تكوني قوية لأجل خاطري. والآن استريحي اهدئي. فلدي عدة مقاطع أتمنى حفظها قبل إعادة الكتب إلى ابن العم جواد، الذي أمسى نافد الصبر معي).

لم يكن أمام والدتها، سوى ترك غرفة الطاهرة، بعد أن أعلن عن مجيء ملّا صالح.

كانت لمحة واحدة إلى وجهه، كافية لتحذر الطاهرة أنه كان يميز غضباً سبب هذه الكتب.

فوبخها قائلا: - (لا عجب أن تبكي والدتك، إنها امرأة طيبة. كنت أتساءل ماذا يشغل).

انحنى ليتناول أحد الكتب من أمامها، ونظر فيه باختصار، قبل أن يغلقه بعنف ويطرحه أرضًا. ثم يسألها: -

- (هل تودين تغيير دين الإسلام؟).

- (هل تودين التسبب في إراقة دماء الأبرياء وموتهم؟).

وقفت الطاهرة منحنية الرأس أمام الرجل المتهكم صاحب العيون المتقدة.

- (يا والدي.. كنت آمل أنك من بين جميع الرجال ستتحملني إذا كنت

قد أخطأت. كنت آمل أن نتدارس هذه الكتب معًا ونناقشها في المدرسة. إن إيران بحاجة إلى التنوير. لكن، كما أرى أن لا مجال هناك لبصيص من الأمل. هناك الكثير من الكراهية في قلبك. وعلى كل حال، عليك الاعتراف: أنه في كل عصر وفي كل أرض، يواجه أولئك الذين يمهدون الطريق لانطلاق نور الحقيقة، بالمعارضة. ليس من قبل الجموع المنتظرة، ولكن من قبل فئة الأذكياء القليلة والمتمكنين، الذين لا يبتغون التخلي عن الامساك بعقلية وقلوب البشر. الغرور، الغرور، يعشعش الغرور بينهم جميعًا).

استخف والدها واستنكر كلامها.

- (أحذرك يا ابنتي! بالتخلص من هذه الكتب. هذه المفاسد التي تسميها حقائق. خذيهم بعيدًا عن هذا البيت. لا أريد هرطقة، ولا كتابات مهرطقين، تحت سقف منزلي).

تقدمت الطاهرة خطوة إلى الأمام ووضعت يديها باستعطاف على يديه القويتين.

- (يا والدي الذي أحبه، عليك أن تصغي. لا تدع قلبك يقسو عليّ، ولا تصم آذانك عني. إن يوم الله على وشك الظهور! في هذه الأيام بالذات سيظهر القائم الموعود...).

دوى الملّا صالح بعينين غاضبتين: - (كفى!).

ثم أكملت الطاهرة جملتها بهدوء وجرأة: - (... وسيظهر القيوم من بعده. سيكونان ظهورين ومظهرين مباركين).

أزاح الملّا صالح يديها بعيدًا عن يديه، واندفع نحو باب الغرفة، وهو يقول محذرًا: -

(ابعدي هذه الكتب عن بيتي... هذا اليوم، وإلا سأتدبر بنفسي أمر التخلص منها).

وقفت الطاهرة بعد خروجه مندهشة ويداها تتدليان إلى جانبها.

قالت في نفسها: ـ (عليّ بالكتابة إلى الملّا كاظم. الآن! وعليّ العثور على العم علي أيضًا، وطلب مساعدته. فهذا هو بيت والدي وعليّ طاعته، ولكن لن أفقد الاتصال مع الكاتب المنوّر الذي تعلَّم الحقيقة من الشيخ أحمد).

وبهذا بدأت الاتصالات بينها وبين العلامة كاظم الرشتي.

عندما أعاد الملّا علي الكتب إلى جواد، كان قد أخذ معه رسالتها وأرسلها إلى السيد كاظم في كربلاء التي تبعد عن قزوين بحدود خمسمائة ميل داخل حدود الامبراطورية العثمانية.

من دون الكتب، ركزت الطاهرة بهجتها فقط على ذكرياتها للحقائق الجريئة جدًا والمذهلة التي أعلنها الشيخ أحمد والسيد كاظم. واستمرت في عملها تنتظر متأملة.

انتظار.. اللحظة المجيدة.

تساءلت مع نفسها: ـ (هل سيجيب؟ هل بدت أسئلتي غير مهمة له؟ هل سيهتم بقراءة قصة معاناتي لتعلّم بواطن معاني النبوءات؟ لا شك أن العديد كتبوا له يمتدحون أعماله؛ ومن المحتمل أنه لم يتأثر برسالتي).

كانت تعلم في نفسها، أن رسالتها ستنال رضا كاظم. وسيجيب عليها دون إهمال. عليها فقط ضبط نفسها، والانتظار.

الفصل السادس

في أثناء انتظارها خبر السيد كاظم، شغلت الطاهرة أيامها بالصلاة والتعليم، تنتابها قناعة بدأت تكبر في عقلها، أن التدريس في قصر والدها، قد قارب الانتهاء. وأدركت أيضا، بنمو مشاعر الكراهية لها في بيت زوجها وعمها.

وبدافع من بداهة غريزتها، بدأت تنقل إلى بيت والدها - في كل مرة- قليلا من أغلى ممتلكاتها. طالما يبدو أبوها قد أصبح الآن غير راغب بالسماح لها في المشاركة بجزء من حوارات الملالي. ومع ذلك، بقيت تجلس خلف الستارة؛ كما راحت تكثر من التحجج بزيارة أختها مرضية، حيث تمضي أكثر أوقاتها مع الملّا عبد الوهاب، تناقش النبوءات والدلائل المثيرة والوعود المستورة لأحمد وكاظم.

جاءت مرضية إليها ذات يوم، وحينما شاهدتها وحيدة محبطة. قالت لها ترجوها: -

(تعالي وامكثي معي بعض الوقت، فلقد ذهب زوجي الحبيب إلى كربلاء).

ارتفعت يد الطاهرة الرشيقة إلى حلقومها، وانتفض رأسها بحدة، وجحظت عيناها تستكشف الخبر.!

- (للدراسة عند كاظم؟).

ـ (سيد كاظم. نعم، ذلك كان الاسم... لقد لاطفته، وناشدته، وتوسلت إليه للبقاء معي. تشبثت به متناسية كل كبرياء... كان لطيفا معي، لكنه حازم).

وتنهدت مرضية بحسرة لتكمل كلامها: ـ (والآن أنا حزينة. مثل أرملة. سوف لن أتمتع بلحظة واحدة حتى أراه ثانية).

ـ (لكن يا عزيزتي، أنتِ لا تعلمين مقدار قيمة الدراسة تحت يد السيد كاظم! وكم هي جميلة! ياه.. لو كنتُ رجلًا. كم كنت أود الجلوس عند أقدام السيد كاظم).

بدأ قلبها يخفق بشدة ويصعب تنفسها!

ـ (من الوارد أن أقدر! من الوارد أن أفعل! ولم لا)؟

فذكرتها مرضية: ـ (لأنكِ امرأة يا أختي. أما بالنسبة لي، فسأكون سعيدة للتواجد في كربلاء، فقط لأكون بجانب زوجي وهو يدرس. فعلى الأقل أتمكن من رؤيته يوميا... حسنًا.. هل ستأتين معي إلى بيتي؟).

فجأة.. أجابت الطاهرة، ونار فكرةٍ تشتعل في رأسها: ـ (نعم. سأذهب معكِ. وماذا بعد ذلك، إذا ذهبت لكربلاء. فسآخذك معي).

وتبسمت للتغيير المفاجئ في وجه أختها.

ـ (حينما نصل بيتك، أرغب في الحديث مع حماك. هل تتدبرين ذلك؟).

وكالعادة.. فحينما استقبلها عبد الوهاب، دخلت مباشرة في صلب الموضوع.

ـ (لو ذهبت إلى كربلاء، هل تعتقد أنه سيسمح لي بحضور دروس السيد كاظم؟).

صمت عبد الوهاب يفكر مليًا قبل أن يجيب: -

- (أعتقد ذلك. بسبب سمعتك الشهيرة في تفسير الكلمات المقدسة؛ أشعر أنه سيرحب بالتأكيد بفرصة المقارنة معك تفاسير المسيحية، واليهودية، والنبوءات الإسلامية).

تنفست الطاهرة الصعداء لهذا الاستنتاج. وأخبرته: -

(حتى اليوم، لم تكن عندي رغبة في الوصول لمثل هذا المستوى، أما الآن... نعم إنه ممكن. وسأجعله ممكنًا. حالما أستلم من سيد كاظم الرشتي جوابًا لرسالتي، سأبدأ بالتخطيط للسفر).

نهض عبد الوهاب عن وسادته، ووقفت الطاهرة كذلك، مدركة انتهاء اللقاء.

قال الرجل: - (أتمنى لكِ كل التوفيق).

وتبسم بوضوح مكملًا كلامه: - (وإذا كان بالإمكان، هل تستطيعين اصطحاب هذه الزوجة المتيمة لولدي؟)

فأخبرته الطاهرة وهي تبتسم بهدوء: - (لقد خططت بالفعل لذلك).

فجأة.. عرفت أن الرسالة ستأتي، وأنها ستذهب إلى كربلاء. عندما وضع ملّا علي الرسالة بين يديها بعد عدة أيام، فنظرت لها وهي غير مصدقة.

هزت الكلمات الأولى كل كيانها بمقدار لا يوصف.

كتب: - («يا قرّة العين»، أنتِ سلوة عيوني وفرح فؤادي).

توقفت لعدة لحظات في صمت مهيب. تتذوق نكهة الكلمات، عاجزة

عن الحركة أو الكلام. فلقد غمرتها نورانية خفية لا توصف، مع أنها ما زالت موجودة داخل ردائها. وعندما أنهت قراءتها، سلمتها إلى عمها دون تعليق.

لم يكد يقرأ التحية.. حتى رفع نظره بحدة إلى الأعلى مندهشًا، فتلاقت عيناهما بتفاهم. وقال لها: ـ

(لقد رءاكِ، رءاكِ بعين روحه. أصلّي كي تحققين طموحكِ في رؤيته شخصيًا. إنه رجل عجوز. ستقر عيناه حقًا بحضورك، إذا كان هذا التوهج الذي يغطيكِ الآن، يبقى دائمًا).

وقرأت مرضية الرسالة، فأصابتها الرهبة أيضا. وقالت: ـ

(من الآن فصاعدًا سأناديك بهذا الاسم الجميل «قرّة العين»).

وأكملت.. بمقدار قليل من الاحترام في صوتها.

ـ (يا له من شرف! كم أنا فخورة بحصولي على أخت يخاطبها مثل هذا الرجل الجليل).

أدركت الطاهرة تمامًا شرف هذا الاسم الروحاني، وكانت ممنونة من المعلم لنظرته العميقة إلى شخصيتها؛ أما بقية فحوى الرسالة، فقد أشبع جوعها لمزيد من المعرفة.

استمرت المراسلات بينهما لعد شهور، حتى وصلتها رسالة دفعت بأملها قدمًا لزيارة كربلاء.

ـ (بالإشارة إلى رسالتك التي أبديت فيها رغبتك في زيارة كربلاء، فاسمحي لي أن أقول التالي: كل سنة في شهر ذي القعدة، من عادتي التوجه إلى الكاظمين، لزيارة مقام الإمام موسى الكاظم، والإمام محمد

تقي، «الإمامين السابع والتاسع». لذلك سأكون بعيدًا عن كربلاء حتى يوم (عرفاء)، حينها أعود لزيارة مقام الإمام الحسين).

كان هناك المزيد، لكن ذلك كان كافيًا لتشجيعها لاتخاذ إجراء فوري.

فتوسلت لعمها (علي) الورع، وقالت له: - (أنا مستعدة للذهاب إلى كربلاء... ولا تقل لي.. الآن وقت شتاء.. وكربلاء بعيدة.. فأنا أعلم ذلك. ولا تقل لي أن والدي سيعارض. فأنا أتوقع الاعتراض. سيكون مبرر ذهابي، أني لم أزر مقامات المسلمين من قبل، وأرغب الآن بذلك).

- (سأترك لك مهمة تدبير ترتيبات السفر والحراسة، وسأحاول بلطف زرع الفكرة في رأس أبي، والعم تقي ومحمد. ومن الطبيعي أن تكون مرضية سعيدة بمرافقتنا).

ابتسم الملّا علي موافقًا: - (ممتاز.. وبالطبع سنزور الأضرحة خلال سفرنا. سأباشر بالترتيبات اللازمة. هناك (خان) ممتاز سنسكنه في جوار أحد الأضرحة).

التفت ليغادر المكان، لكنه تردد قليلا، وعاد لينظر من فوق كتفه إلى قامتها الهيفاء المنتصبة مثل رمح، ابنة أخيه العبقرية ذات الجسد الضئيل. وقال: -

(أظن الفكرة ستبدو مغرية لإخواني. وسيقتنعون بأنها إشارة عودة إلى التعقل واستقامة الرأي من جانبكِ حين معرفتهم برغبتكِ في زيارة الأضرحة).

عندما اكتملت جميع الترتيبات تقريبا، ذهبت قرّة العين - كما يحب أقرباؤها الآن مناداتها - إلى قصر عمها، أملًا بزيارة أولادها قبل رحيلها.

في أول بداية حماسها، وجدت حين اقترابها من سكن عمها تقي، أن مزاجها قد تغير. فحاولت التغلب على مشاعر الانفعال، لكنها لم تستطع. في النهاية، قررت التقدم مستسلمة رغم مشاعر إحساسها بالمشاكل. في تلك اللحظة، وكأنه كان تعزيزًا لمخاوفها، التفت إليها يوسف الذي رافقها من قصر والدها ماشيًا أمام حصانها كالعادة، بوجهه المجعد الهرِم وعلامات قلق عميقة ترتسم على معالمه.

قالت له وهو يساعدها على الترجل: ـ (سأفعل مثلما أخبرتني. سأكون حذرة. وأشكرك على اهتمامك المستمر وحمايتك).

أجابها وهو يشهق لسحب دموع عينيه: ـ (أميرتي!).

فتح الحاجب بوابة القصر وانحنى لها وهي تمر.

كانت الصالة هادئة. فوقفت للحظة، وحيدة، والخوف يأتيها من كل زاوية. لكنها رفعت رأسها بشجاعة، وتقدمت رغم كل ما تتوقعه من مخاطر.

كانت رغبتها صعود السلالم المرمرية بسرعة نحو الممر الطويل، ثم إلى غرفتها، لكنها توقفت قليلًا لتستقوي بقراءة الدعاء. ثم دارت حول ركن زاوية، لتفاجأ بمواجهة زوجها وأبيه وجهًا لوجه.

قال عمها وهو يضع يديه على خصره ويفرج قدميه، كما لو أنه يقطع عليها تقدمها: ـ

(وصل علمي أنكِ ذاهبة إلى كربلاء، لماذا)؟

حدق بها محمد ساخرًا والغلّ في عينيه، وقال: ـ

(هل مهم لماذا؟ دعها تذهب!).

واستطرد وهو يلوّح مهددًا: ـ (اذهبي إلى كربلاء!. اذهبي إلى أي مكان، فقط خذي معكِ فضائحك بعيدًا عن هذا البيت الذي دنستيه طويلًا).

ردت عليه: ـ (دنسته!...).

لكنه قاطعها وقال: ـ (نعم دنستيه! ولا تسألي عن رؤية الأولاد. فأنتِ غير جديرة بهم، أنتِ مهرطقة. أنتِ عار عليّ. أنا أكره مجرد منظرك).

تغير وجه الطاهرة إلى قناع من الخوف، ليس على نفسها، ولكن على الرجل المسن الممتلئ كراهية الذي كانت عيناه المحمرتان تراقبها عن قرب.

فاعترضت وهي تخاطبهما: ـ (لا.. لا.. أرجوكما، عمّي تقي، محمد، لا تتركا مثل هذه الانفعالات تتغلب عليكما! فستدمركما في النهاية).

صرخ تقي، ومنظر وجهه مشوّه من شدة الغضب، ليقذف كلمات مثل خناجر: ـ (أنتِ من ستتدمرين).

خطى محمد نحوها خطوة رافعًا قبضته عاليًا إلى الخلف.

رفعت رأسها بكبرياء وبصوت ثابت وحازم، وقالت: ـ (لا تجرؤ على ضربي!).

لقد سبق وأخبرها إخوتها عدة مرات، أنهما لن يجرؤا على رفع صوتيهما عليها؛ شعر محمد الآن بقوتها، فتراجع كما لو أنها صفعته بجوابها.

فسألته باتزان، وتعابير وجهها لا تظهر مقدار جرحها: ـ (لماذا تعاملني بهذا الأسلوب الفجّ. أكلّ ذلك بسبب عدم موافقتك لتفاسيري للقرآن والأحاديث؟ دعنا نناقش الاختلافات بهدوء وبدون هذه الأحقاد غير الضرورية. سأكون سعيدة للكلام معك بعد أن أستريح).

صرخ عمها تقي وهو يرتجف من رأسه حتى أخمص قدميه، رافعًا يده

ليمسح من على شفتيه تفال فمه: ـ (خذي أشياءك الملوثة وغادري على الفور. وكأنما لا يكفي ما فعلتيه من عار لي ولولدي، لقد كنتِ تمضين وقتًا طويلًا مع عبد الوهاب، الذي اسمه فقط، لعنة على سمعة البرقانيين بجميع المقاييس).

ـ (إذن.. هذا هو! الزهو بالنفس، جرح في الكبرياء، أكثر شراسة من نمر جريح... آمر بتجهيز حصاني وهودجي حالًا).

تركت الرجلين الغاضبين لحالهما، وبدأت تجمع حاجياتها الصغيرة بسرعة، وساعدها الخدم في حملها إلى بوابة القصر. لقد تعلموا محبتها وتعاطفوا معها. وبكوا دون لفت أنظار إليهم.

وبتلقائية.. خلعت الطاهرة من جيدها عقدًا من الكريستال، وأعطته لأحدى الخادمات، وقالت لها: ـ (تقاسموا خرزها بينكم. وإذا كان بإمكانكم اللطف بأحد أحبتي من أولادي الذين لم أتمكن من التمتع والتشرف بأمومتهم، فافعلوا ذلك من أجلي. أرجو أن تردوا لي الجميل في هذا السبيل، إذا شعرتم أنكم تودون رد الجميل).

كان يوسف قد عاد إلى منزل والدها ينتظرها هناك. فأشارت إلى الأمتعة بصمت وبدأ الخدم بتحميلها.

سوف لن تعود مرة أخرى إلى منزل تقي بعد الآن. فقد انتهى هذا الفصل من حياتها.

كان هناك أمر مبهج فريد؛ فهي لم تعد مرتبطة بمحمد، ولا مجبرة في الخضوع لسلطة عمها تقي. فذهبت من فورها إلى والدها صالح. وقالت له ببساطة: ـ

(لقد طردوني. عمي تقي ومحمد، لقد كانوا بانتظاري).

فسألها والدها: - (هل ضربوكِ؟).

قالت: - (لا.. ليس هذه المرة. كانا يودان أن يفعلا، لكنهما كبحا جماحهما).

راح والدها يخطو ويداه معقودتان خلف ظهره وعلامات القسوة والغضب تبدو على محياه الوسيم. ثم قال: -

(وماذا عن أولادك؟)

انتفخت أوداج حلقومها ولم تتمالك نفسها ثم انفجرت في البكاء، وقالت بصعوبة.

- (كان الوضع يائسًا. سأتركهما لمحبة الله. كما هو حالي. لله أسباب لكل شيء، حتى الأمور المؤلمة لقلب الإنسان... دعنا.. لا نتكلم.. عن ذلك يا والدي رجاء).

صرخ صالح بغضب وتعجب: (أفٍ..! لقد حاولت المحافظة على اسم العائلة نظيفًا، لكن تقيًا..! لو علمت كيف سيعاملكِ مسبقًا يا ابنتي الحبيبة، لكنت أقل تساهلًا معه. ولكنت كشفت بعض أفعاله المخجلة منذ زمن بعيد. أما بخصوص محمد.. فلكنت وجدت له وظيفة بعيدًا عن هنا. هذا إذا كنت سمحت له في البقاء حيًا).

في تلك الأثناء، كانت الطاهرة تجلس منحنية من هول المصاب. فانتبه والدها لحالها، وقال: - (اذهبي لوالدتك. فلقد حان وقت العشاء. الطعام سيمنحك بعض السيطرة على نفسك؛ أنتِ ترتعدين بسبب هذه الأفكار والتصرفات العنيفة... هل ما زلتي ترغبين الذهاب إلى كربلاء؟)

(أوه... نعم.. نعم).

ـ (لقد حضر عمك علي، حالما خرجتي لمنزل تقي. وطلب أن أخبركِ أنه حجز منزلًا في كربلاء، لكِ ولمرضية ولخادمتك. وأخذت منه وعدًا بمرافقتكِ وضمان سلامتكِ. فهو رجل يعوَّل عليه. يمكنك الوثوق به تمامًا).

قالت الطاهرة: ـ (نعم.. نعم.. شكرًا يا والدي).

لقد أخمدت هذه الأخبار المفرحة جميع ما قاسته من آلام.

كانت والدتها ـ مثل بقية الأمهات اللائي لديهن خادمات يملكن آذانًا أدق من رأس إبرة ـ فقد وصلها خبر طردها من بيت تقي، وجاءت لترحب بها مفتوحة اليدين.

همست البنت: ـ (لا تجعليني أبكي وأذرف الدموع يا أمي. استطعت الآن فقط، السيطرة قليلًا على مشاعري، فأنا أشعر بالحزن الشديد على نفسي. حزينة، ومع ذلك أحلق في جو من الفرح، لذلك كنت كشخصين. اسمحي لي بالتحليق يا أمي، خشية ملامسة جناحيّ تراب الندامة).

قالت الوالدة: ـ (تتكلمين بغموض وأحاجٍ، ولكن حسنًا؛ بعد أن نأكل. ستخبرينني بما تشائين. لا أكثر. هل يسركِ هذا؟)

ـ (آه.. يا والدتي، كم أنتِ متفهمة. لطيفة جدًا وعطوفة وحكيمة. ذات نوعية الأم التي خططت لأكونها مع أولادي).

فإذا بالدموع تنزل طواعية.

اتجهت لغرفتها وبقيت هناك، تحاول تخفيف هياج عواطفها، حتى نادتها أمها لتناول العشاء.

بدت الغرفة الكبيرة حيث تناولت العائلة طعام عشاء تلك الليلة، محببة مألوفة لها. فتوهج المناقل في جوانب الغرفة، ولمعان فحم المدفأة، وبريق نيران مشكاة الحائط. ألوان الأقمشة والستائر الأنيقة، غطاء المائدة الأنيق الممدود وسط الغرفة وفوقه صحون جميلة وأكواب زجاجية، بريق الفضيات البهيج، ورائحة الطعام اللذيذ، كل ذلك يغري الشهية ويسهم بمزيد من حرارة مشاعر المحبة.

جلست الطاهرة بجانب والدها على مائدة الطعام، تقارن بين ثراء عائلتها وحالة فقر كثير من عوائل إيران. فنكهة الرز الإيراني والصلصة والدجاج وأكوام رقائق الخبز «اللافاشا» والبخار المتصاعد من السماور إضافة إلى صورة الحضور الممتعة والحياة الراقية. كل ذلك دفع بأفكارها بعيدًا حيث الأحداث القادمة، وراحت تأكل بشهية مفقودة.

كان هناك العديد من أفراد العائلة حول المائدة، جميعهم أقرباء: العمّات والأعمام، أبناء أصحاب البيت، أحفاده، أولاد الخالات والأخوال وأبناء الأعمام. لم يكن هناك ضيوف تلك الليلة. ولا ضمّت الحلقة رجلًا غريبًا بينهم، فليس من الأعراف، السماح لرجل غريب بالجلوس في قسم الحريم.

طوال فترة العشاء، كان الجميع يحاولون إظهار غزارة محبتهم لابنة عائلة البرقاني الشهيرة، مرحبين بعودتها بهدوء ضمن إطار الأسرة، مثل فرد كان غائبًا عنهم لأمد طويل.

لم يكن الملّا علي ضمن المنضمين لتناول العشاء، لكن رسالة وصلت منه في وقت المساء لاحقًا، تقول: ـ (كل شيء جاهز، سنغادر في الصباح. لقد أخبرت مرضية بذلك).

التفتت الطاهرة إلى قانتة التي كانت تمشط شعرها استعدادًا للنوم، وقالت: - (أخشى أنكِ لن تنامي كثيرًا هذه الليلة يا صديقتي. فعليك توضيب كل شيء قبل الفجر).

تغضن وجه قانتة الشبابي الصافي بابتسامة، وقالت: - (لا تقلقي رجاء.. كنت منشغلة بذلك. ستحتاجين إلى نوم هادئ هذه الليلة، فالطريق طويل إلى كربلاء وحالة الطقس لا تسر).

وكعادتها قبل النوم، فتحت الطاهرة كتبها المحببة، وقرأت لبعض الوقت قبل أن تهجع.

كتب أحد قدماء الفلاسفة: - (الحقيقة البسيطة، هي كل شيء، ومع ذلك لا أحد.. أدرك مفهومها ضمنيًا ليشارك بنوع من المطابقة بينها وبين العقل الذي أدركها).

وقرأت من كتاب آخر: - (إن سرَّ هذا الأمر، يجب ظهوره، وسرَّ هذه الرسالة، يجب إفشاؤه).

بإغلاقها الكتاب، دعت الله أن يكشف لها هذا السر والغموض من خلال صديقها ومعلمها السيد كاظم، الذي تتوجه إليه أفكارها بقوة حتى ذلك الحين. أما الحزن الذي شعرت به في تلك اللحظة، فنسبته إلى أحداث المغرب والمساء. ألم تقدم كل شيء، ووضعت حياتها في كفها وقدمتها للواحد المستتر الذي سيظهر، حسب مضمون تعاليم كاظم؟

لقد انتهى الآن فصل كامل من حياتها.

الأمومة.. الزوجية.. أمستا خلفها. وهي وحيدة الآن. وعليها أن تثبت نفسها في مجال آخر، ليس ذلك النوع الذي يعتقده الرجال الإيرانيون عن المرأة.

قالت في نفسها: ـ (عليّ بتمزيق حجبات الجهل، وتحمل كل شيء، معاناة كل شيء، إذا اقتضى الأمر، لإثبات جدارة المرأة وكشف الحقيقة الإلهية).

هل كانت جديرة بما فيه الكفاية لمواجهة المهمة القادمة؟ هل كانت علومها كافية؟ هل كانت عظمة شجاعتها كافية لمواجهة ساحة معركة الأفكار المضادة؟

للحظة تراءى لها معسكر عظيم للأعداء، تجمعات خيامه تطرق الآفاق.

طمأنت نفسها، وأخذت نفسًا عميقًا يساندها: ـ (أنا لست وحيدة، الله معي. لن يطلب مني أكثر مما يمكنني تقديمه لأجل أمره).

تسللت قانتة إلى الغرفة، لتقول: ـ (سيدتي..! ألا تسمحي لنفسك بقليل من النوم، لقد نام الجميع منذ ساعات طويلة).

قالت الطاهرة وهي تشير لها: ـ (إلا أنتِ).

ـ (لقد أكملت التوضيب، والآن سأذهب إلى سريري. استريحي بسلام يا سيدتي. سنغادر عند أول شعاع الفجر).

الفصل السابع

كان الظلام يسود الغرفة، حينما أيقظ الطاهرة رنين أجراس الدواب خارج البيت، فرمت بغطائها جانبًا وأسرعت لارتداء ملابسها الشتوية الثقيلة، تستعد لتناول فطور الصباح. وحينما ظهرت قانتة، كانت ما تزال تتثاءب نصف نائمة.

حضرت خادمة أخرى تحمل طعامًا ساخنًا، وشايًا.

قالت الطاهرة لوصيفتها قانتة: ـ (علينا أن نأكل جيدًا. إنه طريق طويل حتى أول محطة وقوف، والبرد شديد في هذا الوقت من السنة... أوه.. اسمعي الأجراس! يا لها من أصوات مثيرة).

كانت تفكر في نفسها: ـ (أين ستقودني هذه الرحلة؟ متى سأرى بيتي العزيز هذا مرة أخرى؟ أية أمور جديدة سأسعى لخوضها؟)

وكالعادة.. فبعد مثل هذه الهواجس، نهضت لتصلي وترمي بأشجانها بين يديّ الله.

كانت الحيوانات تنتظر مستريحة خارج البيت، وضع على ثلاثة منها هوادج مستورة خصصت للنساء، وأربعة منها حملت صناديق تحوي أمتعة السيدة النبيلة.

سبقت قانتة سيدتها وأمرت بإحضار هودجها حتى الباب. كان يوسف هو من أحضر البغل الأبيض ليساعد الطاهرة بامتطاء ظهره، وحرص على إحكام إغلاق ستائر الهودج، مصرًا على وضع مزيد من الدثار على ركبتيها.

فابتسمت الطاهرة له وقالت: ـ (شكرًا لك.. شكرًا لك.. يا صديقي العجوز. لا أتذكر وقتًا في حياتي لم تكن فيه مساعدًا وصديقًا لي. ليكن سلام الله معك دائمًا يا يوسف).

فأجابها بشجاعة واضحة: ـ (أميرتي..! أنتِ.. التي تملكين موهبة غريبة تشاهدين بها ما في قلوب وعقول الآخرين، لا عليكِ إلا التأكد من احترامي وتقديري لكِ. عسى أن تعودي بسلامة).

وهكذا بدأت الرحلة الطويلة.. وحالما تقربوا من منزل حميها العالم، انضمت إليهم مرضية وخادمتها. وسارت القافلة بيسر، لا يزعجهم سوى نباح الكلاب التي أيقظها رنين الأجراس، وتحديق عيون بعض الرجال المتطفلين في الأزقة المتفرقة خلال تلك الساعات المبكرة، ثم وصلت المجموعة إلى البوابة الخارجية لمدينة قزوين.

كان البرد قارسًا جدًا ذلك الصباح، وأضحى أكثر برودة أثناء النهار. وهبت ريح شديدة صفقت ستائر الهوادج مسببة قشعريرة لشاغليها. شعرت الطاهرة بالبرد في صميم عظامها، واصطكت أسنانها، لكنها ركزت عقلها بعزم نحو هدفها ولم تبدِ تذمرًا.

أما مرضية، فأصغر سنًا، وأقل تجربة للحياة، قلبها يتسابق مفعمًا بأمل اللحاق بزوجها الشاب، متحملة قساوة الرحلة أفضل من أختها ومن قانتة، لكنها يبست من البرد قبل نهاية أيام الرحلة.

وبمرور الأيام وهم يسيرون قدمًا نحو جهة الجنوب الغربي، أصبحت الرحلة أقل إزعاجًا. لكن وحتى قبل أن يعبروا الحدود الإيرانية إلى المناطق التركية، وقع على قلب الطاهرة نذير هاجس مثل ثقل كبير.

وعندما ظهرت منارات بغداد في الأفق البعيد، وتلألأت أشجار النخيل خلف أمواج سراب الحرارة، شعرت بهاتف نذير، وتساءلت في نفسها، إذا كان سبب ذلك تصورها حزن الأسابيع الماضية. وتمنَّت بحماسة أن يكون زوج مرضية الذي جاء للدراسة عند أقدام السيد، على ما يرام.

كان عمها المحترم، الملّا علي، يمتطي حصانه طوال الطريق بجانب هودجها. حينما صاح: -

- (هذه هي بغداد. ومكاننا المقصود ليس ببعيد جدًا).

ثم تقرب من هودج الطاهرة، وقال: - (كنت أتساءل ماذا ترغبين عمله؟ هل تذهبين مباشرة إلى الخان الذي حجزت فيه مسكنًا لمجموعتنا، أم تودين ملاقاة السيد كاظم في بيته فورًا؟)

أجابت وهي مستغربة لانضمام يديها بحالة لا إرادية في وضع للدعاء: - (لنذهب ونقدم الاحترامات للسيد كاظم قبل الذهاب إلى الخان).

ازداد اضطرابها باقترابهم من كربلاء ومشاهدتهم مساجدها ومناراتها، وشذى الورود ينبعث من حدائقها ملطفًا مشاعرهم.

كان الملّا علي قد زار كربلاء ومنزل السيد كاظم من قبل. فأرشد قائد القافلة إلى الشارع الصحيح وأوقفه عند البوابة الكبيرة لمنزل ضخم.

جاء أحد الخدم لتحيتهم. وحينما أخبروه أنهم توقفوا لتقديم الاحترام

لسيده؛ علت وجه العجوز معالم الحزن والأسى وراحت شفتاه ترتجفان.
ثم تأوّه وهو يقول: ـ

(لقد مات السيد).

شهقت الطاهرة في هودجها.

لقد كانت كل تلك الهواجس الخفيّة! كانت له! لقد تنبأت بوفاته، دون أن تصلها صورة واضحة عن ذلك.

سأله الملّا علي وهو مندهش: ـ (متى؟)

ـ (مرّ الآن عشرة أيام على تلك الساعة المشؤومة).

ـ (زوجته.. أرملته؟ هل هي متواجدة داخل البيت)؟

ـ (نعم. لكني لا أعلم إذا كانت ستقابل أحدًا. وعلى كل حال، هناك بعض الطلاب معها في هذه اللحظة، بينهم واحد من مدينتكم (قزوين). هل أنادي عليه؟)

ـ (أفعل رجاء).

كان زوج مرضية هو من هرع خارجًا، ووجهه حزين لموت أستاذه، لكن فرحة علت عينيه حينما شاهد زوجته الشابة المحبوبة مرة أخرى. وقال لهم على الفور: ـ

(سأدخلكم.. سترحب بكم سيدة البيت الكريمة بالتأكيد. وفيما بعد سأخبركم كل شيء عن السيد، وعن الأحداث التي رافقت رحيله. ولكن الآن آسوا قلب زوجته بتقديم تعازيكم لها. ستجدونها امرأة نبيلة وكريمة جدًا).

أما بالنسبة لمرضية، فقد امتلأت بحرارة حضور زوجها وملامسة يده، ولم يبد عليها كثيرًا من الحزن لاعتقادها أن رجلًا عجوزًا قد غادر الحياة بعد كل مساهماته فيها.

لكن قلب الطاهرة كان قد كسر.

كانت هي الوحيدة العالمة بمقدار حماسها وأملها لسماع التعاليم الروحية من شفتي السيد كاظم. ولتسلية خاطرها تجاه الخبر الحزين، وفّرت كل مشاعرها للأرملة المتوشحة بالسواد التي جاءت لمقابلتها بكل محبة.

بعد تقديم التعازي وقراءة الأدعية وتبادل الأخبار ومعرفة ظروف الوفاة، ثم رواية أحداث سفر الطاهرة ومرافقيها. قالت أرملة السيد كاظم ملتمسة: ـ

(ستبقين معي؟ أرجوك قولي أنكِ ستبقين هنا في هذا البيت، معي. أنا وحيدة جدًا. أتوسل إليكِ، لا تحرميني شرف جمال متعة حضورك الكريمة).

قالت الطاهرة بلطف: ـ (أشكرك سيدتي الكريمة. قبلنا كرم ضيافتك، ولكن في هذا الوقت، هناك بعض الأعمال علينا إنجازها. وبعد فترة قصيرة، سنعود من بعد إذنك).

نظر إليها الملّا علي، وغمزها رافعًا حاجبه، فهو لم يفهم مقصدها. فقالت له موضحة: ـ (لقد وعدت والدي، بأننا سنزور المراقد. وهذا ما علينا فعله حالًا، رغم تعبنا الشديد. ثم.. من بعد أن نرتاح قليلًا ونهيء أنفسنا، سنعود).

وإيفاءً بالوعد للملّا صالح، ذهبت المجموعة الصغيرة إلى مسجد

«براثا»، المشهور بمعجزاته الكثيرة، ومقصد الآلاف من الحجاج في ذلك الوقت من العام. كان هذا المسجد بالضبط، وغيره من مساجد كربلاء الأخرى موقعًا لمذبحة عظيمة في السنة الماضية. حيث انحدر برابرة من الشمال، يسلبون وينهبون، وذبحوا كل من حاول صدهم عن المدينة.

وحتى أولئك الذين بحثوا عن ملجأ لهم داخل المسجد الكبير، سحبوا وقتلوا بكل وحشية. ولم ينج من شر الغوغاء، إلا من التجأ لبيت السيد كاظم فقط.[1]

كان قد وصل علم الطاهرة، أخبار هذه الأوقات المرعبة من خلال رسائل السيد كاظم نفسه. وتخيلت كل ذلك وهي تنهض من صلاتها.

بعدما استحموا وارتدوا ملابس نظيفة، وعادوا إلى منزل السيد كاظم، جلسوا يستمعون لقصة وفاته من شفاه زوج مرضية الشاب.

قال: ـ (اتضح لنا الآن أن السيد كاظم كان يعلم مسبقًا بمجريات الأمور، لأنه غالبا ما نصحنا في الأيام التي سبقت زيارته للمراقد: «احذروا يا رفاقي الأعزاء من الزهو بمغريات هذا العالم الفانية أن تنسيكم الله». وقال لنا أيضا: ـ «إن من واجبنا التخلي عن كل الشؤون الدنيوية، والانتشار بعيدًا في

---

(1) ـ في «مقالة في الشيخية» (الجزء 2، الصفحتين 29 ـ 30) وصف نقولاس الحادثة كالآتي: «حصلت هذه الحادثة سنة 1258هـ (1842م)، في ليلة القدر، وقد دخل الجيش التركي تحت قيادة نجيب باشا كربلاء وقتل الأهالي وسلب ما في الجوامع من نفائس وقتل فيها قريبًا من تسعة آلاف شخص أغلبهم من الفرس.» وفي «هداية الطالبين»، يقول كريم خان، إنه أثناء نهب كربلاء كان الجنود يحترمون بيوت الشيخية، وكل من التجأ إليها صار آمنًا وكل ما معه من الأشياء الثمينة، ولم يقتل أحد من أصحاب السيد كاظم، مع أن الذين التجأوا إلى المشاهد المقدسة قُتلوا جميعًا بلا رحمة. (المترجم)

كل مكان للوصول إلى الموعود. وطالبنا أن نكون ثابتين حتى ذلك اليوم الذي سنختار فيه لنكون ضمن أصحاب القائم ومناصريه»).

ثم خاطب الشاب، الطاهرة، بعدما سمع عنها كثيرًا، ليس من زوجته المحبوبة فقط، بل من علماء يعرفهم شخصيًا، ومن السيد كاظم الذي منحها لقب (قرّة العين).

(...تكلم عن فئة بيننا يدّخرهم الله ليكونوا شهودًا على 'بزوغ نجمة الظهور الإلهي'، وأخبرنا أن نكون ثابتين. وقال أيضًا، وهذا ما لم يفهمه أحد منا بعد: «قريبًا وبعدما تعلو نفخة الصور الأولى، ويصعق ويموت من في السموات والأرض، سيكون هناك نفخة أخرى، تتبدل من خلالها كل الأشياء وتبعث بسرعة»).

فاقتبست الطاهرة وهي تستمع إليه، آية من القران، وقالت: ـ (ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون. وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون).

قال الملّا علي: ـ (رائع ما تقتبسينه من كلمات القرآن).

وهزَّ زوج أختها رأسه موافقًا.

ثم أكمل: ـ (وقال السيد: «بعد القائم سيظهر القيوم، حينما تخفت نجمة الأول، ستشرق شمس الحسين وتنير العالم. آنذاك فقط سينكشف سر ما قاله الشيخ أحمد»).

تمتمت الطاهرة: ـ (نعم سيكون هناك اثنان. لا بد أن يكون هناك اثنان عظيمان سيبعثان بنوريهما علينا).

وافق زوج أختها قائلًا: ـ (هكذا يبدو الأمر. لقد ترك السيد كربلاء متوجهًا إلى الكاظمين كالعادة، يرافقه عدد منا. وفي اليوم الرابع من ذي القعدة، وصلنا مسجد براثا، الواقع على الطريق العام بين بغداد والكاظمية كما تعلمون. كان وقت الظهر حينما توقفنا ونادى السيد على محبيه ليتجمعوا بقربه. فجاؤوا، ليواجهوا المسجد بقبته الجميلة، ووقف السيد تحت ظلال نخلة لأداء صلاته. في تلك الأثناء، وصل راعي غنم عربي، احتضن السيد، ثم أخبره عن حلم شاهده قبل ثلاثة أيام. في هذا الحلم، شاهد محمدًا رسول الله، يخبره بالحضور إلى المسجد في ساعة ظهر هذا اليوم بالضبط وتبليغ رسالةٍ إلى السيد.

كانت الرسالة كالتالي: ـ (أبشر.. فإن موعد رحيلك وشيك. فبعد أن تتم زيارتك إلى الكاظمين وتعود إلى كربلاء. في اليوم الثالث من عودتك، في يوم (عرفاة)، ستحلق بأجنحتك إليَّ. ومن بعدها سريعًا سيظهر الحق. وحينئذ سيتنور العالم بنور وجهه. وبدلًا من الانزعاج والكرب، ظهرت على وجهه معالم الفرح. أما نحن تلاميذه وأصدقاءه، فأصابنا حزن كبير، لكنه عاد ليبعث السرور فينا، وسألنا: ـ «ألا ترغبون أن أموت، عسى أن يظهر الموعود؟». وفي اليوم نفسه الذي عاد به هنا إلى كربلاء، مرض، وفي اليوم الثالث، يوم عرفاة، بالضبط كما تنبأ الراعي في رؤياه، توفي السيد كاظم).

تمتمت الطاهرة: ـ (كم قاسى هذا الرجل.. كم يستطيع الجسد أن يتحمل من أجل محبة الله. عليّ أن أتذكر أن أكون قوية. قوية بالجسد. قوية بالعقل. قوية بالروح، من أجله).

بعد ثوان من الصمت، قال الملّا علي: ـ (والآن؟)

أجابه الشاب وهو يلقي نظرة سريعة إلى وجه مرضية الذي علته

علامات التعاسة والحزن لهذه الأخبار المحزنة: - (لقد أوصانا السيد بترك رغباتنا الدنيوية والتحرك للبحث عن المحبوب.. لكن..).

وهنا توهَّج وجهه بحماسة مقدسة - ثم عاد ليكمل كلامه بلطافة وحزم: (لن يكون الأمر على الفور).

سأل الملا علي الطاهرة: - (على ضوء هذه الظروف، ماذا ترغبين عمله؟).

وبدون أدنى تردد اتخذت قرارها.

- (سأبقى هنا في كربلاء. فأنا أشعر أنه المكان المناسب الذي يجب أن أكون متواجدة فيه. هنالك سبب لمجيئي. من المحتمل أنه أمر خفيّ، لكنه حقيقي جدًا).

وتبسمت في وجه مرضية الذي علته علامات التعجب. وأردفت تقول: -

- (نعم.. عليّ بمقابلة تلاميذ السيد والاستعلام منهم عن أفكار معلمهم العميقة).

- ثم قالت بتواضع: - (فمن المحتمل، أن هناك حقائق يجب تعليمها لهم. وبالتأكيد عليّ كذلك تقديم محبتي ومواساتي لأرملة السيد كاظم، طالما تبدو قد تعلقت بي. يبدو أن هذا هو قدري).

وبهذا بدأت إقامتها الطويلة في كربلاء.

* * *

كانت أرملة السيد كاظم قد انجذبت بالفعل للمعلمة الجميلة الشهيرة. وأصبحت ملازمة لها جدًا، لدرجة أنها لم تكن ترغب بغيابها عن ناظريها فترة طويلة.

وأفضت الأرملة بسرها تخبر الطاهرة: - (يا عزيزتي.. أشعر وكأنني أعرفك. فغالبا ما قرأ زوجي رسائلك الممتعة لي. كان يفكر بكِ كشعاع من نور خرج من الظلمات، وكان يتطلع دائما لكلمة من عندك. من المحزن أن وصلتي متأخرة جدًا لرؤيته، لكن تلاميذه، مع ذلك الشاب الرائع الفذ من بشروئية، ما زالوا مجتمعين هنا. فهم بالطبع، قد سمعوا من زوجي الكثير عنكِ وعن مكانتك التي نلتها بجهودك الفردية كمعلمة مطلعة. فلماذا لا تستكملين دروس زوجي؟).

أجابت الطاهرة: - (أرغب بتعليم النساء، مثلما الرجال. إنها رغبتي العظيمة في بناء منزلة المرأة وكرامتها، لأخبرهن عن حقوقهن في هذا العالم، ومساعدتهن في الوصول إلى درجة من التعليم يتمكنَّ من خلالها تعليم عوائلهن وأطفال الآخرين).

قالت الأرملة وفي عينيها بريق يتلألأ: - (ابدئي معي، ولكِ مطلق الحرية في استقبال تلاميذك في هذا البيت الذي هو بالتأكيد كبير بما فيه الكفاية، وبهذه الطريقة ستخدمين أهدافًا جيدة).

***

منذ البداية كانت دروسها ناجحة، ووصل صيتها أثناء ذلك إلى أبعد التخوم في العالم الإسلامي.[1] واندفعت أفواج عموم أهل كربلاء، وعلى الخصوص النساء منهم، إلى قصر السيد كاظم لرؤيتها وسماعها.

(1) - باعتبار أن مدينة كربلاء، مزارًا مقدسًا لشيعة المسلمين، وهناك زيارات سنوية متعددة اليها من كل أنحاء العالم الاسلامي. وبهذا كان يصل زوار العتبات خبر علمها ودروسها ومحاضراتها وخطبها التي كانت تلقيها في مساجد المدينة. (المترجم).

كان طلاب السيد كاظم الأذكياء، يتطلعون أيضا لمناقشة العديد من النقاط المهمة معها، طالما كانت ذات قدرة معرفية في العلوم الإسلامية والشريعة، وفي بقية نبوءات الأديان الرئيسة. فهم يؤمنون بالفعل، أن ساعة عظيمة على الأبواب، والنبوءات ستتحقق قريبًا، ويصغون باهتمام بالغ لكل دليل جديد عن هذه المواضيع الخطيرة.

هنا في هذا الوسط العلمي، استقبلت الطاهرة بجدارة ـ بغض النظر عن كونها امرأة ـ كواحدة من أعظم العقول في العالم الإسلامي وكصنو كفوء لغالبية الرجال. أما هي، فقد أعلنت بصراحة أن كامل الفخر والاهتمام يعود للحركة الشيخية واعترفت أن هدفها هو صرف كامل قدرتها لترويجها.

وبشكل مدهش، داومت على أعمالها التدريسية، تظهر يوميًا في المدرسة، وبين صفوف النسوة. لم يكن واضحًا من الذي تسبب في انتشار سمعتها الكبيرة: أهو حماسة الرجال المتسائلين، أم هي اليقظة البطيئة التي أوجدتها بين مشاعر النساء. كان المهم قبل كل شيء تعليم النساء القراءة والكتابة، فاذا لم يتعلمنَ ذلك ـ وغالبيتهنَّ لا يعرفنَ ـ فساعتها فقط سيكون بمقدورهن مساعدة أنفسهن في الاستفادة من المعارف التي تقدمها لهم مجانًا.

لم يمضِ على تواجدهما في كربلاء أقل من أسبوعين، حينما وصل الملّا حسين بشروئي من شيراز ـ أفضل طلاب السيد الراحل ـ للتبليغ عن نجاح مهمته التي عهد بها إليه كاظم الرشتي. لكنه طالما أن السيد قد رحل، فقد تكلم إلى الطلاب بجدية، يستحثهم على تنفيذ تعليمات السيد، في التفرق والبدء في البحث عن الموعود.

نالت تعاليم الطاهرة تأييده، وكان مهتم جدًا بها وبأعمالها المنورة.

في البداية كان الطلاب ممانعين لاتباع اقتراحاته، ولأنه وأخاه وابن أخيه شدوا رحالهم وسافروا، اقتدى بهم ثلاثة عشر من الطلاب. من بينهم زوج مرضية. كانت خطتهم تقضي بالصيام والصلاة أربعين يومًا قبل الشروع برحلتهم، يأملون من خلال تعبدهم الوصول إلى محضر الموعود الذين يدعونه (المحبوب).

كانت مرضية متبرمة، بينما كانت الطاهرة متحمسة في كل أوقاتها.

وبفسح الشتاء المجال لدخول الربيع، ربيعًا بدا للطاهرة احتمال توافقه مع مشهد إعلان الموعود للنداء الإلهي الجديد، الذي يتنبأ بإعلان ظهور آخر جديد من بعده، أو نظام عالمي جديد، حينما يبعث الله ميثاق أمره الإلهي للتغيرات الضرورية لمتطلبات اليوم الجديد.

بالخدمات.. نسيت الطاهرة أحداث حياتها الزوجية.

خلال هذه الفترة، حصلت لها تجربة قوية وعجيبة جدًا شملت كل كيانها.

في وقت متأخر من تلك الليلة بعدما أمضت وقتًا طويلا في القراءة، ومن ثم في تعبد وصلاة. نامت بسرعة.. بعدما مددت جسدها المتعب على سريرها. فقط لتشاهد رؤيا مؤثرة وغريبة.

بدا لها تنظر في وجه سيّد شاب، عرفته من خلال عمامته الخضراء التي تدل على أنه من نسل النبي محمد. كانت له عينان سوداوان فائقتا الجمال، لطيف الهيئة بلحية وشارب سوداوين.

وبينما هي تنظر منبهرة متعجبة منقطعة الأنفاس، ركع هو للصلاة. فسمعت صوته وميزت كلمات صلاته.

فانتبهت من نومها فورًا وهي مدركة أن الكلمات ما زالت عالقة في عقلها، وأسرعت لتدوينها في ورقة. وطوال اليوم بعد هذه الحادثة، بقيت ترددها وتعيدها مرة بعد أخرى، مقتنعة تمامًا أن رؤياها كانت نبوءة تشكل ارتباطًا بينها وبين ذلك الشخص الجليل (الموعود).

خلال أواخر الصيف، وبعدما أنهى ميرزا (محمد علي) خلوته الأربعينية من صيام وصلاة، عاد إلى كربلاء ليرى زوجته مرضية لفترة قصيرة قبل أن يعاود بحثه مرة أخرى. فكتبت الطاهرة رسالة على شكل قصيدة، ألفتها في لحظة هيبة وخشوع حين صحوتها من رؤياها إلى ذلك (المبجل)، الذي كانت متأكدة أن زوج أختها سيجده.

وبشروع (ميرزا محمد علي) للرحيل، سلمته رسالتها قائلة: ـ (تأكد أنك ملاقيه. رجاءً سلّمه هذه الرسالة).

وأضافت: ـ (أخبره عني: «لمعات وجهك أشرقت، وبريق محياك سنا، قال: ألست بربكم؟. قلنا بلى.. قلنا بلى..).

كانت مرضية تنتحب، لسوء حالها في فراق زوجها، وتعابير الحزن والتجهّم واضحة على وجهها الجميل.

خاطبتها الطاهرة: ـ (حبيبتي.. كم أتمنى لو باستطاعتي تقاسم عظيم فرحي وسروري معك. لقد رأيته! أنا أعرف كيف يبدو! يا له من هيكل لطيف، تعابير القداسة على وجهه! لا يمكن أن تكون إلا للموعود. بالكاد أتمكن من كبح جماح شوقي لمعرفة ماذا سيسمح لي بالعمل من أجله).

كففت مرضية دموعها. وقالت بمرارة قليلة: ـ (حسنًا.. كل ما أريد، هو

مشاهدة محبوبي. لا أعتقد أني سأحب هذا الدين الجديد، إذا كان سيأخذ مني زوجي المحبوب بعيدًا عني).

قالت الطاهرة بصوت يملؤه التفهم، وهي تضع يديها برفق ومحبة على جسد أختها المترنح: - (الآن.. ما زلتي صغيرة نوعًا ما، رغم كونكِ امرأة متزوجة؛ أنتِ مغرمة جدًا، ولا شيء يمكنه اختراق الهالة المحيطة بكِ. وعلى كل حال، حالما تكبرين، فأنا متأكدة أنكِ ستدركين أهمية هذا الأمر، وتدخلينه في قلبك، كما فعل زوجك الجميل).

أجابت مرضية مذعنة: - (من المحتمل ذلك، أما الآن، فكل ما أريده عودته لي سريعًا).

فنصحتها أختها: - (صلّي إذا، لأجل وصوله إلى المحبوب مباشرة، لأنه لن يعود حتى يدخل محضره).

فور رحيل زوج مرضية، وصل أحد طلاب السيد كاظم القدماء وقدم نفسه إلى الطاهرة باسم (محمد علي بارفروش). كانت تعلم أنه ألمع تلاميذ السيد المتألقين، فانجذبت إليه فورًا، كما هو حاله. وقالت له على الفور: -

(أوه.. عليك بالإسراع.. أسرع.. فالبقية قد ذهبوا).

لم يكن بحاجة إلى تفسير، فقد كان يعلم مقصدها، وفي الوقت القصير قبل أن يستريح، بدأ هو أيضًا استفساراته، ودخل الاثنان في حوارات عميقة، وسأل الشاب عن استنتاجاتها من كلمات النبوءات المقدسة، فقدمت له الطاهرة مفاهيم عميقة عن الحقائق التي اكتشفتها منذ سنوات دراستها.

ذات يوم، حينما كان فصل الخريف على الأبواب، أخبرت أرملة السيد كاظم، ضيفتها المحبوبة: - (كونك صغيرة الحجم.. لكنكِ تملكين أقوى الأصوات. إن روعة رنين جرسه ينفذ إلى قلب السامع ويحرك انفعالاته بقوة، ويرفعه فوق موجة عالية، يتمنى عدم العودة منها إلى العالم الأرضي. ثمينة جدًا رسالتك التي تقدميها).

أخذت الطاهرة يديّ الأرملة النحيفة واحتضنتها بمحبة. وتمتمت في حالة من التأثر الشديد: - (ما قيمة هذا العالم من دون صداقة؟ كيف لنا أن نعيش دون من يؤمنون بنا وبنوايانا الصادقة؟)

في تلك الفترة، كان هناك صديقات أخريات للطاهرة في كربلاء، بقيت تهتم بهن دائمًا. إحداهن تدعى (خورشيد بكم)، نمت محبتها واحترامها عميقًا في قلبها كلما مرت الأيام. ومن بين الأخريات أيضًا، كانت والدة الملّا حسين بشروئي الحكيمة، وأخته، (وارا).

***

بينما أسابيع الانتظار تتحول إلى شهور، كانت مرضية متأثرة وقلقة، أما الطاهرة فكانت مستمرة بهدوء في تقديم دروسها، حتى جاء يوم عودة زوج أختها.

حضر إليها فورًا. فعلمت، قبل أن يتكلم، أنه قد دخل المحضر المبارك.

أخذت نفسًا عميقًا، وبادرت لتخاطبه بعجلة على الفور: - (نعم.. لقد رأيته! وتكلمت معه! أعلم ذلك! أعلم ذلك! وهل أعطيته رسالتي؟ حدثني عنه).

كان الشاب صامت تمامًا من شدة تواضعه.

- (إنه في حالة من القدسية... لا يدانيه أحد بها... أنوار محياه...).

خففت الطاهرة من لهفتها، وقالت بلطافة، رغم شوقها الشديد: - (اجلس، هدئ من روعك. والآن، ابدأ من البداية).

- (أخشى أني لا أعرف من أين أبدأ... كان ذلك في 23 من شهر مايو، عندما كشف الموعود عن شخصيته للملّا حسين. لا بد أنها كانت أبهى تجربة حصلت! ذلك سيحتاج إلى ساعات لسرد كامل القصة عن لقائهما وعن أحداث تلك الليلة الخالدة التي سيخلد ذكرها المؤمنون كأعظم الأعياد الجليلة).

- (الآن.. دعيني أقول فقط، أن الميرزا «علي محمد الشيرازي» ساعدَ الملّا حسينًا في التعرف عليه بأنه هو الشخص الذي نشتاق العثور عليه، وإنه عودة الإمام وعودة المسيح. لقد أتمَّ في تلك الليلة، جميع الوعود التي أشار إليها النبي محمد كأول إعلان للبشارات... وأنتِ تعرفين ما هي).

أمالت الطاهرة برأسها توافقًا مع سرعة الحديث.

صمت الشابان للحظات غارقين في أفكارهما، حينما حركت الطاهرة رأسها جانبًا مثل عصفور، وسألته بلطف: -

- (...لقد دعوته (ميرزا) علي محمد، ولكن... هل كان من السادة؟)[1]

- (أوه.. نعم.. نعم.. إنه سيّد، كما أخبرت النبوءات عن اسمه، (علي محمد)).

تبسما معًا غبطةً، مبهورين بالسعادة التي شملتهما.

---

(1) - «ميرزا»، لقب اجتماعي للاحترام. (المترجم).

ـ (لقد أخبرنا الملّا حسين عن نشوة تجربته وقوتها، حينما أصرَّ الموعود... ‹الباب›، أو ‹باب الله›... على بقائه في بيته طوال تلك الليلة، بدلًا من الخروج إلى الشوارع وهو منتشٍ ذاهل من نشوة خمر محبة الله).

ـ (عندما ارتشف علومًا عجيبة من معدن الرسالة، أمره الموعود أن لا يكشف ما عرفه حتى يمر أربعون يومًا، وأنه هو ـ ‹الباب› ـ أعطى الملّا حسينًا، مقام ‹باب الباب›، وأخبره أنه سيُعرَف كأول «حروف الحيّ» ـ منصبه بين الحروف ـ وأن السبعة عشر الآخرين سيجدون في النهاية طريقهم إليه بأنفسهم ويعرفونه).

ـ (كان هناك ستة عشر من بيننا وصلوا لمحضره بعد ‹باب الباب›. أنا كنت السادس عشر. وبعد أن تكلمت معه ونلت مقامي، سلمته رسالتك).

همست الطاهرة وهي تميل إليه برأسها متشوقة. (نعم..؟ نعم.. وماذا بعد؟).

ـ (وعندما هو، المدهش، الطاهر، جمال ‹الباب›، شاهد رسالتك، أعلن فورًا أنكِ الحرف السابع عشر من حروف الحيّ. للنقطة، لنفسه، النقطة الأولى).

ـ (أنــا..؟ امرأة..؟).

تراجعت الطاهرة إلى الخلف تسند ظهرها، ووجهها مشرقٌ، ونبضات قلبها تشتد. ومع أنها شعرت في قلبها من قبل أن ‹الباب› سيتقبلها كأحد خدامه، إلا أنها كانت في منتهى التواضع لتأمل مثل هذا المقام. وعرفانًا بالجميل، أحنت رأسها وأغمضت عينيها، لتشعر بثمالة خمر الأخبار.

ثم قالت ببساطة: ـ (أنا مستعدة لتقديم حياتي لأجله).

ردَّ زوج أختها مبتسمًا: ـ (بالطبع.. فجميعنا كذلك).

ثم سألته: ـ (والثامن عشر؟ إنه... لا بد أنه ذلك الشاب اللامع البارفروشي).

ـ (نعم. إنه رئيسنا. إنه الأكثر روحانية منا جميعًا).

ـ (لقد خاطبنا «الباب»: أنتم حاملون للواء الله في هذا اليوم وإنكم مختارون أمناء على سره، فعلى كل منكم أن تظهر منه صفات الله وأن تتجلى في أقوالكم وأفعالكم علائم الصدق والقوة والعظمة حتى أن أعضاء جسمكم تشهد بنبالة مقصدكم وطهارة حياتكم وصدق إيمانكم وعلو منزلتكم، لأني الحق أقول لكم أن هذا هو اليوم الذي تكلم عنه الله في كتابه القرآن (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون)،[1] تفكروا في كلمات المسيح إلى تلاميذه عندما أرسلهم لتبليغ أمر الله، قال لهم وهو يأمرهم بالقيام لإتمام المأمورية المكلفين بها (إنكم كالنار المشتعلة في ظلام الليل الموقدة على ذروة الجبل. فليكن نوركم ساطعًا أمام أنظار الخلق ولتكن طهارة أخلاقكم ودرجة انقطاعكم على شأن يتقرب أهل الأرض بها إلى الآب السماوي منبع الطهارة والفضل ويتعرفون إليه، فلم ير أحد الآب الذي في السماء. فأنتم أبناؤه الروحانيون عليكم أن تظهروا بأعمالكم فضائله وتشهدوا بعظمته فأنتم ملح الأرض، فإذا فسد الملح فبماذا يملح؟ يجب أن يكون انقطاعكم بحيث أنكم إذا دخلتم مدينة لتبليغ وتعليم أمر الله فلا تنتظروا مكافأة من أهلها، بل إذا خرجتم منها، فانفضوا الغبار من أرجلكم، فكما دخلتموها طاهرين، كذلك اخرجوا منها طاهرين، لأني الحق أقول لكم أن أباكم السماوي معكم وينظر إليكم، فإذا كنتم أمناء لأمره فإنه يدفع لأيديكم كل ثروة العالم ويرفعكم على حكام وملوك الأرض).

---

(1) ـ سورة يس، الآية 65.

كانت الطاهرة تستمع صامتة وتبكي بحرقة.

وأكمل زوج أختها قوله: - (قبل أن نغادر شيراز، دبّجَ رسالة أو أمرًا، لكل فرد من الثمانية عشر، كتبها بسرعة خارقة وجمال خط رائع، لدرجة أصابنا الذهول. وهذه خاصتك).

كانت الطاهرة متأثرة جدًا حتى أنها لم تستطع أن تشكره. واستلمت لفيفة الورق، بيدين مرتعشتين، وقبّلتها بإجلال وانفعال، لكنها تركت قراءتها إلى وقت آخر.

كانت الغرفة تهتز من قوة شحنة طاقة الحوار، أما مرضية فقد انبهرت تمامًا، فوقفت وانسحبت بهدوء تام. كانت تعلم أنها تشهد ساعة مقدسة. وتساءلت إذا كانت ذات قيمة للمشاركة ضمن هذا الانسجام بين زوجها وأختها العجيبة.

وأخيرًا رفعت الطاهرة صوتها وقالت: - (هل أمرك بالعودة؟).

- (أمر بعضنا للتبليغ في مناطقهم. لذلك، سأصحب مرضية ونعود إلى قزوين. فهل ترافقينا؟).

لم يكن هناك أي تردد في صوت الطاهرة.

- (لا. سأذهب من هنا إلى أي مكان أدعى اليه. وحتى ذلك الحين، سأستمر على تدريسي هنا. والآن، فمعي رسالة هائلة. وأيضًا، باعتباري أحد حروف الحيّ، سأكون قادرة على الكلام بقوة أعظم. سأخبرهم الآن علانية عن (الباب) المبارك، وكيف ظهر لجميع الرجال والنساء سواسية برسالة أمل منزلة عليه من عند الله... إن جميع أخبار ظهوره مذكورة في

القران، لكن عامة القراء فشلوا في التعرف على معانيها. أنا سعيدة جدًا لظهوره. لقد جاء القائم! لقد عاد المسيح! إنهما واحد ومتشابهان).

قال زوج أختها وهو ينهض: - (لا عجب أن تزداد أعداد المندفعين لحضور دروسك. فأنتِ شخصية ملهمة).

***

- (تيقظوا..! تيقظوا..! لقد فتح باب الله!)

كانت الطاهرة تتأمل هذه الكلمات، وهي في طريقها إلى عملها، ويبدو دائما أنها تجلب لها مزيدًا من المحبة والقوة دائمًا.

بحلول الشتاء، توفيت أرملة السيد كاظم، فانتقلت الطاهرة إلى بيت آخر لتسكن مع (خورشيد بكم)، صاحبتها ورفيقتها المعجبة.

كانت الطاهرة قد وسعت نشاطها إلى مدينة النجف، موطن مشاهير العلماء، حيث كان هناك اهتمام متنامٍ بالدين البابي.

نبّه حضور الشابة والمعلمة الجميلة رجال الدين إلى الخطر. حينما شاهدوا الدين الجديد ينتشر مثل نار ملتهبة، بينما راحت سلطتهم على الناس تتراخى بذات المعدل.

كانت تدرّس تعاليم الديانة البابية في صميم قلب العالم الإسلامي.

فبدأت المعارضة ترتفع.

أخيرًا.. استطاع العلماء الحصول على أمر باعتقالها، ولكن بعد أن ازدادت شهرتها للسنوات الثلاث الماضية في كربلاء والمناطق المحيطة.

عندما هجم الضباط والشرطة على بيتها في كربلاء، لم يجدوا غير ‹خورشيد بكم›، ورغم اعتراضها ومحاولة توضيح نوع الالتباس، وأنها ليست المرأة المطلوبة، إلا أنهم ألقوا القبض عليها وأسرعوا ليلقوا بها داخل السجن.

وعلى الفور أرسلت قانتة أخبار ما حصل إلى الطاهرة. وبفورة غضب - وبسبب قلة احترامهم - جلست الطاهرة تكتب رسالة شديدة اللهجة لترسلها إلى الحاكم الذي تربطها به علاقة احترام سابقة.

كتبت: - (أطلقوا سراح صديقتي على الفور. فهي ليست المطلوب اعتقالها، وهي بريئة تماما من أي ذنب. فإذا كنتم تطلبونني، فأنا هنا في النجف. وسأعود فورًا إلى كربلاء، وساعتها يمكنكم فعل ما تشاءون معي).

أطلق سراح ‹خورشيد› على الفور. فأسرعت تكتب للطاهرة ترجوها بعدم العودة، لأن هناك مشاكل جمة تنتظرها. لكن صلابة إيمان الطاهرة بالدين الذي آمنت به حديثًا، لم يسمح لها بإظهار جُبنٍّ أو خوف. فأكملت رحلتها عائدة إلى كربلاء، لتجد حراسًا على باب منزلها، لكنهم لم يتعرفوا عليها بسبب حجابها.

أخبرتها خورشيد وهي ترتجف من الخوف: - (كنا تحت المراقبة طوال الوقت. ولقد كتب الحاكم إلى بغداد يطلب تعليمات بما سيفعله بخصوص سكننا هنا. فماذا نحن فاعلون؟).

قالت الطاهرة: - (قليل من الراحة قبل كل شيء، ستكون جيدة لنا. نحن مرتاحون ولدينا ما يكفي من الطعام. دعينا ندرس في سلام طالما كنا بحاجة لذلك).

وعلى كل حال، فسريعًا ما انتابها القلق، وشعرت بواجبها للعمل من أجل سيدها «الباب». فكتبت مرة أخرى إلى الحاكم تخبره برحيلها إلى بغداد بانتظار الأوامر هناك.

قالت لها خورشيد محذرة: ـ (إنه لأمر خطير. لقد قامت مشاعر جموع العامة علينا، وسيقوم الغوغاء سريعًا للمشاركة في التظاهر ضدنا ومهاجمتنا، إذا حرضهم رجال الدين).

قالت الطاهرة وهي موطدة العزم: ـ (أعلم ذلك. ولكننا لا نستطيع البقاء هنا دون فعل شيء. لنا أصدقاء في بغداد سيساعدوننا. وقانتة قد أعدت ترتيبات السفر. فلنذهب).

وكالعادة.. خرجوا في أول الصباح، لم يكن هناك حراس لمنعهم. ومن الغريب أن انضمت إليهم عند بوابة المدينة، مجموعة من المسافرين وهم على ظهور دوابهم، بينهم والدة وأخت الملّا حسين بشروئي.

رحبت بهم الطاهرة قائلة: ـ (صديقاتي العزيزات، تغمرني السعادة لرغبتكن في صحبتي في رحلة قد تكون غير سعيدة. لنتقدم.. فعلينا اللحاق بالركب).

حاولت مجموعة من الغوغاء، منع مغادرة الإيرانيين بقذف الطاهرة وصاحبتيها خورشيد وقانتة بالحجارة بغية تعطيلهم عن السفر، فاخترقت إحدى الأحجار ستارة الهودج وأصابت وجهها.

فصاحت قانتة مرتعبة: ـ (أوه.. سيدتي.. وجهك الجميل! دعيني أمسحه بمرهم.. دعيني أوقف الركب).

فأجابتها الطاهرة وهي تتلمس مكان الورم: ـ (لا عليكِ، هذا ليس بالأمر الخطير. عودي إلى مكانك. على الإنسان أن لا يعير أهمية لكدمات صغيرة طالما وعد بتقديم حياته إذا اقتضى الأمر. ستشفى سريعًا).

الفصل الثامن

كان هودج الطاهرة آخر من غادر كربلاء، لكنه حالما تقرب الركب من بغداد، استحثت مركوبتها قدمًا، حتى لم يتبق أمامها سوى قائد الركب.

ظهرت منارات المدينة الفاخرة عالية أمامها في سماء المساء، ومن تحتها قبابها المحدبة، بينما انتشرت بيوت الطين في الأبعاد. كانت لا تعلم ماذا ينتظرها هناك، لكنها قررت إعلان رسالتها إلى رؤساء المدينة ولمسؤولي الامبراطورية العثمانية، ليتخذوا قرارهم؛ فعلى الأقل سيعلمون أسباب قيامها بزيارة المقامات المقدسة.

كانت والدة وأخت الملّا حسين، تركبان معًا هودجًا واحدًا بقي يتمايل ويترنح بجانبها طوال الطريق.

نادت الأخت «وارا» على الطاهرة وقالت: ـ (معلمتي.. أخجل التصريح، لكني خائفة حقيقةً من نتائج هذه الرحلة. ما الفائدة التي تتوقعين منها؟)

رفعت الطاهرة حجابها. فشاهدت بقية النسوة النور المتلألئ في عيونها الكبيرة المعبرة، ووضوح قوة الإخلاص لأمر «الباب»، وصلابة التصميم على التأثير في عقول الرجال بحقيقة ظهور القائم.

ثم تكلمت بصوت مرتج صلب مليء بتوهج حماسة تحذيرات زميلاتها: ـ

(أي فائدة..؟ فائدة نشر أمر الله. فائدة التقدم خطوة أخرى إلى أمام،

لتحرير النساء. أنا أرى هذا النور ـ رغم كون شرارته ضعيفة هذا الوقت ـ ستكون في المستقبل توهجًا عظيمًا من الحقيقة. لا أرى أي سبب للخوف. نحن مندوبون عن الشاب الشيرازي الطاهر الذي كان قدومه أكبر هدية إلهية).

ثم أكملت كلامها: ـ (آه يا وارا، لدينا الكثير مما نقدمه لأهل بغداد).

كان يبدو على وجهها الجميل، إرهاق الرحلة، لكنه مفعم بالحيوية والتقوى والقناعة.

ـ (لو علموا فقط، كم هي رسالتنا جميلة، لهرعوا راكضين للقائنا، غير قادرين على تحمل انتظار سماع الأخبار عن ‹الباب›، ولا عن المبجل الذي سيتبعه. نحن نقدم لهم علومه الإلهية وتفاسيره الرائعة، والسبيل إلى الحقيقة والمحبة. نحن نجلب للنساء التأكيد على إنهن يمتلكن أرواحًا مثل الرجال. لقد أعلن العظيم مساواتهن مع الرجال).

ـ (سأذكرهم أن النبي محمدًا قال: ‹إن لا إله إلا الله، ومحمد رسوله›. سأذكرهم أن النبي آمن بالسيد المسيح كرسول آخر من عند الله، كما فعل مع موسى، وبقية سلسلة الرسل والأنبياء الطويلة. وسأريهم كيف حرَّف رجال الدين كلمات النبي، مصرّين على أن يعيش الناس تحت مفاهيمهم الباهتة للقرآن، بدلًا من معاني كلمات الله الحقيقية).

ـ (لقد قال النبي محمد ـ كما ذكرت لكم مرارًا ـ أن هناك رسلًا سيتبعونه، كما تبع هو السيد المسيح. إن نبوءات المظهرين العظيمين موجودة في القرآن. وسأقتبس لعلماء بغداد، كلمات النبي بالضبط، لأثبت لهم، متى وأين يتحقق موعد ظهورهما، وما هي دلائل الوهيتهما؛ حتى بالدلائل المادية).

تنوّر وجه المرأة العجوز بنور البصيرة، وقالت: ـ (شددتِ من عزيمتي. لقد سبق وقدمتي لي كلمات القرآن تلك. وبسببك أنا مؤمنة الآن. أؤمن أن القائم قد ظهر؛ وأن المسيح قد عاد حسب النبوءات. سبحان الله على هذه الأحداث المباركة التي حصلت في زماننا!).

كانت وارا منخرطة في البكاء. وقالت منكسرة الخاطر وهي تعتذر: ـ (لا يمكنني التحمل. لست ثابتة الجأش مثلكما. ما زلت أتراجع وأسقط بين براثن الشكوك والخوف. ولكن لا تقلقي بشأني. فأنا أتعلم).

تبسمت الطاهرة وقالت: ـ (صلّي لله واطلبي منحك الشجاعة، فستحتاجينها، مثلما نحتاجها جميعًا. لقد وعدتُ الله أن أصرف كل طاقتي في إعلاء أمر (الباب) ومساعدة الآخرين ليصلوا إلى مفاهيم تفاسير نبوءات القرآن، كما قدمها الشيخ أحمد الإحسائي والسيد كاظم الرشتي).

تحت ضوء القمر، وصلت مجموعة البابيين المتعبة المنهكة عند بوابة منزل الشيخ محمد بن شبل العراقي. كان صديقًا للعديد منهن. وبعد استراحتهن، انضموا إليه ولعائلته لتناول عشاء لذيذ.

لم تطل الطاهرة جلوسها كثيرًا بعد العشاء، فاعتذرت منسحبة إلى جناحها من أجل فترتها المعتادة للصلاة والدعاء قبل خلودها للنوم. كانت تعلم في قلبها، أنها ستحتاج لكل قوى الإقناع حينما سيسمح لها بمقابلة حاكم المدينة، لو ضُمن حصول مثل هذه المقابلة. هنا في بغداد ستواجه مشاعر دينية راسخة وخرافات عميقة. فإذا كانت ستعرض قضيتها أمام هؤلاء الرجال، فعليها استعمال كل حجة تتحكم بها.

وبينما هي منحنية على سجادتها، وصل سمعها تغريد بلبل في الحديقة

خلف نوافذ غرفتها. فعادت أفكارها تهيم بها إلى قزوين، من حيث جاءت، بلبل، يغني وحيدًا في أرض غريبة. فكرت بهذا المخلوق الصغير في ضوء القمر. هل هو خائف؟ هل لديه ما يخشاه؟ ما هي فكرة أغنيته؟

امتلأ عقلها بملاحظات عذبة.. لذيذة.. نقية. وأغلقت عينها ثم استسلمت للنوم..

كانت لمسات أصابع قانتة اللطيفة هي التي أوقظتها.

مرت عدة أيام راحة هادئة، كان خلالها البابيون يتدارسون ويتعبدون معا، ويعدون أنفسهم للأيام القادمة، مهما ستحمله معها.

وجاءت الأوامر من حاكم بغداد تقضي بعدم بقائهم في بيت صديقهم الشيخ محمد بن شبل، ونقلهم إلى بيت المفتي والكاتب الشهير سيد محمود الآلوسي، ابن رئيس محكمة بغداد المتهور القاسي. ويستمر بقاؤهم هناك حتى تأتي أوامر حكومة الباب العالي من استنبول بخصوص موضوع إقامة الطاهرة في البلاد.

لم تضع الشابة المبشِّرة وقتًا في تقديم نفسها أمام المتبصّر، المفتي الشاب اللطيف، فقد كان هو نفسه مؤلف ومحامٍ في الوقت نفسه. لقد وجدته جاهزًا، بل متعطشًا، للسماع عن شأن ‹الباب› ورسالته. وتكلمت معه بشكل مطول وهي ترتدي حجابها؛ وازداد صوتها قوة حينما ذكرت حادثة رؤياها للموعود ومنحها منزلة حرفٍ من حروف الحيّ.

في الختام، قالت: ـ (لم آت كعدو، يضمر العداء في صدره. بل جئت كصديق أحمل هدية ثمينة، هدية العلم بهذا الظهور، عودة القائم، الروح الطاهرة التي طالما أخبر عنها القران).

كانت البابيات يجلسن حولها متحيرات من فصاحتها وقوة بياناتها، لا يعرفن كيف ستكون ردة فعل هذا الشاب المعتد بنفسه.

شعرت النسوة بالانفراج وتنفسن الصعداء، حينما أدركن أن الرجل الجالس أمامهن ليس بشخص عدائي. حيث جلس يتعلم لفترة طويلة برأس منحنٍ وعينين نصف مغلقان وحالة إنصات عميقة. أخيرًا.. رفع رأسه وفتح عينيه ينظر إلى بساطة شادور المرأة الشابة بعد أن سحره واستفزه صوتها وحمله على تغيير رأيه، فقال بصوت متقطع أدهش الحاضرات: -

(يا طاهرة! أقسم بالله أني أشاركك الإيمان، لكني أخشى سيوف الجهلة الغوغاء.[1] أبقي كضيفة في بيتي، حتى يأتي الأمر من الباشا ومن الحكومة المركزية، ولكن لا تكوني متفائلة كثيرًا. فأنا أعرف قومي جيدًا، فأنتِ بالنسبة لهم مهرطقة، بل أسوأ! أنتِ امرأة كافرة. امرأة تنشر تعاليم عقيدة جديدة. ولن يسامحك إلا القليل منهم لجسارتكِ. أما بالنسبة لي... جنابكم.. فأنا أنحني لمنطقكِ، وبلاغتك، ولعشقكِ وإخلاصكِ للأمر الذي نذرتِ نفسك لإعلاء شأنه، ولمن تسميه (القائم الموعود)، قائم النبوة، أظنه سيفرحه جدًا خبر تبوأكِ مقامًا عليًا في نشر أمره).

في هذه الأثناء، حضر خادم ووقف عند الباب. فاستفسر المفتي عما وراءه.

- (سيدي.. هنالك وفد من الرجال في الخارج يرغبون في مقابلة النسوة البابيات).

---

(1) - جاءت هذه العبارة في كتاب آخر: (لكني أخشى سيوف آل عثمان). («مقالة سائح»، الحاشية كيو، الصفحة 310).

كانت عينا المفتي حزينة حينما التفت إلى ضيفاته يسألهن: -

(هل تودون مقابلتهم الآن؟ إذا كنتم تفضلون الراحة، فسأصرفهم إلى موعد آخر. لا بد أنكن متعبات بعد حديثنا الطويل).

قالت الطاهرة: - (نشكرك يا صديقنا اللطيف، لكني أود رؤيتهم حالًا. فهل يمكنك التواجد معنا في الغرفة؟)

قليلًا من الوقت، ودخل رجال دين بأزياء مختلفة، يرتدي غالبيتهم جببًا وعمائم، ليملأوا الغرفة بشكل مهيب، وعلى وجوههم السمراء تبدو معالم الكراهية والاعتراض المسبقة. كان غالبيتهم شيوخًا في أواخر أعمارهم، وجميعهم كانوا من قادة أديانهم ومذاهبهم المحترمة.[1]

أخذت الطاهرة رأس خيط المبادرة، وقالت: -

(أيكم سيبدأ بالكلام والتحقيق)؟

التفتت العيون نحو رجل كبير السن بلحية وشارب مصبوغين بلون الحناء الأحمر بشكل سيء. فتكلم بنبرة ممتعضة وتهكّم بادٍ على وجهه.

- (أنتِ جئتِ إلى هنا من كربلاء)؟

- (نعـم).

- (أنتِ المرأة التي تسببت بالقلاقل هناك مستهينة بتقاليد الناس)؟

- (أية قلاقل تشير إليها)؟

- (خلال الاحتفال بذكرى استشهاد الحسين، ألم تصرّي على الاحتفال بمناسبة أخرى)؟

---

(1) - يهود، مسيحيين ومسلمين.

ـ (إن مناسبة مولد السيد علي محمد الشيرازي، «الباب»، الذي ظهر لينير لنا طريق الحق، تقع في اليوم الأول من شهر محرم. ورغبنا الاحتفال بقدومه إلى هذا العالم المادي).

ـ (أنتِ تعترفين إذًا! وألم تتركي طقوس العزاء جانبًا، وترتدي ملابس احتفال بألوان بهيجة، وشجعتي نساء عائلتك الأخريات ليفعلن بالمثل؟)

أجابت الطاهرة بهدوء: ـ (لا يلبس المرء ملابس حداد، حينما يكون جذلًا فرحًا بظهور الموعود. فملابسنا تظهر ما نشعر به من سعادة).

شخر المسن بطريقة غير مهذبة، واستدار بوجه غاضبًا محتقنًا إلى جماعته، وقال: ـ (لاحظوا! هذا هو النوع من النساء هي. إنها مخربة للعادات، محتقرة للتقاليد.. جسورة، وقحة، شرسة وملحدة).

ظهرت على الحاضرين أيضًا علامات الانزعاج وعدم الارتياح.

قال المفتي مخاطبًا الطاهرة: ـ (أعتقد.. أن هؤلاء السادة العلماء قد يرغبون بسماع ما عندكِ لتقولي بخصوص بداية هذا الأمر الذي تناصرينه. هل تمانعين بسرد ما سبق وأخبرتني به؟)

وبممنونية، اغتنمت الطاهرة هذه الفرصة، متخلية عن كل خوف أو حذر مقابل متعة سرد تاريخ تعاليم الشيخ أحمد، بإسناد كلمات القرآن. وبقدرة كاملة رتلت غوامض الآيات، وبتألق شرحت بداية الدين الذي تعرفه بدقة متناهية، لدرجة وكأنهم استسلموا لنوم مغناطيسي. وبعناية.. أظهرت لهم كيف أن الملالي يشددون على التمسك بالتقاليد، بينما يقللون على الدوام من حقيقة معاني ما قاله النبي محمد من نبوءات.

كان يكفي طرح سؤال عابرٍ لتحفيزها إلى مزيد من البيانات عن المعاني الخفية لكلمات النبي محمد، وعن وحي (الباب) الذي كان ظهوره تحقيقًا لنبوءات النبي.

كان ذلك قبل أن يقطع الشيخ المسن حالة الإصغاء بحركة من يده. وقال مزمجرًا: ـ

(كفاية..! لا يجب الثقة بهذه المرأة. إن غايتها تقويض كل ما نعتبره مقدسًا. أي حق تملكه امرأة لتأخذ على عاتقها واجبات رجال محترمين؟ هل هي ملّا؟ هل تنوي نسيان جنسها؟ أم.. إنها تركّز على أمور شائنة لإثارة نسائنا لاتباع خطواتها)؟

فقال أحدهم: ـ (استغفر الله!).

قفز أحد الملالي الشباب ليقف عند باب الغرفة. ويقول: ـ (سيخلعون الحجاب لاحقًا، كما قيل أنها فعلت في مناسبات سابقة).

ثم.. وقف الجميع وقفة واحدة، يخشون فكرة خلع حجابها ورؤية وجهها الذي سيؤدي بهم إلى محنة أخلاقية. فلقد كانت هناك متعة خفيّة في عقولهم لمجرد رؤية وجهها الجميل ـ فقد وصلهم خبر جمالها الأخاذ ـ وأن لها صوتًا يأسر الألباب، فقسمات وجهها وملامحه الدقيقة، مثيرة للدهشة. كانت لطيفة ومقنعة.. هادئة وذات كرامة.. نابضة بالحياة والنشاط، ولها قدرة في بيان خطابها. لهذا أداروا رؤوسهم عنها نحو بقية البابيات.

ثم، فجأة.. ألقى الجمع تحيتهم على المفتي وغادروا المكان.

قال المفتي: ـ (كما كنت أخشى وتوقعت.. إنهم لا يستمعون، إلا لما يدينك من كلام يا طاهرة).

سألته بلهفة: ـ (هل سيسمحون لي بالتدريس هنا، كما كنت أفعل في كربلاء؟)

هزَّ المفتي رأسه ببطء، وقال: ـ (أشك في ذلك، وأتمنى أن أكون مخطئًا، ولكن.. سننتظر ونرى. من المحتمل أن يُسمح لكِ في البقاء هنا في بيتي، فلديَّ الكثير لمناقشته معك. فلنستغل ما نملكه من الوقت جيدًا. ستكون هناك مطالب كثيرة من الرجال لسماعك لاحقًا، كما هو الحال مع النساء، هذا إذا سُمح لكِ بالكلام أصلًا... لكن لا شك أنكِ وصاحباتك متعبات الآن، فهل ترغبين بالراحة؟)

ردت عليه الطاهرة بطريقة مؤدبة، وهي تحني رأسها احترامًا لجماعتها: ـ

(أنا لست تعبة، وسأستأذن صاحباتي لاستمرار نقاشنا).

انتظر المفتي مغادرة البابيات للغرفة، ثم جلس على أريكة طويلة منخفضة مريحة قرب المعلمة المحجبة. ومال برأسه نحوها، وقال: ـ (إذا لم يكن لدى جنابكِ ما يمنع، أحب أن أعرف شيئًا عنكِ. كيف لابنة من أصل كريم، أن تهتم وتمنح كل هذا العشق لهذا ‹الشخص›؟ ما هو موقف والدك وبقية رجال عائلتك تجاه الذي تلحين بإصرار أنه ظهر، وكذلك عن ‹الآخر› الذي سيتبعه؟)

ارتسمت على الوجه الشاب ابتسامة مضيئة، وهو يرفع كتفيه ويمد يديه على حافة الأريكة وراحتيه إلى الأعلى.

ـ (أحب أن أعرف أي شيء تودين قوله).

كانت هذه هي المرة الأولى التي يطلب منها الكلام عن نفسها، فترددت الطاهرة قليلًا قبل أن تبدأ. فتنهدت بهدوء، وقالت: ـ

(كان ذلك منذ زمن بعيد حينما كنت صبية صغيرة في مكتبة والدي أرضع العلوم مثل قطة على جدار تستقبل أشعة الشمس. وتلقائيًا بدأت أحب بشكل خاص، سماع ترتيل آيات القرآن، كما علمني والدي ومعلمي الشيخ المحبوب. إن لدي دائمًا ذاكرة غير عادية. وحفظت عن ظهر قلب كل ما درسته، وسرعان ما أصبحت مثل مكتبة متحركة. كذلك فهرست في عقلي بشكل منظم جميع هذه المعارف قدر استطاعتي، حتى يمكنني ساعة ما أشاء تصحيح أخطاء الآخرين ممن لديهم ذاكرة أقل كفاءة. فبإمكاني الإشارة فورًا إلى أي فقرة لدحض أي ادعاء زائف).

هنا.. صدرت منها ضحكة عذبة، ثم أكملت حديثها: ـ

(لم يعجب الملالي هذا الحال اطلاقًا، حينما سمح لي والدي بالجلوس أول مرة خلف الستارة، ثم تشجيعه لرفع صوتي الأنثوي بعد ذلك والإشارة لهم للصفحات والأسطر المطلوبة، وهذا ما كان يقطع عليهم أحاديثهم).

هنا، ضحك المفتي، وقال: ـ

(يمكنني تصور مقدار انزعاجهم... و.. هل صحيح أنكِ تزوجتِ ولد الحاج ملّا تقي البارقاني الشهير)؟

ـ (نعم.. هذا صحيح. فالملّا تقي هو شقيق والدي. ولكني لا أحبذ الكلام عنه، ولا عن أولادي الأعزاء الثلاثة. دعني أقول فقط: فبعد أن

أصبحت الحياة في بيت العم تقي غير محتملة، ذهبت إلى كربلاء للدراسة تحت يد السيد كاظم، بعدما كتب لي رسائل مشجعة. ومع الأسف، فلقد توفي قبل وصولي بعشرة أيام. وبالطبع كنت قد اقتنعت بحقيقة معتقداته التي تبناها).

راح المفتي يحثها على الكلام، ويقول: ـ (والتي هي..؟)

ـ (إن موعد مجيء الموعود قريب على الأبواب. وأنه سيكون هناك ظهوران روحانيان مقدسان. الأول ـ (الباب) ـ الذي سيبشر عن مجيء «من يظهره الله»).

ـ وهل تعتقدين أن هذا الشخص الذي تدعينه (الباب) قد جاء؟

ـ آه يا صديقي الطيب! نعم لقد ظهر! إنه عودة القائم. عودة المسيح. شاب طاهر مقدس أصغر مني بسنتين.

فالتفت إليها مقطبًا: ـ (إذن.. فلقد رأيته؟)

لطفت عباراتها وقالت: ـ

(لا.. ليس جسديًا. فقط بالرؤيا. هيكلًا رائعًا. لقد انحنى وصلى. ثم صحوت، وتذكرت الدعاء وكتبته. وبعدها أعلنت إيماني به في رسالة كتبتها له، حيث سلمها له زوج أختي في شيراز، وقَبَلَني كأحد أتباعه، الحرف السابع عشر من حروف الحيّ، وعلى الفور أصبحنا ثمانية عشر، ومعه نكون تسعة عشر. لقد أرسل لي أحد ألواحه، تصوّر كم هي مبهجة. نعم، مدهشة، لقد وجدت فيها ذات كلمات الدعاء التي سمعتها في رؤياي!).

ـ وتؤمنين أنه سيكون هناك ظهور إلهي آخر؟

ـ نعم، بكل قلبي وعقلي. فهكذا كتب في القران، لأولئك الذين ينظرون كلماته ببصيرة روحانية.

تفرّس المفتي مركزًا نظره على الهيكل الصغير المحترم القريب منه، وقال أخيرًا: ـ

ـ (أنتِ امرأة جليلة. لم أتعرف على شخص مثلك. وطالما أنتِ في منزلي، لك مطلق الحرية للكلام مع من تشائين، علّمي أولئك الذي يرغبون بالتعلّم. بركاتي عليكِ، وعسى الله أن يحرسكِ).

وهكذا.. مرة أخرى عاودت الطاهرة عملها المحبب في نشر رسالة (الباب) و«من سيظهره الله». كانت الغرفة التي تعلّم فيها، تمتلئ بالمستمعين بالتدريج مع مرور الوقت، حتى راحت تطفح بجموع المهتمين الجادين، وهم مأسورون بتعاليم هذه السيدة ذات الصوت الفضيّ من قزوين.

أخبرتها صديقتها المقربة (خورشيد بكم) بلطف، وقالت: ـ (أنتِ لا تعطين نفسك وقتًا كافيًا للراحة، وتسخّرين طاقة كبيرة لمهمة تعليمك، ولا تمنحين نفسك وقتًا لاستعادة طاقتك، وأخشى عليكِ الانهيار من الإرهاق).

كانت والدة الملّا حسين بشروئي، الذي يسميه البابيون «باب الباب»، لأنه كان أول حروف الحيّ الذي عُين من قِبل (الباب)، غالبًا ما تجلب الطعام لمعلمتها المحبوبة مع كوب من الشاي، عازمة ـ كما هو حال بقية أتباعها ـ في المحافظة على صحتها وقوتها.

كل صباح.. كانت الطاهرة تنهض باكرًا، لتستحم ثم ترتدي ملابسها،

وتصلي لمدة طويلة، وغالبًا ما تصلي على سطح البيت، حتى تراقب شروق الشمس وتسمع زقزقة العصافير وتغريد البلابل.

قال المفتي لمخالفيه الرأي من الذين كانوا ينتظرون أوامر ترحيلها من العراق بفارغ الصبر: ـ (أنا لم أشاهد خلال حياتي أبدًا امرأة بهذه العفّة. ولا أجد لديها أي خطأ. إنها جميلة، لطيفة، محبوبة، وعاشقة تمامًا لأمر (الباب). ولم أرَ مثل هذه الشجاعة! وهذه المعارف لعميق المعاني الحقيقية أبدًا! لقد تشرَّف منزلي بحضورها. وحينما تغادر، سأكون قد فقدت من حياتي جمالًا وروعة حقيقيين).

بالفعل.. لقد اتفق العديد من معجبي الطاهرة أن حضورها الشخصي يبقى متعلقًا في الأذهان والذاكرة مثل عطر استثنائي نادر.

كان الأصدقاء، غالبًا ما يحضرون من كربلاء للاستماع إليها، فتعلقهم بها وبدينها بقي في ازدياد مستمر، مثلما هو حال قوتها وفصاحتها. وقال بعضهم مستغربًا للقوة التي تظهرها في تقديم معتقدات الدين البابي الجديد: ـ (عندما سمعناها لأول مرة في كربلاء، كانت ساحرة، قوية، شابة. أما الآن.. فلقد تغيرت، فهي تتكلم بنكهة وثقة عالية، مدركة لقوتها).

تسببت كثرة محاضراتها وتزايد أعداد مستمعيها القادمين من مختلف أرجاء المدينة وبقية البلاد، في زيادة مشاعر السخط والخطر بين العلماء ورجال الدين، وكان الأكثر غضبًا هم مشاهير الملالي. لم يقتصر غضبهم عليها فقط، بل على جميع المستمعين لها.

وقبل أن يحتدم الغضب وينفجر بين القادة الدينيين، اهتم المفتي ابن الآلوسي بسلامة ضيفته وأتباعها. فقدم اقتراحه إلى الطاهرة بأدب جمّ: ـ

(قد يكون من الحكمة تأجيل دروسكِ لبعض الوقت. في الحقيقة أنا أتفهم وأعلم، إن العلماء يطالبون باتخاذ مثل هذه الخطوات لإيقافك).

سألته الطاهرة: ـ (لماذا؟ وما هي الأسباب التي يقدمونها؟)

ـ (إنهم يحذرون من خطر الزندقة والإلحاد في إفساد العقول والأخلاق. إنهم غاضبون بسبب استماع الكثير من نسائنا لكِ، وحملهن العديد مما تقدمينه لهن من أفكارٍ تشجيعية إلى بيوتهن. أنت أول من يتكلم عن المساواة بين الجنسين في بلدنا. وكما تلاحظين إن أولئك الذين أخبروا النساء، أن ليس لهن أرواح، وهنَّ أدنى درجة من الماشية، يشاهدون تهدّم قلاع ما بنوه).

ثم تبسم بحزن خفيف، وقال: ـ

(وقد يكون خوفهم من بروز نهضة نسائية؛ لذلك يفكرون بتحطيمها من خلال إبعادك عن هنا).

أوضحت المعلمة بصوت مفعم بالقناع: ـ

(يوما ما... ستتنزل قوانين جديدة، وستكون النساء أكثر من دمى جميلة. أتمنى تقديم حياتي لتأكيد ضمان مجيء هذا اليوم الرائع لأخواتي).

اهتز المفتي لما سمعه، وقال: ـ

(لا سمح الله، ليبارك الله بحياتك).

قالت الطاهرة: ـ (ليأتني هؤلاء الملالي والعلماء، ودعهم يناقشون الأمر الذي أنشره. إنهم لا يعلمون شيئًا عنه، ومع ذلك يصمّون آذانهم عن أخباره. هذا الأمر مفعم بحيوية خطة إلهية جديدة لتقدم روحانية الجنس

البشري. دعهم يثبتون بهتان دلائلي! لن يستطيعوا! فالحقائق التي أقولها، كما نزلت من فم (الباب) المبارك، لن يفندها منطقهم مهما تذاكوا).

تنهد المفتي وقال: ـ (لقد دعوتهم مرارًا. لكنهم يرفضون الحضور. وعلى كل حال، ستقول الحكومة كلمتها قريبًا. وأخشى أن لا تسعدنا الأخبار).

***

مضى على تواجد الطاهرة في بغداد ثلاثة شهور، عندما جاء والد المفتي، رئيس محكمة بغداد ليوصل أمر الحكومة شخصيًا.

ذات مساء.. اندفع رجل عجوز داخل غرفة الجلوس، حيث كان المفتي حاضرًا بين ضيوفه، فدار الشيخ نظره بينهم بعيون تملؤها الكراهية، متجاهلًا الطاهرة وكأنها لم تكن حاضرة، وانبرى نحو ولده، يكلمه بصوت يضطرم بانفعالات هائجة تملأ عقله: ـ

(هذه المرأة التي تأويها هنا، يجب مغادرتها بغداد. فورًا..! هل تفهم يا ولدي؟ حالًا..! لقد وصل الأمر من استنبول. لقد ضمن السلطان حريتها بكرم بالغ، لكنه أمر بمغادرتها الأراضي التركية. اجعلها تبدأ بترتيبات مغادرتها).

نهضت الطاهرة لتقف برأس منحنٍ ويدين مضمومتين إلى أمامها في حالة أدب واستسلام. وقالت: ـ (شكرًا لك لجلب الرسالة).

التفت الرجل العجوز نحوها مزمجرًا والدم يتصاعد إلى وجهه وعينيه تتوهجان، وقال: ـ

(لا تتكلمي معي! أيتها المهرطقة الفاحشة! مفسدة النساء! أنتم الإيرانيين مثيرو فتن..! ارحلي.. ارحلي، قبل أن تنالي جزاء رأسك الأحمق).

ثم استدار ليندفع خارج الغرفة، بينما بقي الجميع في حالة تعجب، يلفّهم الصمت.

انبرى بعدها المفتي ليقول: -

(أنا خجلٌ من والدي، لأنه شتمك! أنتِ..! الزكية الطاهرة. مكسورة الجناح. اعذريني لأني سمحت له بالتحدث معكِ بهذا الأسلوب. لا أكاد أصدق أذني. فقبل أن أستجمع حواسي، كانت الكلمات قد قيلت).

- (أنا أسامحك ووالدك أيضًا. إنه كبير السن، ويخشى النظر إلى الحقيقة الجديدة. من الجيد أن أكون حرة، فهذا يعني أن باستطاعتي الاستمرار في عملي، على الأقل لفترة قليلة. لقد كنتَ كريمًا معنا، ومضيفًا متعقلًا. أشكرك من قبلي ونيابة عن رفيقاتي وأدعو لك بالسعادة... سأكون مستعدة للمغادرة حالما أجمع حاجياتي).

- (لا.. رجاء.. لا تذهبي هكذا في وسط الليل. استريحي هذه الليلة. سآمر بنفسي بحراس وخيول. لابد من حمايتك، فلن يكون هناك هذه المرة، رجمُ حجارة حينما تغادرين بغداد).

قالت الطاهرة: - (قلبي طافح بكلمات الشكر والامتنان لكَ في هذه اللحظات. محتمل أن أراك في الصباح..).

قال المفتي: - (سأكون هناك لوداعكم).

مرة أخرى في باكورة الصباح، تجهزت الطاهرة ورفيقاتها للرحيل. خورشيد بكم، ووالدة وأخت الملّا حسين، ومؤمن جديد اسمه «الملّا إبراهيم المحلاتي»، كانوا ضمن الإيرانيين. والشيخ العربي «محمد شبل»،

وولده، قررا الذهاب معهم لترتيب طعامهم واحتياجاتهم الأخرى خلال الرحلة من بغداد إلى الحدود الإيرانية. وكان ضمن الحاضرين في الباحة أيضًا، أصدقاء آخرون من العرب، استعدوا للسفر مع القافلة على عجل، لضمان سلامة أصدقائهم «البابيين» الجدد.

ساعد المفتي الطاهرة بنفسه على استقلال هودجها. ثم رفع عينيه نحوها ينظر إلى ضيفته المسافرة، وقال: ـ

(أرسل معكِ عشرة فرسان تحت إمرة جنرال لحراستك إلى خانقين. لا تقلقي لأمر سلامتك، أيتها اللامعة الشهيرة).

لقد تعلم أن يحبها، إن لم يكن لحضورها المادي، فعلى الأقل لروعة وثراء عقلها.

ـ (لا أجد كلمات مناسبة لوداعكِ، ولكن كل ما أقوله، ليحميكِ الله دائمًا).

كانت مقلتا الطاهرة تمتلئان بالدموع وهي تراقبه يبتعد بهدوء.

ثم.. بدأت المجموعة حركتها. كانت أجراس البغال تقرع وتصلصل في صمت ذلك الوقت المبكر، فتذكرت مغادرتها لبيتها في قزوين قبل أكثر من ثلاث سنوات.

فكرت بوالديها، أطفالها، إخوتها، عمّها الحبيب الملّا علي وأختها النشيطة مرضية، ثم تنهدت. سيكون من الجيد رؤيتهم مرة أخرى، والانطواء في ذلك البيت وذلك الأمان الذي عرفته منذ ولادتها. لكن فكرة مزعجة داهمتها عن زوجها، عينيه المتقاربتين، شفتيه البغيضتين، كلماته الغاضبة ويديه القاسيتين، كل ذلك مسح آثار سعادتها. محمد ووالده العم

تقي، لا يعرفان البهجة والفرح. لقد كرها كل ما رغبت به.. وكل ما يمكنها الاعتماد عليه. لم يتغيرا منذ مغادرتها.

وبإصرار، أبعدت عنها هذه الأفكار القديمة.

وتذكرت: لي أصدقاء جيدون في كرمنشاه. سيكونون سعداء لرؤيتي. سيرغبون بسماع التعاليم. عليّ بترتيب أفكاري والاستعداد لاستقبالهم ببشارات الموعود. فمن أجله أفعل كل هذا. فأنا حواريته. هذا ما أفعله له. لن أنسى هذه الحقيقة المبهجة.

لم تكن على علم أن خبر طردها من بغداد، قد سبقها إلى علماء كرمنشاه. وحتى هناك، كان أعداؤها يتدبرون سبل التضييق والتآمر عليها وعلى أتباعها المؤمنين.

كان يوم المغادرة جميلًا. رفعت المعلمة عينيها تنظر إلى الغيوم المنتشرة وهي تتحرك في قبة السماء، وتمتع نفسها بالنظر إلى مناظر الطبيعة البرية، بينما بغلتها البيضاء تمشي بهدوء، تختار طريقها فوق الأماكن الوعرة.

الفصل التاسع

حالما تخطت القافلة الحدود، عائدة لأرض الوطن، حتى شعر أعضاء جماعة الطاهرة الإيرانيين بانخفاض معدل المعارضة والخطر.

اندفع الناس في مدينة كرند الصغيرة، خارجين من الأكواخ الطينية يسألونها إخبارهم شيئًا عن البابية وأن تتلو عليهم كلمات معلمها البابي. كان الإقبال عظيمًا لدرجة أن الغرف في أحد الخانات التي نزل فيها المسافرون داخل المدينة، امتلأت عن آخرها بالمتزاحمين الراغبين في السماع، مما اقتضى على المسافرين المتعبين، الاضطرار للبقاء عدة أيام حتى يتمكن غالبية الناس المتعطشين سماع تعاليم الطاهرة.

لم يكن أن اجتمع حولها مثل هذا العدد الضخم من الحضور في أي مكان من قبل، وهذا ما أسرها، لكنها كانت حكيمة جدًا وذات نظر ثاقب ولم يخدعها هذا الانتصار المؤقت.

تمتم أحد رفاقها متنهدًا بسعادة: ـ (يبدو أن مشاكلنا في طريقها إلى الحل. ومن المحتمل الآن، أن نقلل من سرعتنا وقلقنا. فممن سنخاف طالما كل هذه الجموع معنا؟)

أسكت صوت الطاهرة الحيوي هذا المتفائل. وقالت له: ـ (سبق وكتب الشيخ أحمد عن هذه الأحداث: «مثلما هو ضروري إعداد الأرض لبناء

بيت، كذلك هو الحال مع هذا الظهور، أن تكون اللحظة ملائمة). إذ يقتضي الأمر لهذا الظهور ترتيب الأساسات.) وكتب الشيخ أحمد أيضًا: ((صلّوا أن لا تعيشوا في بداية زمن الظهور والعَود، فسيكون هناك الكثير من الحروب الأهلية... ستشاهدون أمورًا عجيبة..) ومع ذلك، لدينا وقت قليل لنستعد للوقت الذي أشار إليه. دعنا أن لا نبتهج مبكرًا للانتصار.)

عندما انتهت فترة إقامتهم في مدينة كرند، واستعدوا للرحيل إلى مدينة كرمنشاه، تبعهم أكثر من ألف رجل خلال أبواب المدينة.

قال الملّا إبراهيم المحلاتي بقلق: - (إنهم يصرون على مرافقتك. هل تستصوبين ذلك؟ هل تريدين أن أعيدهم؟)

- (لا... سأفعل ذلك بنفسي).

فطلبت من جماعتها الاستمرار في طريقهم، وعادت هي أدراجها لوحدها على بغلتها البيضاء.

كانت الجموع تصرخ راجية عدم تركهم، والسماح لهم بمرافقتها ومشاركتها أفراحها وأتراحها حيث تذهب، وأحاطوا بها وأيديهم مرتفعة وأصواتهم صاخبة تصمّ أذنيها.

توقفت الجلبة حالما بدأت الكلام.

- (اسمعوا أيها المخلصون. ليعد كل منكم إلى بيته، وقدموا للآخرين الرسالة التي جئتكم بها، كلٌّ حسب طريقته. فكل واحد منكم - رجالا ونساءً - هو مبشّرٌ (للباب) المبارك، أحبوا جيرانكم وأخبروهم عن الأمر. عودوا إلى منازلكم. سأبقى هنا أصلي طلبًا لاستنارة قلوبكم).

وبهدوء.. بدأت الجموع بالعودة، يمشون برؤوس منحنية وعيون دامعة. ولم تترك الطاهرة مكانها لتلتحق بجماعتها حتى استجاب آخر فرد منهم لأمرها وعاد أدراجه.

في كرمنشاه أيضًا.. فحالما سمع السكان بقدومها، خرجوا للترحيب بها وبأصحابها بحرارة كبيرة، وكان بينهم أمراء وعلماء وموظفو حكومة أسرعوا للقائها. كانوا متأثرين جدًا ببلاغتها وشجاعتها وسعة علومها وقوة منطقها وصفاتها المثالية.

في هذه المدينة، قرأت الطاهرة علنًا على الناس، ترجمتها لتفسير سورة من القرآن، نزلت من قلم «الباب».

كان حاكم كرمنشاه وزوجته ضمن الذين سمعوا تفسيرها للتعاليم المقدسة، وأعلنا محبتهم للطاهرة وللحقائق التي توضحها.

وعلى الفور، رفعت الفتنة رأسها بتحريض بعض العلماء من الذين شعروا بتهديد سلطتهم، عارفين جيدًا أن بانتشار هذه المبادئ، ستزول سطوتهم. لذا فلن يستسلموا دون مقاومة، خصوصًا لامرأة.

حينما علمت الطاهرة بخبر هذه المعارضة، اغتنمت الفرصة وأسرعت لتبليغ جموع المتعطشين علنًا، بعدما ملأوا ساحة المدينة العامة.

وهكذا وقفت في ذلك اليوم الغائم والرياح تداعب حجابها وشادورها الفضفاض، مثل علمٍ أبيض خفّاق.

كان منظر نحافة وأناقة هيكل الطاهرة المنمنم ولطافة صوتها، وعباءتها التي تتلاعب الرياح بها؛ قد أدهش بعض الحضور، فقد كانوا يتوقعونها امرأة أسطورية بجسد ضخم.

وحالما سمعوا منطقها العجيب، لم يتركوها تبتعد عنهم، وصرخوا: -

(أخبرينا أكثر).

تحركت خورشيد بكم إلى جانبها، ترجوها.

- (جنابكم.. رجاءً! طالما لم يكتفوا من بيانات الرسالة الإلهية، فتوقفي قليلا عن الخطابة. فبانتظارك طعام وشاي ساخن. وفي رأيي أن تخلدي لسريرك قليلًا لترتاحي بعض الوقت).

لم تنتبه الطاهرة لمقدار تعب جسدها، إلا بعدما انتهت من خطبتها ودخلت البيت المعد لراحتها وللسيدات القائمات على خدمتها. وحينما حلَّ الظلام، سمحت لنفسها بدخول سريرها مثل طفل صغير تحت رعاية صديقتها المحترمة وقانتة.

صحت بعد عدة ساعات لتسمع صراخ حشود غاضبة. ثم كان هناك طرق شديد على الباب وصوت الملّا إبراهيم يصيح: -

(اسرعوا.. اسرعوا.. يا سيدات! ارتدوا ملابسكن وتجهزوا لمغادرة هذا البيت. فالحشود تتجمع. لقد سمح رئيس البلدية للعلماء بإثارة الغوغاء لنهبنا وسلبنا... تعالوا من الطريق الخلفي. سأكون وبقية الرجال بانتظاركن).

حينما لاحظت النسوة شدة التحذير، التقطن ما استطعن حمله من حاجياتهن الخفيفة وركضن باستعجال كبير. فقادهم الرجال من خلال طرق ضيقة ملتوية إلى مكان الاسطبلات التي تركوا فيها خيولهم.

لكن.. لم يجدوا هناك خيول. لقد سرقت جميعًا. واختفت الهوادج. لم يكن هناك شيء. فأصبحوا تحت رحمة الغوغاء لا يلوون حراكًا.

في تلك الأثناء، وهم وقوف مجتمعون يتدبرون طريقة خروجهم من المدينة، شاهدوا ضوء فانوس يتحرك وعربات تقترب نحوهم. وارتفع صوت من بينها: -

(اركبوا.. اركبوا.. سنأخذكم بسلام إلى خارج المدينة).

لم يكن أمامهم خيار. كان هناك جنون يعمّ المدينة، وباستطاعتهم سماع قبيح شتائم الغوغاء ولعنات الناهبين؛ فأسرعوا يتكدسون على عجل داخل العربات المتضعضعة، ومع قعقعة العجلات وخشخشة العربات فوق أخاديد وحفر الطريق، راح السواقون يحثون خيولهم ويجلدونها للمرور من أبواب المدينة.

أما أولئك الذين كانوا قبل ساعات قليلة، يستمعون للخطيبة المنورة، صامتين منتشين طربًا، فمن الواضح أنهم الآن يرتعدون خوفًا ورعبًا، لائذين داخل بيوتهم الطينية.

تساءلت الطاهرة هامسة: - (والآن إلى أين.. والآن إلى أين؟)

لم يكن هناك جواب مطمئن.

بعد مرور ساعة، توقفت عربتها، وأمرهم السائق بالترجّل مع مرافقيها. فامتثلوا، بينما رياح الصحراء تضرب أثواب النساء ولثامَهُنّ، والنجوم تلمع فوق الرؤوس، يحيط بهم فضاء موحش من جميع الجهات.

وإذا بقائد عربتها يعود ليحثَّ خيوله على الحركة مبتعدًا، لكن الملّا إبراهيم وبقية رجال المجموعة أسرعوا للإمساك بأعنة خيوله ووقفها. وهم يقولون له: -

(لا يمكنك تركنا هنا واقفين في هذا العراء، نحن رجال مسالمون، لكننا لن نسمح لك بمعاملة معلمتنا المحبوبة وبقية النسوة بمثل هذه الطريقة المهينة).

ـ (دعنا نأخذ الخيول. واحتفظوا أنتم بالعربات).

عارض رجال كرمنشاه الاقتراح وبدأوا يتفاوضون. لكنهم وافقوا في النهاية. فالدواب توفر على الأقل ملتجئًا لهم بطريقة ما.

وما إن انفصلت الخيول عن عرباتها، حتى نادت الطاهرة على متطوع للعودة إلى المدينة برسالة منها إلى الحاكم.

كتبت: ـ (لقد كنا ضيوفك، فهل من الرحمة والعدل معاملتنا بهذه الطريقة؟ ليس معنا أغطية، ولا طعام، ولا غيارات ملابس. ألست خجلًا من نفسك؟)

استغرب الحاكم مما جرى عند استلامه الرسالة، وغضب بشدة. ثم أرسل خلف العمدة يأمره بإعادة جميع المسروقات إلى البابيين، والتأكد من وصولهم إلى همدان سالمين.

كتب: ـ (أرجو المعذرة، ليس لي علم بما حصل لكم. عودوا لتكونوا في ضيافتي. لقد سمعتكِ زوجتي تقرئين بعض النصوص المقدسة من ديانتك، وتأثرت بها كثيراً. لقد اعترفنا بحقيقة أمر ديانتكم).

لكن الطاهرة قررت عدم العودة إلى كرمنشاه. ومع مجموعة الخيول التي أرسلها الحاكم إليهم، كدسوا فوقها ما أعيد لهم من حاجياتهم داخل أقمشة، ورحلوا إلى همدان.

وفي قرية (صحنه)، جاء العامة يتقدمهم رؤساء القبائل على خيولهم

العربية النشيطة للترحيب بالقادمين؛ وهكذا شرعت الطاهرة بالتبليغ هناك من جديد، مبعدة عنها مشاعر الاستياء من أحداث كرمنشاه، بعدما تحسنت حالتها النفسية قليلًا.

لكنها انتبهت مرة أخرى لتهديد محتمل من خلال رؤيا. فأخبرت (خورشيد بكم): - (في الأيام القليلة المتبقية معكم، عليّ بعمل كل ما في وسعي. فلقد تنبأت بتغييرات هائلة غير مسرّة).

فترجتها صديقتها تستفسر منها عن الخبر: - (ما هي..؟ هل تشاركينني إياها، أم ستحتفظين بها لنفسك؟)

أجابت الطاهرة: - (في الحال الحاضر. نعم. وأخشى أنكِ ستعلمين بها في القريب العاجل).

كانت همدان تنتظرها، وأعدت خطة استقبال حافلة لها، وحضر الحاكم بنفسه ليسمع تعاليمها، وكانت الأميرات وأشراف السيدات ضمن المئات الذين احتشدوا حولها، منجذبين مثل مجموعة فراشات حول زهرة جميلة.

ومع ذلك، كان في همدان أحد الملالي ذا سلطة كبيرة، يضمر كراهية لها في قلبه الغيور. وللتغلب على مشاعره، كتبت له رسالة ودودة بملىء مشاعرها القلبية الرقيقة، وأرسلتها مع مرافقها الموثوق ملّا ابراهيم المحلاتي.

تحرك الملّا إبراهيم إلى بيت الملّا، وحينما وصل، وجده في اجتماع مع العديد من الملالي الآخرين.

قال الملّا يخاطب إبراهيم المحلاتي بصوت هادئ لا ينم عن ما يعتمل في صدره من حقد وما سيحصل لاحقًا: - (كنا للتو، بصدد اتخاذ قرار لما

يجب فعله لتأديب هذه الطاهرة عن ما تنشره من تعاليمها المهرطقة. لذلك أظن علينا الآن هنا... الابتداء بك).

عند ذلك، وحتى دون النظر إلى الرسالة، نهض وجماعته وابتدأوا بضرب المبعوث. ولم يتوقفوا إلا بعدما سقط فاقدًا للوعي؛ ثم أمر اثنين من خدامه، بحمله إلى الطاهرة ورميه عند أقدامها جوابًا لرسالتها.

كانت في وسط خطبتها، حينما حدث الشغب وارتفعت أصوات التعجب. ثم عمَّ مستمعيها صمت مطبق. فلقد اخترق الخادمان جموع الحضور، وهما يحملان بينهما الملّا إبراهيم معلقًا مثل جوالق يقطر دمًا، ورموه عند قدميها، ثم التفوا عائدين دون كلام.

تراجعت الطاهرة خطوة إلى الوراء وهي ترفع يدها إلى رقبتها متعجبة. وصرخت بعض النسوة، بينما تعرفت بعضهن على ملّا إبراهيم المخلص، وبدأن في البكاء. فتجمع المستمعون يمدون رقابهم بغمغمات تساؤل على شفاههم.

استعادت الطاهرة رباطة جأشها بعد دقيقة. لم تبكِ ولم تنتحب. لكنها انحنت لتأخذ بين يديها إحدى يديّ المسجّى المرتخيتين. وقالت تخاطبه بصوت ثابت وسط دهشة أصدقائها والحضور: ـ

(تعال..! انهض يا ملّا إبراهيم..!)

كان صوتها الواضح يرنّ كالناقوس، وسط استغراب صديقاتها وبقية الحضور.

ـ عليكَ الفرح والسلام أن تقاسي في سبيل محبوبك! انهض واكمل عملك لأجله..!).

ومن وسط وجهه المسحوق الملطخ بالدماء، فتح الملّا إبراهيم عينيه يتأمل الوجه المنحني فوقه، فلقد سقط حجاب الطاهرة ليكشف عن قسمات وجهها القاسي الرصين.

ثم تعرّف على من كان يكلمه، فإذا به يجاهد للوقوف على قدميه، بينما يد الطاهرة ما زالت تمسك بيده.

تبسمت وبريق الانتصار يلتمع في عينيها السوداوين، وقالت: ـ

(يا ملّا إبراهيم... من أول جولة ضرب تسقط مغشيًا عليك؛ هذا هو وقت الاستعداد لتقديم حياتنا. ألم يحصل مثل هذا لحواريي المسيح وصحابة النبي محمد؟)

وبالفعل بدأ الملّا إبراهيم يصحو من غيبوبته بالتدريج، بينما تقدم أحد البابيين ليأخذ بيده ويساعده على النهوض. وما هي إلا ثوانٍ، حتى بدأ يبتعد عن مكانه وهو مثخن بالجراح مترنح في مشيته ليغسل جروحه ويغير ملابسه. وسريعًا ما عاد لخدمة محبوبه مرة أخرى.

أما الطاهرة فعادت تكمل محاضرتها بعزم أشد.

تقدمت (خورشيد بكم) تنصح الطاهرة: ـ

(من الأفضل مغادرة هذا المكان حالما تستعيدين نشاطك. فأنتِ تشاهدين الشرور بوضوح في وجوههم. أعلم احتمال دعوتنا لتقديم أرواحنا فداء للمحبوب كما ذكرتي. لكن تملق الموت سيكون نوعًا من الحماقة. عليكِ الاستمرار كما خططتِ للذهاب إلى طهران، لتخبري الشاه بالتعاليم الجديدة. فمن خلال عذوبة وروعة منطقك فيما تعلمينه تمامًا.. من يعلم..؟ فقد يقتنع ويصبح واحدًا منا).

ـ (طهران)؟

بدا صوت الطاهرة وكأنه قادم من مكان بعيد. ثم رفعت كلتا يديها إلى وجهها المقطّب وكأنها تحاول تذكّر شيء.

ـ (لن أذهب إلى طهران. هناك شخص ما على الطريق ـ لا أستطيع معرفة من يكون ـ قادم على جواده لمقابلتنا. الآن.. وفي هذه اللحظة).

برز الرعب في عيني خورشيد بكم، وقالت متلعثمة: ـ (شخص.. ما.. راكبًا؟)

يبدو أن الطاهرة لم تسمعها. فلقد ملأ الحزن عينيها، وتغير لون وجهها، وراحت تحدق بعيدًا. وفارقتها لثوانٍ، الحيوية التي تغمر جسدها الضئيل على الدوام، واختفى شعاع اللمعان من عينيها.

همست خورشيد بشفتين جافتين تتساءل: ـ (ما..! ماذا تشاهدين؟)

تمتمت المعلمة دون أن تحيد نظرها عن المنظر الذي تشاهده ببصيرتها المتوقدة: ـ (أرى نهرًا يتحول عن مجراه. دعيني أستريح يا خورشيد، فأنا متعبة جدًا).

حينما ارتفع صوت الأذان للصلاة، انحنت السيدتان بخشوع. وفي تلك الأثناء، عادت الروح المنعشة للمعلمة. فتبسمت، غير مكترثة، لتكمل عملها لبقية اليوم.

مع ذلك، أعطت أوامرها في المساء، للاستعداد للرحيل حال طلوع الفجر والانتهاء من الصلاة.

ثم وقفت لتخبر أصحابها: ـ (أولئك الذين حضروا معي بكل محبة من بغداد، عليهم بالعودة إلى ديارهم، ما عدا الشيخ صالح كرماني،

والملّا إبراهيم. أما بالنسبة لأصدقائي الإيرانيين، فيمكنهم البقاء هنا قدر استطاعتهم، طالما هناك ما يمكن عمله، ما عدا خورشيد وقانتة).

ثم التفتت إلى (محمد علي)، زوج مرضية، الذي كان منشغلًا لبعض الوقت في خدمة الأمر في همدان، وسألته: - (هل يمكنكَ مرافقتي؟)

أجاب الشاب: - (بالطبع، إذا كانت هذه رغبتك، فهذا شرف لي).

عادت لتخاطب الجميع قائلة: - (لنعجل.. إنهم قادمون لأجلي. أحب التقدم للقائهم على الطريق).

لم يكن هناك مجال لتسمع كلمات التوسل والتضرع من حولها، ولا للنصائح الطيبة في تغيير مقصدها.

وبحالة من الدهشة والخوف، راقب رحيلها من تركتهم خلفها.

ماذا سيحصل لها؟ صغيرة، مرهفة، نبيلة؟ هل سيتمكن على إخضاعها أو قتلها من شاهدتهم في رؤياها راكبين خيولهم متجهين نحوها؟

حينما تلاشت صورة الموكب الصغير خلف أبواب همدان. لم تكن هناك عين جافة بين المودعين، كانوا يأملون منها أية إشارة لدعوتهم، لكنها استمرت تمضي في طريقها. لم يكن من طبيعة الطاهرة النظر إلى وراء.. دائمًا إلى أمام.. دائمًا إلى أمام. إنها في طريقها لمواجهة كل ما ينتظرها بإصرار وشجاعة.

حدث ذلك، حينما اقتربت من مفترق الطرق؛ كان الطريق إلى اليمين يمضي نحو طهران، بينما اليسار يأخذهم إلى قزوين. وإذا بها تشاهد عن بعد مجموعة من الفرسان قادمين نحوهم. رجلان في المقدمة وخلفهما مجموعة من الحرس المرافقين.

التفتت إلى خورشيد التي كانت بصحبتها داخل الهودج المزدوج، وقالت: ـ (لقد انحرف النهر. نحن ذاهبون إلى قزوين).

سألتها خورشيد بقلق: ـ (لماذا قزوين؟ أليس هذا خطرًا عليك؟ عمك تقي، والآخر.. زوجك الجلف؟ كيف سيتعاملان معكِ؟)

تنهدت الطاهرة وأجابت: ـ (بصورة سيئة. يمكنني تصور حالة غضبهما، فهي أكثر من السابق، طالما تجرأت على فضح جهلهما... آه!)

تبسمت، ومالت إلى الأمام قليلا لتمعن النظر في مجموعة الرجال القادمين.

ـ (نعم.. هذان الاثنان في المقدمة.. إنهما أخواي).

عندما تقاربت الجماعتان، تقدم الشابان فورًا إلى هودجها الذي ما زالت تركبه، تاركين حرسهما على مسافة قريبة منهما.

قال الكبير: ـ (جميل أن نراكِ مرة أخرى! لقد طال غيابك لفترة طويلة يا أختي. أمرنا الوالد أن نبحث عنكِ ونحاول اقناعك بالعودة إلى البيت معنا. لذلك من المستحسن أن تتركي أصدقاءك يذهبون لحال سبيلهم، وسنقوم نحن على حمايتك).

أجابت الطاهرة بنبرة قاطعة: ـ (أصدقائي سيذهبون معي. لكن.. يا عبد الوهاب، لماذا أنت متلهف لعودتي الآن بهذا الشكل؟)

نظر الأخوان لبعضهما، فانبرى مهدي الصغير لجوابها.

(ذلك بسبب إخلاصك للشاب الشيرازي. فلقد اعتبر الوالد إنه من العيب والشنار أن تطوفي الأرجاء من مدينة إلى أخرى تخاطبين حشود العوام، والكثير منهم جهلة أميّون ومخلوقات وضيعة. إلى جانب ذلك،

فقد وصلته رسائل من ملالي كربلاء وبغداد بخصوص تصرفاتك في هاتين المدينتين. أما العم تقي، فلقد قال لوالدنا: أنه لم يسبق من قبل أبدًا أن تلوث لقب البرقاني المحترم بهذا الشكل).

امتلأ وجه الطاهرة بالغضب، وهي تردد كلمة: ـ (تلوّثَ!)

انبرت خورشيد لتتكلم بالنيابة عن الطاهرة.

ـ (لم يسبق من قبل أبدًا، أن أرتفع هذا اللقب عاليًا أكثر من اليوم. إن أختكم الرائعة قد أنارت روحيًا وجسديًا كل من تقربت إليه. وأنتما أيضًا، عليكما أن تفخرا بشجاعتها وعلومها التي تشتاق بشدة تقديمها بكل قوتها لفائدة الآخرين).

أنصت الأخ مهدي إلى خورشيد بأدب جمّ، ثم عاد ليلتفت إلى أخته.

ـ (إن الوالدة تنوح حزنًا عليكِ، ومرضية مشتاقة لكِ. أما الوالد، فهو يحبكِ رغم تصلبه، عليكِ أن تعرفي أنكِ كنتِ طفلته المفضلة دائماً..).

ثم تردد وهو يقول بصوت منخفض: ـ (زوجكِ أيضًا يرغب بعودتكِ إليه).

شدت الطاهرة شفتيها وقالت بحزم: ـ (أبدًا.. أبدًا.. أبدًا..).

قال الأخ الكبير: ـ (أشك أنكِ قد سمعتِ أخبار اضطرابات شيراز. يبدو أنهم ألقوا القبض على المهرطق الشيرازي. ولا شك أنه سيقتل. يقول الكثيرون أنها الطريقة الوحيد الناجعة لوقف الثورات التي تشجعينها أنتِ وأصحابك. والوالد يقول إنكِ لست في مأمن، تطوفين في الأنحاء في هذه الأوقات العصيبة).

رددت الطاهرة بذهول وبصوت مختنق: ـ (اعتقل..! شغب..! المحبوب..!)

أصاب رأسها الدوار. إذا كان هذا صحيحًا، فلم يعد هنالك مجال للشرح وتقديم الحجج عن الأمر أمام الشاه، فمن المؤكد أنه هو الذي أمر باعتقال (الباب) وسجنه.

قالت لأخويها، بوجه يمتلئ بالهدوء، متناسية كل ما مرَّ بها من أحداث أليمة: ـ (من المؤكد أن العمّ (عليًا) قد سمع بما حدث. حسنٌ جدًا. لنذهب إلى قزوين يا إخوتي، فتقدمونا).

مع صيحة انتصار خفيفة، أدار مهدي رأس حصانه النشيط ليوجهه نحو قزوين يستحثه على الحركة والسير يتبعه حراسه الشخصيين من بعده، ليكون أول من يوصل لوالده بشارة عودة الطاهرة.

***

كان جميع محبيها ينتظرونها. وعلى الفور شملتها حرارة محبة عائلتها، ونُسي كل شيء في غمرة اللقاء.

أما مرضية، فبعدما رحبت بزوجها، أسرعت لاحتضان محبوبتها الطاهرة، هامسة: ـ (لا أحتمل الانتظار لأخبرك أن الوالدة على وشك الإيمان بدعوة البابية. ستكون واحدة منا قريبًا، أنا متأكدة من ذلك، ستكون بابية قلبًا وروحًا).

ما هي إلا دقائق قليلة.. حتى كانت الطاهرة بين يدي والدتها. فاحتضنتها ودندنت لها كما كان في طفولتها. أما والدها فلقد احتضنهما معًا والدموع تترقرق في عينيه. ثم قال وهو يشبك يديها بين يديه الدافئتين وجسده القويّ يخيّم فوق رأسها: ـ (يا طفلتي.. أهلا وسهلا بكِ في بيتك. كم افتقدنا وجود أميرتنا اللطيفة. عليك الحضور إلى مكتبتي بعدما ترتاحي وتنهي لقاءك مع والدتك. فلدي العديد من الكتب الجديدة ستتمتعين بقراءتها).

رفعت الطاهرة نظرها إلى وجه والدها الرؤوف، وعلى شفتيها ابتسامة جميلة: ـ (والدي..! رائع أن أكون معك. سأكون سعيدة لمشاهدة كتبك، وسأكون أسعد للكلام معك ومع أصدقائك عن القائم الموعود، نحن نلقبه «الباب»).

وهنا اكفهرَّ وجهه الحاني واختفت معالم السرور منه وسحب يديه بسرعة بعدما كانت متشبثّة بها. وقال: ـ (ليس لي شأن بكلام هذا المهرطق، لم لا تكتفين بدين الحق الذي جاء به النبي محمد في القرآن؟ فأنتِ تحفظينه جيدًا كما أعلم).

وافقته الرأي، وقالت: ـ (شكرًا يا والدي، أنا مطلعة على القران جيدًا، لدرجة أن بإمكاني فهم ما وجده الشيخ أحمد والسيد كاظم من حقائقه؟ لقد ظهر جمال هذه الحقائق الآن).

امتقع وجه الوالد تماما وخلا من نضرة السرور، وقال: ـ (أنتِ عنيدة. إن «الباب»، سيعدم، هو وجميع أصحابه، ألا تدركين ذلك؟ أنتِ التي تشاهدين أمور المستقبل واضحة جدًا؟ فهل عميتِ عن مشاهدة مجريات هذه الأمور البشعة؟

أجابت الطاهرة: ـ (أبدًا بالمرة.. لقد رأيت بداية الرعب واستباحة الدماء. وسأشاهد المزيد، لا شك عندي في ذلك. ليكن الأمر كيفما يكون، عليّ أن أكون صادقة لديني).

وفجأة ودون تعليق.. ترك والدها الغرفة.

لم تمض إلا ساعة، حتى استدعيت الطاهرة إلى غرفة المكتبة.

كانت الطاهرة قد استحمت وارتدت ثوبًا حريريًا ورديًا غامق اللون، وفوقه حجاب حريري فاخر مطرز بذات اللون، ووضعت حول جيدها عقد اللؤلؤ الرائع الذي تحبه أكثر من بقية جواهرها. وزينت أصابعها النحيلة بخواتم مرصعة بأحجار كريمة أرجوانية الألوان. وشبكت على حجابها نجمة ذهبية خماسية لامعة يتميز بامتلاكها البابيون الأغنياء، نقش عليه آية (للباب).

استقبلها والدها بصوت هادئ ناصحًا: - (إن الملّا تقيًا وزوجك أرسلا لي خبرًا، بأنهما يرغبان الحديث معكِ).

تنهدت الطاهرة: - (لا أهتم ولا أرغب بمشاهدتهما. ولا أتوقع أية فائدة من ذلك. ولكن.. من الممكن أن أراهما لبعض الوقت. وليكن ذلك الآن).

في تلك الأثناء، وصل الاثنان يتقدمهما العجوز يوسف الذي تدبّرَ نظرة إعجاب إلى معلمته المحبوبة الصغيرة بعد طول غياب.

دخل الملّا تقي يمشي بخطى طويلة تنمّ عن عدوانية واضحة، وبادر الحضور بالكلام بأسلوب فوقي، بينما وقف محمد قريبًا منه يلتزم الصمت بوجه أسود متجهم وعينين حمراوين تقدحان شررًا.

فوجّه للطاهرة خطابه موبخًا بأسلوب عنيف وصوت حاد مرتفع تعلوه سوّرة من الغضب، كما هو حاله حينما يكون في مثل هذه المواقف دائمًا، قال: - (أتمنى أن عدتي إلى صوابك. أتمنى أن تعودي إلى قصري، الآن، وتحاولين أن تكوني زوجة مهذبة لولدي من الآن فصاعدًا).

التفتت الطاهرة إلى زوجها ملّا محمد بعيون متسائلة.

فاحمرَّ وجهه، وقال ببرود متلعثمًا: ـ (أنا أيضًا، آمل عودتك إلى منزلي).

انتفضت الطاهرة تمامًا، وقالت بصوت مرتفع واضح قاطع: ـ (يا قريبي المتكبر المتعجرف! لو كانت رغبتك حقيقية، كزوج ورفيق لي، لكنت سارعت للقائي في كربلاء، وأخذتَ لجام هودجي ماشيًا على قدميك طوال الطريق إلى قزوين. وخلالها.. كنتُ استطعت إيقظاك من غفلتك وسباتك خلال رحلتي معك وأوضحت لك طريق الحق. لكن ذلك لم يحدث. لن أعود لك).

ثم التفتت إلى والدها وعمها: ـ (علاوة على ذلك، لقد مضت ثلاث سنوات على انفصالنا. فلا في هذا العالم، ولا في العالم الثاني، يمكنني الارتباط مع محمد كزوج لي. لقد رميته من حياتي إلى الأبد).

صاح الملّا تقي: ـ (أنتِ مجنونة!)

وتقدم ليقف بينها وبين ولده، محملقًا في وجهها، ولعابه يزبد على شفتيه: ـ (أنتِ امرأة خطيرة مجنونة، تبشرين برسالة مدنسة لمعتوه. لعنة الله على ذلك المسيح الدجال. ليته يموت ميتة خائن. ليته يرمى لتفترسه الكلاب. ليته...).

فصرخت الطاهرة في وجهه: ـ (كفى.. لن أقف هنا لاستمع لعناتك).

لم تكد تفارق الكلمات شفتيها، حتى ارتفعت يد الملّا تقي لتلطمها على وجهها وتلقي بها ممددة على السجادة.

فجلست، وعيناها متسعتان لهول الصدمة، ثم صرخت على الفور، متفوهة بكلمات مرعبة، كأنها نبوءة تتنبؤها: ـ

(عم تقي..! احذر..! إني أرى دماء..! إني أرى فمك ممتلئ بالدماء...!).

في تلك الأثناء كان والدها يساعدها للوقوف على قدميها.

بينما أمسك محمد يد والده ليرافقه إلى خارج المكتبة.

وبصوت متهدج، قال والدها: -

(هل جرحتي؟)

كانت أنثى، لكنها ابنته المحبوبة. وكان هو رجل سلام؛ ومع ذلك، كانت يده على مقبض خنجره.

هل من المحتمل أن يكون الخنجر هو سلاح الجريمة مستقبلًا؟!

أجابت الطاهرة والدها وهي تنهض من مكانها: - (لا.. ليس بأمر مهم، فلأجل «الباب» الذي أبشر بديانته، يمكنني مواجهة لطمات تقي، أو أي شخص آخر).

انتفض رأس الملّا صالح.

- (أعلنُ الآن بصراحة.. لو أنكِ كنتِ رجلًا، وادعيتي أنكِ أنتِ عودة القائم، لسمحت لنفسي بالموافقة على هذه الفرضية. ولكن.. ما أتعجب منه.. كيف يمكنكِ، كأنثى، مع كل علومك ومعارفك، أن تختاري إضاعة حياتك على دين زائف لمثل هذا «الباب»؟)

- (اسمع يا والدي.. ما أنا إلا هباءة غبار بالمقارنة مع شمس علوم ومعارف تلك الحقيقة المباركة. ولا تنسَ يا والدي، إن علومي هي التي كانت كافية للتعرف عليه بالأدلة التي وجدتها في القرآن والتي فسَّرها العالم الجليل الشيخ أحمد الإحسائي والسيد كاظم الرشتي بشكل جميل).

ـ (أنا لم أشاهده ولم ألتقِ به، لكن آخرين فعلوا، من ضمنهم زوج مرضية. قالوا إن له جمالًا أخاذًا، ووجهًا مطمئنًا رحيمًا، ولا يكاد يفتح شفتيه حتى يثير مشاعر السامعين من الأعماق. أحاديثه وكتاباته تفتح للعقول والقلوب آفاقًا لا حدود لها. لم يكن بحاجة للذهاب إلى مدرسة. يا والدي... فكّر في ذلك! له علوم لدنيّة منذ ولادته، مكنته من قراءة القرآن وتفسير أعمق وأعقد آياته بشكل رائع. أوه.. قلبي يؤلمني من أجل أن ترى النور).

قال الملّا صالح: ـ (أوافق تقيًا الرأي! إنه جنون.. جنون.. من الآن فصاعدًا، ستلتزمين البقاء في البيت دون مقابلة أي مخلوق. هل تفهمين ذلك؟)

أجابته الطاهرة بشجاعة: ـ (لن تحقق يا والدي بمثل هذه الأوامر شيئًا، فكالعادة، سأتكلم مع النساء بالطبع. وفي الحقيقة سيكون أمرًا مستغربًا إذا كممت فمي هنا في منزلي. ماذا سيظن الناس عنك، الملّا صالح البرقاني، يخاف السماح لابنته التحدث عن 'تفاهات بغيضة'، عن دينها الجديد، كما تسميه).

صاح الملّا صالح بصوت عال: ـ (لقد قررتِ هدم السقف فوق رأسكِ. اتركيني قبل أن أفقد طباعي الطيبة أيضًا).

التفتت الطاهرة مبتعدة وحزينة، لقد كان أول انشقاق وتصدّع مع والدها.

تمتمت في نفسها: ـ (عتمة.. عتمة.. متى سيكونون شجعانًا ويفتحوا عيونهم ليشاهدوا الحقيقة؟)

***

حدث واحد بعثَ السرور في قلب الطاهرة بعد مرور عدة أسابيع، عندما أحضر هادي - زوج خاتون جان - وثيقة الطلاق وأخبار فك ارتباط علاقتها الزوجية مع محمد.

قالت لقانتة فيما بعد في ذلك اليوم: -

(لم أعد زوجته، أنا ممنونة، لقد كان زواجنا مثل سلاسل ثقيلة على رقبتي وقلبي لمدة طويلة. إني حزينة لأجله، كان رجلًا قاسيًا وجاهلًا. والآن.. لقد انتهت صلتي ومسؤولياتي).

الفصل العاشر

لم تعد الطاهرة سعيدة في بيت والدها. فقد كان قليل الكلام معها ويمتنع عن محادثتها إلا نادرًا. بينما امتلأ قلب والدتها بالكآبة والحزن. أما محبوها من الخدم، فلقد باتوا يخشون التقرب منها مخافة سيدهم، إلا العجوز يوسف.

كانت تقضي العديد من ساعات يومها في بيت أختها، أو مع عمها الملّا علي. وفي كلا القصرين، كان هناك نوع من الحرية ومجال واسع لتعليم مرضية.

أمر مفرح واحد حصل خلال تلك الفترة. فقد وصل الشاب المليح المؤمن زوج مرضية إلى البيت من إحدى مهامه التي كلفه بها ‹الباب›، يحمل أخبارًا كثيرة مفرحة ليخبر الطاهرة عن منجزات حروف الحيّ.

في بيت عمها علي، كان بإمكانها مداومة مباحثها العلمية والدينية، وتوصيل كلمات والد زوج مرضية، الحكيمة له.

كانت مواساة كبيرة لها حينما وجدت سبلًا عديدة للهروب من السدود المقامة حول أفكارها عن ‹الباب› وتعاليمه. ومع دروسها التي تقدمها بتحفظ داخل البيتين، استمرت منشغلة جدًا عن أحوالها في بيتها. فكتبت العديد من الرسائل، واستمرت في العمل على ترجمة كتابات ‹الباب›، التي تصلها بتكتم من عمّها علي.

لكن ذلك لم يكن كافيًا.

تمتمت بحسرة: - (لا يمكنني تحمل هذا الكسل، بينما بمقدرتي أن أكون سعيدة أكثر بالعمل على تسريع نشر دين ‹الباب›. عليَّ العثور على طريقة للتواصل مع بقية حروف الحيّ(.

وبينما هي سابحة في أفكارها ذات مساء في طريقها إلى البيت، ويوسف يمشي أمام حصانها ممسكًا بلجامه، وهودجها يتمايل ذات اليمين وذات الشمال، وفي الأجواء يرتفع صوت أذان صلاة المغرب، والمدينة تبدو هادئة.

إذا.. بأصوات صراخ مدوية وصيحات ألم ترتفع من خلال زقاق ضيق صغير. فحثَّ يوسف حصانها للهرولة على الفور، وراح يركض إلى جانبه نحو منفذ ضيق ليقودهما إلى منطقة مجاورة آمنة. ولكن قبل أن يصلا، اندفع حشد من الغوغاء داخل الشارع ليقطعوا عليهم سبيل الخروج. فصاح يوسف وهو ما يزال ممسكًا بلجام حصانها ويستعد للوقوف واضعًا يده على مقبض خنجره: -

(أنزلي ستائر هودجك يا سيدتي).

خشيت الطاهرة أن يكون أحد البابيين في ورطة، فتجاسرت - رغم تحذير يوسف - لتفقّد المشهد بسرعة. عندها.. شاهدت رجلين يسحبان رجلًا ثالثًا. كانت عمامة الضحية قد انحلت من رأسه وسقطت لتحيط عنقه، وبدا وكأنه فاقدًا للوعي، فيداه منسدلتان على تراب الطريق، ولا تظهر منه ردة فعل، بينما كان الحشد يرجمون جسده العاري بالحجارة.

- (اقتله..! اقتل الشيخي..!).

امتلأت عينا الطاهرة بدموع الحزن وضغطت من فوق الحجاب بيديها على وجهها الذي كانت ما تزال آثار ضربة عمها واضحة عليه.

مرَّ عابر سبيل وسأل يوسف وهو في حالة من الهياج: - (ما سبب عقاب هذا الرجل؟ ماذا فعل؟)

أجاب يوسف: - (لا أعلم..).

لكن أحد المهاجمين توقف عن الركض حين سماعه سؤال الرجل، وانبرى للجواب: - (إنه شيخي زنديق كافر. لقد أصدر حجة الإسلام الحاج ملّا تقي، فتوى بإبعادهم عن المدينة بعدما نجسوا دين الإسلام المقدس. سنقتلهم جميعًا).

ثم أسرع الرجل لقذف الضحية بحجر ما زال في يده. فجفلت الطاهرة لسماع صوت ارتطامه بجسده.

قالت: - (تقي..! تقي هو المحرّض).

وبينما كان يوسف يسارع لعودتهما إلى البيت، ذهبت أفكارها لما نطقت به عفويًا، عندما ضربها عمها.

- (سيلاقي جزاءه.. بالتأكيد سينال جزاء وحشيته).

قالت ليوسف وهي تترجل عن حصانها داخل باحة قصر والدها: - (أرجو أن تتفحّص لي وتعرف من كان هؤلاء؟ اسم الضحية؛ واسم السائل إذا استطعت. تدبّر الخبر فورًا، ولكن من أجل سلامتك وسلامتي.. كن على حذر).

عاد يوسف ليخبرها بعد فترة، أن اسم السائل هو الملّا عبد الله، وهو

من مدينة شيراز، من مريدي المعلم المشهور الشيخ أحمد والسيد كاظم. لكني لم استطع معرفة اسم الضحية الآخر. لقد رموه خارج أبواب المدينة بحالة مزرية، لكن أصحابه حملوه بعيدًا، ويبدو أنه سينجو.

لم يطرق النوم جفون الطاهرة تلك الليلة. كانت قلقة، تقطع أرضية الغرفة ماشية ذهابًا وإيابًا، تفكر بأصدقائها وبالمؤمنين الجدد. أستكون هذه هي ثمرة أعمالها؟ الموت.. والتعذيب؟

عندما فاض بها كيل القلق، صعدت إلى السطح، وجلست تحت أنوار نجوم الصيف، ملتاعة الروح لاهية عن التمتع بعبير الزهور ورائحة القداح، غافلة عن سماع تغريد البلابل من حولها.

قالت بصوت عالٍ: - (أي آلام خفيّة أوجدتها ولادة كلمة الله؟ لماذا يظن الناس أنهم قادرون على قتل الحقيقة من خلال قتلهم أنبياء الله وأتباعهم؟ متى سيعلمون أنهم عاجزون عن تدمير أمر الله، إنهم بأعمالهم القبيحة، يزرعون في هذا العالم بذرة جديدة، تحرر روحًا بريئة في كل مرة).

فجأة.. انتهبت لوجود شخص على مقربة منها. فالتفت بحدّة، وقالت: - (من هناك..؟)

عندها ظهرت قانتة بكل أدب من تحت ظل برج التهوية.[1] وقالت معتذرة: - (لم أستطع تحمل فكرة تركك وحيدة هنا، عودي إلى سريرك رجاءً، عليك أن ترتاحي).

---

(1) - لعدم توفر الكهرباء ومكيفات الهواء قديما، كان أصحاب البيوت يبنون غرفا تحت البيت (سرداب) تصمم بفتحة عمودية أو اكثر، تبدأ من جدار السرداب لترتفع إلى أعلى حتى سطح البيت. ومن خلالها، يهبط هواء بارد في أيام الصيف الحارة. (المترجم).

فوعدتها الطاهرة، وهي تنظر إلى جهة السماء الشرقية المنيرة: - (حسنًا.. بعد الصلاة).

لكنه لم يكن هناك نوم بعد صلاة الفجر.

حتى عندما ثنت ركبتيها للصلاة، كانت الهواجس والأفكار المدمرة تهاجمها بشراسة.

وكانت بصيرتها تُسمِعُها صرخة: - (خطر.. خطر..).

لكن كل شيء كان ساكنًا. والناس منشغلة بالذهاب لأداء الصلاة بهدوء.

* * *

في ذلك الحين، داخل الجامع، حيث اعتاد الملّا تقي أداء إمامة المصلين، دخلت امرأة عجوز تحمل سجادة صلاة لحجة الإسلام؛ فمدتها وانسحبت خارجة.

بعد قليل، عند أول خيوط أنوار فجر الصباح، والمسجد ما يزال خاليًا من المصلين، دخل الملّا تقي متفاخرًا بعباءته ذات الحواشي المطرزة ورأسه المرفوع، يتنحنح بصوت مسموع، ليأخذ موقعه على سجادة الصلاة، ولم ينتبه للرجل الطويل المختبئ خلف أحد الأعمدة القريبة.

عندما سَجدَ تقي ووضع رأسه على الأرض، بادر الرجل الواقف خلف العمود على الفور، بسحب حربةٍ من تحت جبته، وأسرع ليقفز فوق ظهر الساجد ليغرزها في عنقه. ثم.. قَلَبَ جسد ضحيته ليمدّه على ظهره ويقابله وجهًا لوجه، ثم استلّ خنجرًا ليغرزه عميقًا في فم تقي المفتوح من شدة الدهشة والمفاجأة.

استعجل القاتل ليقف، بعدما مَسحَ خنجره من الدماء بملابس الضحية، وسارع للاختباء فوق سطح المسجد، يراقب ردة فعل أتباع تقي.

عندما حضر أصحاب تقي، وشاهدوه ينازع الموت، والسجادة ملطخة بالدماء، استنفروا جميعًا وراحوا يصرخون لينشروا الخبر في جميع الأنحاء.

الله أكبر.. قتل الملّا تقي.. قتل البارقاني..

حمل بعضهم الضحية المضرجة بالدماء إلى بيته، بينما انطلق آخرون في البحث عن القاتل. ولعدم مقدرتهم في العثور على الجاني، استغل العديد منهم هذه الحادثة كعذر لإشباع غرائزهم الدنيئة. وراح كل منهم يتهم الآخر بارتكاب الجريمة، إما بسبب أحقاد متراكمة أو بتهمة الانتماء إلى الشيخية. وبسرعة امتلأت الشوارع بالصراخ وأصوات الضرب والتعذيب. وقامت حملة كبيرة لاعتقال رجال ونساء وأطفال أبرياء ورميهم في السجن.

سمعت الطاهرة من بعيد أصوات هياج الجموع في منطقة المسجد، وراحت تفكر بأصدقائها البابيين. وبدأت تصلي وتدعو الله في صلاتها: - (بقوتك وعظمتك يا محبوب، احمهم يا مقتدر يا قدير يا الله).

قابلتها قانتة على باب غرفتها، وقالت: - (أميرتي.. لقد أمرت بتجهيز فطارك، ومن المؤكد أنكِ سترتاحين بعدما تأكلين).

تغيرت معالم وجه الطاهرة، وتوسعت عيناها وبهت لون وجنتيها. فلقد كانت تحدق بشيء خلف كتف قانتة.

انتبهت قانتة والتفتت مذعورة، لتشاهد محمد وهو يرمي بأحد الخدم جانبًا ويندفع نحوهما بعنف إلى داخل قسم الحريم، بعينين ناريتين وفم وحشي، وهو يصرخ: -

(أنتِ القاتلة...).

كان صوته يعلو بحنق شديد، حينما طوّق رقبة الطاهرة بأصابع يديه القويتين وراح يهزها بعنف شديد.

- (اعترفي.. أنتِ من قتلته.. اعترفي...!).

صرخت قانتة بذعر، فهرع بقية الخدم لمساعدتها، كانت الطاهرة تقاوم بشدة تحاول التنفس قبل أن يرخي محمد قبضته. ثم وجّهت نظرها إلى قانتة تطلب نجدتها، وفي الوقت نفسه، بقيت تحدق في محمد. لا فائدة من سؤاله عن سبب اتهامها، ولا حاجة للاستفسار عن شخصية القتيل. فهي تعلم في نفسها. إنه تقي.. الدم كان في فمه.. إن ساعات التنبؤ الماضية أوضحت المسألة.

لقد تنبأت بمصيبة وشيكة الوقوع.

جاء صوت الملّا صالح عاليًا، وهو يدخل الغرفة غاضبًا: -

(ما كل هذا الهياج والصراخ؟ هل كل هذا بسببك يا محمد؟ أنت..! يا من تعتبر نفسك سيدًا نبيلا؟ اترك ابنتي وشأنها؟)

صرخ محمد باهتياج وهو يتخلص من الخدم الممسكين به: - (أبدًا لن أتركها.. سأتأكد من دفع حياتها التعيسة ثمنًا لذلك).

سأله الملّا صالح محمد، وهو يمسك يده بإحكام وقوة: -

- (من أجل ماذا؟ بماذا تتهمها..؟!)

- (بقتل والدي).

- (تقي؟ أخي؟ أوه.. لا يمكن أن يكون).

التفت الوالد يتفحص وجه الطاهرة لثوانٍ. ثم قال: -

- (أعلم أنكِ بريئة).

هزت الطاهرة رأسها موافقة وهي تفرك رقبتها.

- (لم أقتل أحدًا. لم أترك هذا البيت هذه الليلة. قانتة كانت معي).

صرخ محمد: - (أتجرئين على الإنكار، إن ذلك الشيرازي البابي جاء إلى هودجك حينما كنتِ عائدة من منزل أختك الليلة الماضية؟ لا تحاولي.. لقد شاهدوكِ.. يوسف بنفسه سيشهد ضدك..).

قالت الطاهرة: - (سيخبرك يوسف، أن غريبًا قد تكلم معه - وليس معي - عن شخص مسكين ضُرب وسُحِلَ من المدينة من قِبل حشد من الغوغاء بتحريض من والدك. وكل ذلك بسبب احترام الرجل للشيخ أحمد الذي يكرهه والدك، رغم أن أحمد توفي منذ سنين عديدة..).

- (أيتها الكافرة...!).

أمسك الملّا صالح يد محمد بقوة وإحكام. وقال له: -

- (تعال.. فلو كان والدك قد قتل، فمن الأفضل أن نذهب إليه. فليس لابنتي علاقة بهذا الأمر).

قال محمد وهو يلتفت نحو طليقته بغضب وعيناه مليئتان بالحقد، دفعتها للتراجع: -

(لا.. لقد خططت للجريمة. وهددته. أنتَ بنفسك سمعتها).

ـ (احذر يا عمّي.. إني أرى فمكَ مليئة بالدماء. فكيف عرفت إنه سيطعن في فمه؟)

فجأةً.. تغيرت ملامح الملّا صالح، وتهدل كتفاه، وبدا واهنًا، عجوزًا، مشيبًا، بينما بانت بشكل أوضح خطوط الشيب على لحيته.

نظر إلى عينيّ ابنته للحظة بعمق مسترجعًا ثقته. فتبسّم لها ابتسامة محبة وثقة.

ـ (لا.. ليس لها علاقة بموته، إذا كان قد مات. لكنها بدون شك تنبأت بذلك. إن لها قدرة على التنبؤ بالأمور. من المحتمل أن تصريحها كان بلا شك من بصيرتها الروحية).

قالت الطاهرة بامتنان لوالدها، وهو يسحب محمدًا بعيدًا عنها: ـ

(شكرًا يا والدي. شكرًا لك).

كان بيت الملّا صالح، مثل خلية نحل، فالجميع يتدافعون بعجلة هنا وهناك يستعلمون عن كل صغيرة تخص حادثة اغتيال تقي، التي تتهم بها مدرستهم البريئة.

أخبرت الطاهرة قانتة: ـ (عليّ بمعرفة ماذا يحدث لأصدقائي، إذا كان ذلك ممكنًا. هل أسرع يوسف للاستطلاع. إنهم سيشتبهون بمرضية والعم علي أيضا).

لكن يوسف لم يستطع تجاوز باب الدار، لقد أمره الملّا صالح بالحراسة، خشية أن يعاود محمد إرسال أصحابه لإكمال ما نوى عليه. وعلى كل حال، فلقد تمكن يوسف من إرسال شاب صغير بدلًا عنه لمعرفة ما يجري.

وعاد هذا يحمل أخبارًا مفزعة: -

- (لقد ذهب الملّا محمد إلى قصر حاكم قزوين، ووقف في قاعة المحكمة بحضور الكثيرين، ليتهم الطاهرة بجريمة القتل ويطالب بعقوبة الإعدام بحقها، رغم أن الملّا تقيًا لم يكن قد مات فعلا، فما زال يلفظ أنفاسه الأخيرة).

استجاب الحاكم لطلب محمد وأمر بجلب الطاهرة.

فأسرع محمد ورجاله عائدين إلى قصر الملّا صالح يطالب بتسليم الطاهرة إليهم، لكن صالحًا وأولاده رفضوا ذلك بشدة، إلا بعد أن وصل حراس الحاكم، ليخبروا صالحًا آسفين، أنهم جاءوا لاصطحاب ابنته بالقوة إذا لزم الأمر، إلا إذا سلمها هو شخصيًا.

وبحالة مضطربة، دخل الملّا صالح ليخبر الطاهرة بالخبر. ويقول: -

(ستكونين بأمان، ولن يمس بقية أفراد العائلة أذى. سأرافقك بنفسي، وكذلك إخوتك. سنتسلح لحمايتك).

قالت الطاهرة: - (لست خائفة يا والدي، هل ستسمح لقانتة بالذهاب معي؟)

- (بالطبع..).

أحضرت الطاهرة إلى المحكمة، وترك الملّا محمد بحريته ليفجّر عليها كامل غضبه ليتهمها بتدبير الجريمة. وبعدما انتهى من السباب والتشنيع، طالب بكيّها بالسياخ المحمّاة حتى تعترف.

كان هناك الكثير من أصدقائها داخل المحكمة في ذلك الصباح، من بينهم

والدزوج مرضية وابن أخيه. وبسماعها توسلاتهم بالعدالة والرحمة، أدركت الطاهرة حجم ما ينتاب المدينة من رعب شديد، تسبب به رجل واحد.

كان جميع المتهمين، يرددون واحدًا تلو الآخر: - (بأنهم أبرياء، ولا علم لهم بمن ارتكب هذه الجريمة النكراء).

لكن محمدًا استمر يطالب بعقابهم، خاصة الطاهرة.

أخيرًا.. وإشباعًا للهفة محمد الجامحة في رؤية الدماء، ولإجراء أقل مقدار من الأذى لصديقه المحترم الملّا صالح. أمر الحاكم بمعاقبة قانتة أولا. وأمر بحشر يديها بين دفتيّ الباب وحرق أصابعها.

تجعَّد أنفُ الطاهرة من فكرة هذا العقاب ومن تخيّل شمّ رائحة اللحم المحترق، وحين سماعها نواح السيدات داخل القاعة، ورؤيتها الحرس يتقدمون لسحب قانتة من جانبها نصف مغمى عليها. خبأت مشاعر قلقها وخوفها واستدارت لشباك قريب، لتخطو بثبات نحوه، مبتعدة عن مجلس الحاكم وبقية الحضور، ولتتوجه بوجه مكشوف نحو جهة سجن ‹الباب› في «ماكوه»، وشرعت من فورها بالدعاء والتوسل، مدركة أن ليس لهم ملتجَأ سوى الله.

في تلك اللحظة، وقبل أن تبدأ عملية حرق يديّ قانتة، ارتفع ضجيج صراخ وشغب في قاعة المحكمة. فلقد دخل الملّا عبد الله، يدفعه تأنيب الضمير، ليوقف عملية الحرق.

قال بصوت ثابت: - (سعادتكم.. إذا دفعت بين أيديكم قاتل الملّا تقي، هل تعدون بإطلاق سراح جميع الأبرياء الذين يقاسون بسبب جريمة ارتكبها شخص آخر؟)

أجابه الحاكم: ـ (إذا قدمت لي الفاعل الحقيقي لهذه الجريمة الرهيبة، فأعدك بإطلاق سراح الأبرياء).

ـ (أنا الفاعل..!).

لم يقتنع الحاكم أول الأمر بما قاله الملّا عبد الله، وأمر باصطحابه إلى سرير الملّا تقي. وحالما شاهد تقي الرجل، أشار إليه بأصبعه، وطلب إبعاده عن ناظره.

ثم.. وخلال ثوان لفض الملّا تقي آخر أنفاسه، ومات.

***

حُررت يدا قانتة وهي نصف مغمى عليها من الخوف، لكنها بقيت في قاعة المحكمة مع الطاهرة وبقية نساء عائلة الملّا صالح.

لم يشأ محمد ترك فكرة محاولة تجريم وعقاب الطاهرة، ولم يصدق أن ليس لها علاقة بالتحريض على الجريمة.

سأل الحاكم الملّا عبد الله: ـ (لماذا قتلت مثل هذا العالِم الكبير؟)

أجاب: ـ (لم يكن عالمًا. كان يسرق عناقيد أعناب العلوم من حدائق الثقافة. لو كان رجلًا حكيمًا، لما استعمل من فوق منبره كلمات قبيحة تجاه معلميَّ الشيخ أحمد الإحسائي والسيد كاظم الرشتي. لقد قتلته لهذا السبب فقط).

اقتنع الحاكم، وأمر بوضعه في الحبس الاحتياطي لتقديمه إلى المحكمة العليا؛ وهناك قدم للمحاكمة وأعاد اعترافه بفعلته.

لم يقتنع محمد وبقية الورثة بمعاقبة شخص واحد. فاتهموا الملّا عبد

الله بالكذب. ولم يصدقوا أقواله، إلا بعدما أخبر المحكمة بمكان إخفاء الخنجر. فأحضر كدليل إثبات للجريمة.

ومع ذلك، راح محمد يسخر من هيئة القاتل وسوء حال ملابسه.

قال: ـ (لا يستحق هذا الرجل التافه أن يكون قاتل والدي).

وباستهزاء وسخرية، علّق الملّا صالح على ملاحظة ابن أخيه: ـ

ـ (أحضر له ملابس جيدة ثمينة؛ وساعتها سيبدو قاتل والدك رجلًا وجيهًا).

حدث ذلك، قبل أن يؤخذ القاتل إلى السجن. ومن هناك نقل إلى طهران. وبسبب صدقه وصراحته وحسن أخلاقه، حاز رضى حاكم طهران الذي تدبر وسيلة لتهريبه وإطلاق سراحه.

لقد استجيب لتوسل ودعاء الطاهرة، وسمح لها ولقانتة بالعودة إلى بيتهما مع الملّا صالح وحرسه. لكن ورثة الملّا تقي مع ابنه محمد الوريث الأول، لم يقتنعوا.

وبسبب تعطشهم للانتقام، عذبوا كثيرًا من الضحايا الأبرياء وساقوهم من بيوتهم إلى السجن، واستمروا يبحثون عن مزيد من الضحايا.

أخيرًا استغاثوا بالملك محمد شاه القاجاري.

لم يكن الشاه متعاطفًا معهم، لكنه أخبرهم أنه سيترك بين أيديهم قاتل الملّا تقي، ليقتلوه بالطريقة التي يرغبون بها.

ولخيبة أملهم، اتهموا شيخًا ـ من رجال الدين ـ سبق وثبتت براءته، بأنه المذنب، وقتلوه بأبشع الوسائل.

ومع ذلك، لم يكتف محمد، فعاد ليستأنف لدى حاكم قزوين مرة أخرى، وليتهم الطاهرة هذه المرة بالإلحاد، مصرًّا على معاقبتها بشدة.

- وافق الحاكم على أن الإلحاد خطيئة كبرى، وإذا كانت الطاهرة تبشّر بالإلحاد، فلا محالة أنها ستعتقل.

في هذه النقطة، تقدم الملّا صالح إلى الحاكم. وقال: -

(أوافق على اعتقال ابنتي، وأعدكم بحجزها في زنزانة داخل سرداب القصر، حيث ستحرس ليل نهار. فهل تتركها على كفالتي؟)

تردد الحاكم...

حينما شاهد الملّا صالح تردد الحاكم، أكمل كلامه بأسلوب لطيف هادئ: -

(سنرفع في وقت آخر قضية الموروثات. وأعتقد طالما أن هذا الشاب غير منتبه لها، فإن نصيبًا محددًا من ممتلكات أخي، ستكون من نصيب الحكومة بشكل قانوني. فبحوزتي أوراق معينة، سأكون مسرورًا لتقديمها لكم - شخصيًا - بعد وقت مناسب من انتهاء مراسم العزاء).

لم تتغير تعابير وجه الحاكم بوضوح فقط، بل ارتعش شارباه ولمعت عيناه بجشع ملفت للنظر.



محمد شاه قاجار (1834 ـ 1848م)

أما وجه محمد، فقد امتلأ بالغضب والدهشة والرعب الشديد.

عندما أخبر الملّا صالح الطاهرة لاحقًا بهذا الموضوع، راحت تضحك بصوت عالٍ رغم خطورة الوضع. وقالت: ـ

- (الآن أدركت لماذا ألمحتَ قبل سنين مضت إلى أمور سيئة في شؤون عمل العم تقي. لقد ادخرتَ سلاحك حتى الآن لتستعمله بأفضل طريقة. شكرًا لك يا والدي مرة ثانية).

لكن همسة محمد في أذنها خلال لقائهما الأخير، لم تُمحَ من ذاكرتها، فلقد لسعتها مثل فحيح ثعبان: - (ستموتين لأجل ذلك.. ستموتين..).

كان صدى هذه الكلمات في عقلها، يتردد وكأنه في قاعة فارغة واسعة.

(ستموتين... ستموتين... موتًا...).

قال الملّا صالح يكلم الطاهرة: - (ليس بسبب رغبتي بذلك، لكني قطعت وعدًا، ولأنه لا توجد طريقة أخرى لأضمن سلامتكِ، عليَّ بسجنكِ. لقد قرر محمد بجنون تحطيمك. أرجو أن تأخذي أمر حبسكِ على محمل المحبة، يا ابنتي).

قالت: - (سأحاول.. ولكن أرجو أن تسمح لوالدتي ومرضية وقانتة بزيارتي في بعض الأحيان، واسمح لي ببعض الكتب لقراءتها).

أجاب والدها: - (إن منعكِ وإبعادكِ عن الكتب، مثل منعك من تنفس الهواء. ها هي والدتك، فحاولي أن تسعديها إذا استطعتِ).

وضعت الطاهرة كلتا يديها حول الوالدة الباكية وضمتها بقوة.

- (لقد تسببت لكِ بكثير من الأسى. كم أتمنى لو كان فرحًا...).

شهقت المرأة العجوز وقالت: - (آه يا ابنتي.. أنا فخورة بكِ جدًا... فخورة جدًا. ولكن، آه كم أنا مهمومة. لو باستطاعتي رؤية ما تشاهدينه، لكان الأمر أسهل بالنسبة لي لفهم محبتكِ لهذا الأمر الذي يصفه والدكِ بالهرطقة. هذا ما أنا قلقة بشأنه. أين سيقودك كل هذا؟ إلى أية مخاطر؟)

أضاء وجه الطاهرة نور الإلهام. وقالت بصوت مهتز، وقناعة واثقة: ـ

(لا تهتمي يا والدتي لسلامة جسدي. وبدلًا من ذلك، اهتمي باستقامتي وطهارة هدفي. لقد قرأتِ في القرآن: «يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون». إذا كان ديني، دين حق، كما أؤمن به، وإذا كان الله الذي أعبده ليس سوى الله الواحد الحق. فسأكون متقبلة لكل ما سيحصل لي، لأنها ستكون إرادته).

ارتعشت والدتها: ـ (أظنكِ على حق. لكن كم من المرعب التفكير كونكِ سجينة، بحراس..).

أجابت الطاهرة وهي مندهشة للثقة العالية التي تتكلم بها. وعوضًا عن محاولة توضيح تفجّر بصيرتها، قالت: ـ (لن يطول بقائي هنا. لا أظن أنه من الضروري احتجازي تحت المراقبة لفترة مديدة).

الفصل الحادي عشر

أدى سجن الطاهرة في بيت أبيها إلى ذعر أحاط بأهلها وأصدقائها على السواء، واهتمام كبير بين الشابات من طلاب فصولها السابقين.

كانت إحدى هاتيك الطالبات السابقات، شابة تدعى «خاتون جان». زوجة «محمد هادي فرهادي» أحد أبناء خالات الطاهرة. وهي تعيش الآن مع زوجها في طهران.

لذلك، استغربت الطاهرة ذات يوم، وهي تراها في بيت أبيها تجمع ملابس أهل البيت لتغسلها بهدوء. وحين تحيتها، أدركت الطاهرة، أن خاتون جان متواجدة في بيت أبيها لغرض ما، ولا تود الكشف عن شخصيتها.

بعد ذلك، كان من السلوان أن ترى الطاهرة صديقتها المحبوبة خاتون جان وهي تجلب لها الطعام والملابس وأغطية نظيفة لسريرها، وأمورًا أخرى دون إثارة الانتباه.

كانت الطاهرة تظن أن سبب تدني نسبة قواها الروحية يرجع إلى سجنها داخل زنزانة قبو قصر والدها المظلمة، وكذلك لخيبة أملها في تحقيق أهدافها. ورغم اهتمامها الكبير وقلقها على راحة أصدقائها البابيين، إلا أنها استغلت فرصة الحبس للاعتناء بصحتها الجسدية التي استنزفتها بسفراتها المرهقة وشغفها بالتدريس.

ومع توفر الوقت والهدوء في تعبدها، راحت تقرأ وتترجم كتابات (الباب) وتكتب الأشعار التي عكست جمال صميميتها.

كانت مرضية مندهشة منها.

ـ (لا عجب أن الكثير من الناس تقول أنكِ أجمل مَن وُلد مِن نساء إيران. ليس بإمكاني سبر غور تعمقكِ، ولا باستطاعتي الوصول إلى مستواكِ، ولكني أرغب جدًا أن أكون مثلك. فمن الصعب أن أتصور، كيف يمكنكِ الجلوس هادئة تكتبين، بينما تحيطك الدسائس والمكائد من كل مكان، رغم عدم مشاهدتكِ ضوء النهار...).

ملأت ضحكات الطاهرة زنزانتها؛ فنادرًا ما ضحكت منذ عودتها إلى قزوين.

ـ (غالبًا ما سمعتي أمنياتي لامتلاك مزيد من الوقت للتركيز على كتابة الشعر؛ حسنًا.. لقد حصلت عليه الآن).

وأضافت وهي ما تزال تضحك: ـ (وبما أني أمتلك الوقت الآن، فأنا غير متأكدة أني رغبت بالوقت لهذا الهدف. إن ترجمة كتابات (الباب) أكثر أهمية، طالما كمية الضوء كافية).

ضحكت أختها معها، وقالت: ـ (على الأقل هذه أجمل صفات البشر. مثل كثيرين، أجد نفسي أنظر إليكِ في بعض الأحيان كإنسان مميز، بسبب عمق روحانيتك).

همست الطاهرة: ـ (العمق الروحاني هبة إلهية، لا بد من التواضع للاحتفاظ بها. فهي جزء من الشخصية. خشيتي أن أكون إنسانة بسيطة عادية، كما هو الحال الآن، أنا جائعة. هل تأمرين بإحضار الطعام لكلينا حالًا).

نادت مرضية على إحدى الخادمات لجلب الطعام؛ فدخلت بعد قليل خاتون جان، وهي تحمل صينية عامرة بالمأكولات تنبعث منها أبخرة مشهّية وروائح لذيذة.

قالت وهي تبتسم في وجه الأختين: - (الطعام جاهز).

بعدما وضعت صينية الطعام على طاولة منخفضة، جلست الأختان مطأطئتا رأسيهما للدعاء.

لكن.. فجأة.. أطلقت الطاهرة صرخة ألم عالية وأمسكت ببطنها وراحت تتلوى.

فأسرعت مرضية مذعورة تنادي بطلب المساعدة. وفي الحال حضرت والدتهما ومعها مجموعة من النساء. ثم.. لما اشتدت الأوجاع، استدعي طبيب في الحال.

خلال فترة الهياج، وبينما الجميع منشغلون بحالة الطاهرة، تسللت في هذه الأثناء إلى داخل الزنزانة خلسة، إحدى قطط البيت الجائعة من اللاتي يطفن دائمًا قريبًا من مطبخ القصر؛ وبدأت تأكل طعام الصينية الذي لم يمسس بعد.

ومثلما تألمت الطاهرة فجأة. تعافت فجأة. وعاد لون وجهها الطبيعي ووعيها الكامل.

فقالت وهي تشير إلى القطة: - (الطعام مسموم.! أنظروا للمخلوقة الصغيرة المسكينة).

التفتت جميع العيون نحو القطة. لقد توقفت عن الأكل مبتعدة عن الطعام ممددة على الأرض تعاني من تشنجات.

بينما وصل الملّا صالح على الفور، وراح ينقل بصره بين الطاهرة والقطة، فأدرك ما حدث.

ـ (الحمد لله! علينا بزيادة الحذر على سلامتك يا ابنتي. إن محمدًا رجل مجنون في رغبته للسلطة والانتقام. من الآن فصاعدًا، لا أحد غير هذا الخادمة ـ قال ذلك وهو يشير إلى خاتون جان ـ يسمح له بطبخ وتجهيز طعامك).

قالت خاتون بهدوء وهي تحاول بوجهها الأبيض المضطرب، تفادي وجه خالتها المحترمة: ـ (شكرًا لك يا جدي).

اطمأن قلب الطاهرة حينما علمت أن والدها على علم بشخصية المخلصة خاتون جان رغم تنكرها بملابس خادمة. وقالت في نفسها: ـ

(إنه يحبني، ولا أهمية لما حصل لي، سأعلم دائمًا أنه يحبني).

لكنها كانت غاضبة من محمد. لقد كان بالطبع وراء هذه المحاولة. فلقد وعد بقتلها، وسيلتزم بتنفيذ وعده قدر الإمكان.

فجأة تلاشى غضبها. سوف لن يقتلها. فليس بإمكانه ذلك. لقد كانت تعلم إنها على وشك الخلاص!

قالت لمرضية: ـ (يجب أن أكتب رسالة إلى محمد، ونطلب من يوسف تسليمها له، فنحن نثق به).

اعترضت مرضية: ـ (لن يكون في ذلك فائدة. إنه رجل مجنون، كما يقول الوالد. لقد عقد العزم على قتلك كعدو لدين الإسلام).

ردت الطاهرة وهي منشغلة بالكتابة: ـ (بهذه الطريقة يبرر المجانين قتل الأبرياء. إنها تقاليد أخرى يؤمنون بها دون أساس من القرآن).

خذي اقرأي هذه إذا أحببتِ، فقد استشهدت بآية قرآنية كما سبق واستشهدت بها لوالدتي: (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون).

جاء في فحوى الرسالة: ـ (إذا كان ديني دين حق من عند الله، وإذا لم يكن الإله الذي أعبده هو ذات الإله الحق، فقبل مضي تسعة أيام، سوف يخلصني من ظُلمكَ واستعبادكَ. فإذا لم يتم إطلاق سراحي، فلك مطلق الحرية لفعل ما تريد).

شهقت مرضية: ـ (تسعة أيام! آه يا أختي! افترضي لو لم يحصل تحريرك بهذه السهولة؟ افترضي...)

وتذكرت لتكمل القول: ـ

(أنتِ تعلمين أن محمدًا، منذ وفاة والده، أصبح القائد الروحي لمدينة قزوين. أصبح إمام الجمعة فيها).

قالت الطاهرة تذكرها: ـ (الله هو درعي وحافظي).

ثم تبسمت واضعة كلتا يديها على كتفيّ أختها لتطبع قبلتين على خديها اللطيفين، وسألتها بطريقة ملامة لطيفة: ـ (هل تحتاجين إلى دليل آخر أكثر مما شاهدتي الآن؟).

بعدما وصلته الرسالة، مضت الأيام والهمجي ابن تقي وبقية أقربائه، يترقبون الموعد ويعدون الأيام واحدًا تلو الآخر غير مصدقين تحديها.

لا أقل من مئة رجل من كبار رجال الدين الإسلامي، يسكنون داخل أبواب مدينة قزوين، ومع ذلك، لم يرفع أحد منهم صوته تجاه الجرائم

التي ارتكبها محمد وأقرباؤه ضد الأبرياء خلال مجريات الأحداث. ولم يقارن أحد منهم بين الأفعال الوحشية، وبين مساندة الملالي. هذا إذا لم يكونوا مشاركين بها.

لقد اعترض الملك محمد شاه، ورئيس وزرائه على ارتكاب هذه الجرائم، لكن اعتراضاتهم ذهبت أدراج الرياح.

مضت ستة أيام من التسعة، حينما جاءت مرضية بأخبار سيئة.

- (أتجرأ القول: المؤمن الجديد من همدان قد قتل. لقد أطلقت السلطات سراحه، لكن رجال محمد قبضوا عليه وعذبوه بوحشية ثم قتلوه).

توقف تنفس الطاهرة، وبقيت لثوانٍ في حزن مكتوم ودموعها تنهمر. ثم رتبت جلستها، واستعادت هدوءها. وقالت: -

- (المسلمون البسطاء المُظلَلون، يستمرون في ارتكاب مزيد من الأفعال الباطلة. بالتأكيد سيكون عليهم تقديم كثير من الأجوبة لبارئهم. ولكن الأمر كان على هذا النحو دائمًا عندما يبعث الله مخلصيه برسالات جديدة لتجديد وتبيين القديم منها. تذكري إبراهيم وموسى والمسيح ومحمدًا).

بقيت الطاهرة جالسة مستغرقة في التفكير حتى انفجرت مرضية، قائلة: -

(لماذا..؟ لماذا تكون الأمور على هذا النحو؟ يعاني الكثيرون.. بشكل مخيف؟ ولكن... الله رحيم.. الله لطيف).

- (نعم مرضية. يستمر ضعف الإنسان. وعلينا التركيز على واجبنا في نشر بشارة ظهور الملك، أو.. كما تعلمنا الآن، كلمة مُظهر أمر الله لهذا اليوم).

حينما استعدت مرضية للمغادرة، شاهدت خاتون جان على وشك الدخول وهي تحمل ملابس نظيفة بين يديها.

رفعت الطاهرة نظرها إلى البنت، فشاهدت بريقها، وأدركت إنها تحمل خبرًا من نوع ما. وبعدما وضعت خاتون جان الأقمشة في مكانها المخصص، رفعت قطعة قماش لتريها رسالة بين طياتها. لقد أبقتها مخفية تنتظر وحدتها.

بقراءتها.. بدأ قلب الطاهرة ينبض بسرعة وآمالها تتقافز مثل شعلة شمعة في مهب ريح.

كانت مرسلة من زوج خاتون جان، محمد هادي فرهادي. كتب: ـ (إن «ميرزا حسين علي النوري» قرر إثبات حقيقة إتمام وعدها أمام وجوه خصومها، وإحباط تدابير مكائد أعدائها الذين يتربصون لقتلها).

ثم أخبرها هادي بخطة خلاصها: ـ

بأن «البابي الأعظم»، أعطاه تعليمات بأن تأتيها خاتون جان مساء وصول الرسالة إليها ـ إذا كان في الإمكان ذلك ـ وهي متنكرة بزيّ متسولة. وعلى الطاهرة أن تكون مستعدة للمغادرة فورًا؛ أما يوسف فعليه أن يساعدها حالما يخلو الطريق، لتسهيل مغادرة قصر والدها.

وكتب هادي مضيفًا: ـ (لقد وعد كذلك بأن «الله القدير» سيؤيد خطواتكم بالتأكيد ويحيطكم برعايته السديدة. بناء على ذلك، فسوف تقودكِ خاتون إلى بوابة قزوين حيث أكون بانتظارك والمرافق الذي أرسله «حسين علي»، ومعنا ثلاثة خيول للإسراع نحو طهران ومن ثم إلى قصره الفخم).

ذلك المساء، ذهبت الطاهرة إلى سريرها مبكرة وهي بكامل ملابسها متظاهرة بالنعاس والنوم، رغم أن حواسها كانت يقظة بشدة لأي صوت داخل البيت المظلم. فسمعت وقع حوافر خيل داخل باحة الدار تعلن عن مغادرة آخر ضيوف البيت. وسمعت صوت بكاء طفل ووالدته تهدئه، ثم صوت حركة الحراس وهم يتمددون ويلتحفون أمام باب غرفتها.

أخيرًا.. هدأ الجميع، لا نباح كلاب، ولا صهيل خيول، وهدأت حتى البلابل مع أجواء ذلك الصيف اللطيف.

تحركت الطاهرة بسرعة، لترتدي شادورًا غامق اللون، وتجمع ما خف حمله من ضرورياتها في حقيبة صغيرة أخفتها تحت ملابسها الخارجية. ثم تشجعت بقراءة دعاء، ومدت يدها لتدير مفتاحًا احتياطيًا في قفل الغرفة جلبته لها خاتون جان أثناء النهار. فتحت باب غرفتها على مهل، وبهدوء راحت تخطو بخفة فوق الحرس النيام مسرعة طوال الممر صاعدة فوق السلالم نحو الممر البلوري، متجهة صوب نور مصباح معلق على الباب الخارجي حيث جلس يوسف حارسًا.

كان يوسف المخلص، صديق حياتها، هو الوحيد الذي شاهد مغادرتها. بينما كان الجميع نائمين بهدوء، عائلتها، الخدم، الحراس. فتح الباب الكبيرة لها، وبينما هي تنسل خارجة، همس والعَبرة تخنقه: (رحلة آمنة، يا أميرتي).

أجابته السجينة بصوت خافت، وهي تشاهد شخصًا آخر بملابس داكنة يتقدم نحوها: ـ (ليرعاك الله ويحفظك عزيزي يوسف).

كان القادم خاتون جان بملابس متسولة.

وبصمت تام، ابتعدتا عن بيت طفولتها، الذي لن تراه الطاهرة بعد الآن، إلا في أحلامها. وبشجاعة وصلا إلى دكان صغير يمتلئ برائحة خشب قطّع حديثًا.

تمتمت خاتون جان وهما يدخلان سقيفة محل النجار: ـ (لا أحد يعلم بهروبكِ سوى يوسف. اطمئني فهذا الرجل من أصدقائنا. عندما يكتشفون أمر غيابك، سيكون هناك بحث كثيف عنكِ، ولا يجب أن يعثروا عليكِ. هناك مجال صغير ترك لنا بين أكوام الخشب، اصعدي وخذي مكانك داخله، وسأكون معكِ. فمن المحتمل أن لن يطول الوقت حتى يحضروا ليبحثوا عنك ثم يغادروا).

زحفت السيدتان لتحشرا جسديهما داخل الفسحة الضيقة التي أعدها النجار الصديق، ثم عاد ليكدس فوقهما أعوادًا وأخشابًا.

قالت خاتون جان محذرة: ـ (الآن.. علينا الصمت التام، ولا حتى همسًا، فالصوت في وقت غير مناسب سيكون كارثة. وحينما يسمع النجار أصوات الباحثين، سيبدأ بتحميل عربته مزيدًا من الخشب. وحالما يبتعدون ويتأكد من إخفائنا جيدًا تحت حِزم الأعواد والأخشاب، سيقود العربة نحو أبواب المدينة. إنها خطة جريئة محكمة).

همست الطاهرة بثقة تامة: ـ (لن تفشل.. فنحن محفوظون في كل خطوة من طريقنا. إنها حماية (الباب) المحبوب...).

وأضافت: ـ (وهناك أمر آخر. لن يصيبني ضرر قبل أن تنتهي مهمتي الإلهية. نعم، فقط.. عندما أنجز ما أمرني قداسة (الباب) بعمله، عندها ستنتهي أيامي).

بدت الدقائق كساعات طويلة، قبل أن تصلهم أصوات حوافر الخيل وصياح الغضب من كل مكان. إن البحث المحموم قد بدأ. حينها بدأ النجار يتظاهر بتحميل عربته كأنه غير مبالٍ بما يجري بجانب دكانه من فوضى.

قال أحد الفرسان، يسأل رئيسه: ـ (هل نفتش هذا الدكان؟)

أجاب صوت آخر: ـ (ابحث في كل شيء. علينا العثور على تلك المرأة، أو مواجهة ابن الملّا تقي).

ثم أضاف بعدما صمت قليلًا: ـ (رغم ثبوت عدم علاقتها بمقتل الرجل العجوز داخل المحكمة).

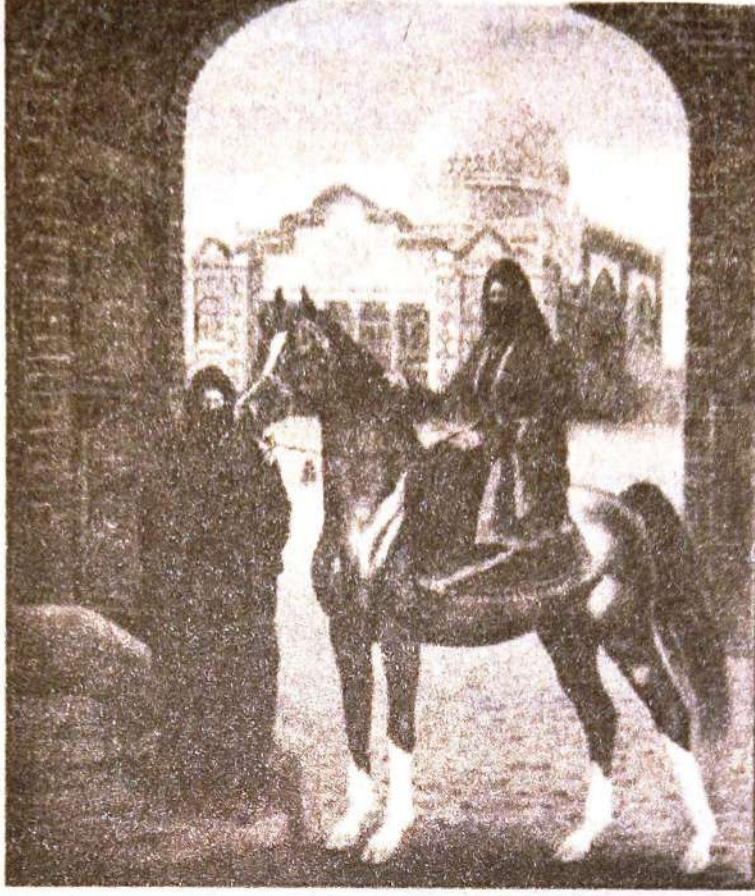
دخلوا المحل، بينما النجار منشغل بسحب قطعة خشب من فوق كومة الأخشاب التي تغطيهما ليستبدلها بأخرى.

فسأله أحد الباحثين: ـ (لماذا تعمل مبكرًا في الفجر؟)

أجاب النجار بهدوء وعدم اهتمام: ـ (لدي الكثير من سقط المتاع وأكوام الأعواد والأخشاب مما لا حاجة لي بها. إضافة إلى أن الليل أبرد من حرارة النهار).

فالتفت الرجل ليعود مقتنعًا.

دقائق قليلة، وحالما ابتعد المفتشون، بدأت عربة النجار تتحرك، حاملة السيدتين متوجهة نحو بوابة شاه زاده. لقد كانت البوابة مغلقة. لكنه لم يكن هناك حرس. أما هادي فكان ينتظرهم في الظلال.



قرة العين الطاهرة على صهوة حصانها مع مرافقتها بجوار مسجد إمام زاده في قزوين
و قد رسمت هذه اللوحة المتخيلة بريشة الفنان البريطاني البهائي إيفان للويد Ivan Lloyd

أفرغ النجار حمولته بعناية تامة، وحرر المسافرتين مما يحيط بهن. كان وداعهم صامتًا. قبَّل هادي زوجته المحبوبة وهو يستودعها عناية النجار.

وبسرعة ساعد الطاهرة في الصعود على عتبة منخفضة قرب الجدار. بينما كان خادم (ميرزا حسين علي) ينتظرهما مع الخيل في الجانب الآخر.

وخلال ثوان قليلة، انطلقوا بأقصى ما يمكنهم، يطلبون أمان طهران. كان طريقًا طويلًا محفوفًا بالمخاطر. لذا كانوا يستريحون خلال النهار ويسافرون أثناء الليل، فتوقفوا في قرى (كلداريه) ومن بعدها في (استهارد)، حتى وصلوا على مقربة أربعة أميال من طهران قرب مرقد الإمام زاده

حسن. وهناك، راح الخادم يعتني بالخيول، بينما جلست الطاهرة تستريح. أما هادي فقد انطلق على ظهر حصان آخر نحو طهران لإبلاغ (ميرزا حسين علي) بوصول الطاهرة سالمة إلى تلك المنطقة.

وبينما كانت الطاهرة تنتظر عودته، راحت تستعرض المصاعب التي مرت بها منذ يوم قرارها السفر إلى كربلاء. فإذا كانت وفاة السيد كاظم قبل وصولها صدمة كبيرة لآمالها، إلا أن رؤياها للموعود، (باب الله)، كان مكافئة وتعويضًا كبيرًا لها، حرك مشاعرها وملأ جسدها وروحها بعزم وأهداف عظيمة.

في رسالة من (الباب) وصلتها عندما كانت في بغداد، كتب لها: ـ (تابعي مسيرتك في رحلتك إلى الشمال، وزوري... طهران. واطلبي من العناية الإلهية أن ينعم عليكِ الحضور في تلك العاصمة، سرير العظمة الحقيقية. وأن تدخلي قصر المحبوب. إنها نعمة «لا توصف»، سينالها المحظوظون فقط، هناك سر مكنون مخفيّ في طهران، وحين ظهوره «سيغير الأرض إلى جنة»).

فيما بعد، أمر (الباب)، الطاهرة وبقية حروف الحيّ الإسراع للذهاب إلى أرض الطاء «طهران»، التي وصفها بـ«فجر البهاء»، والذهاب إلى منزل (ميرزا حسين علي). وأمرهم بالسعي للوصول والدوران حول شخص «فجر بهاء الحقيقة»، والاسترشاد بنصائحه، وتعضيد جهودهِ، وإعداد السبيل للظهور القادم.

لم يسبق للطاهرة أن حظيت بشرف لقاء (الباب) شخصيًا، ذلك القائد الجليل العظيم الذي لا يوصف، لكنها آمنت به كعودة للقائم الموعود من

خلال رؤيا شاهدتها. والآن رضيت بدون تحفظ، أن مضيفها القادم الذي وصفه الباب (من يظهره الله) في كتاباته المقدسة، هو المظهر الذي سيلي ‹الباب› والذي بشَّر بظهوره سريعًا.

في اليوم التاسع الذي حددته الطاهرة كيومٍ لتحريرها، كانت تُصطحب لدخول قصر ‹ميرزا حسين علي› في مدينة نور، وهي عالمة تمامًا في محضر من ستكون، فهو مرشدها ومخلصها. وكما كان الحال مع تقبلها دعوة دين الباب، كذلك أدركت بنفاذ بصيرتها مستقبل عظمة ‹حسين علي›.

وحتى حينما كانت تعلِّم وتدرِّس في كربلاء، فقد لَمّحت في إحدى قصائدها إلى اعترافها بالحقيقة التي سيظهرها.

(بريق لمعان جمال الأبهى قد خرقت حجبات الليل؛

انظروا أرواح محبيه تتراقص مثل هباءات في ضوء أنوار وجهه!)

بمثل هذه الروحانية، اعترفت بإيمانها بعظمة ‹الباب› ودعوته، وبالمظهر التالي الذي سيلقب ‹بهاء الله›، والذي سبق التبشير بظهوره، أنه سيأتي «بمجد الآب السماوي».

والآن ها هي وجهًا لوجه معه وقلبها مليء يتفجر بالمحبة والامتنان.

كان شابًا. من سنها، كما تعلم جيدًا. شعره الأسود الفاحم ينسدل على كتفيه العريضين، ولحيته السوداء فاحمة، تغطي الجزء الأسفل من وجه الوضاء الجميل. لكن عينيه الاستثنائيتين، هما اللتان أدخلتاها في فترة سحرية.

كانت هناك قوة وسلطان في حاجبيه الشريفين، ونظرٌ ثاقب في عينيه السوداوين، عينان تُظهِران فورًا، المحبة والحزن، والتحمّل والتصميم.

بعدما نظرت إليه، غمرتها الدهشة حين مشاهدتها تحركات كيانه، وأفقدت شخصيته النبيلة قدرتها على الحركة، وراحت ترتجف مثل ورقة لامعة على غصن شجرة تهزها الرياح. فجمدت ولم يعد باستطاعتها الحركة.

لكن صوت زوجته الهيفاء اللطيفة، وكلماتها المرحبة الودودة، وابتسامتها الرائعة وعينيها الزرقاوين الرماديتين، أعاد للطاهرة سيطرتها على نفسها. فسحبت بسرعة نفسًا عميقًا لتتمكن من الاستجابة لها بكامل الاحترام وترافقها إلى الجناح الملوكي المعد لها.

ولمزيد من عظمة سرورها، جاء ولد صغير مسرعًا ليقف إلى جانب مضيفتها. فقالت والدته تقدمه لها: -

- (ولدي عباس).

وعلى الفور، انحنت الطاهرة لتضم يد الصبي الصغيرة الدافئة في يدها.

غمرتها مشاعر عميقة، حينما تفرست في بريق تلك العينين الصغيرتين اللامعتين، وأدركت على الفور، أن في هذا الطفل الصغير، بذرة أمور عظيمة قادمة. وقالت: -

- (لي الشرف).

وفي لمحة تذّكر، شاهدت بوضوح وجوه أطفالها الذين فقدتهم إلى الأبد بسبب دسائس محمد.

بعدما استحمّت وارتدت ملابس نظيفة، قدمتها مضيفتها الكريمة لها، فكّرت بمضيفها الرجل العجيب الجذاب. يا لها من قوة عجيبة شاهدتها على محياه الهادئ. ويا لها من حكمة. لقد كان ولده يشبهه.

أن تكون في هذا المنزل، معززة محمية، إنها متعة لا تقدر بثمن، بعد تلك الأيام الخطيرة التي مضت.

سيستمر التفتيش عنها في قزوين. وستكون والدتها مرتعبة قلقة، لكن هاديًا، سيجد طريقة ما لإخبار عائلتها عن نتيجة هروبها الناجح.

في قلبها، كانت تعلم أن والدها سيكون سعيدًا لهروبها. فلن تسمح له كرامته بالتخلي عنها، كما أن ليس باستطاعته ترويض كراهية محمد لها. إنها طفلته المحبوبة.

وحينما استعملت ما توفر لها من زيوت وعطور، تمنّت أن يتقبل محمد الأمر، ويؤمن به، ليعلم مدى روعة مضيفها.

«أبو الفقراء»، هو أحد الألقاب التي أطلقها أهل طهران على (ميرزا حسين علي). أما زوجته فلقّبها بـ«نواب»، وكانوا يلقبونها بـ«أم المحرومين».

كانا يقدمان الإحسان والمعونة بطريقة مهيبة. لا يردان أحدًا عن بابهما. ومع استمرار تدفق حشود الجياع والبؤساء والملهوفين، كان يأتي جمهور أكبر من البابيين، منجذبين دون وعي إلى مركز القداسة هذا، وإلى صفات (ميرزا حسين علي) الروحانية.

لقد شجَّع (حسين علي)، الطاهرة وطالبها بمشاركة علومها عن الأمر مع الباحثين، فكانت يوميًا تلقي محاضراتها على حشود النساء والرجال من خلف ستارة إحدى صالات القصر الواسعة، بفصاحة وطلاقة لم يسبق أن فعلتها من قبل. فازدادت تواضعًا بعدما أدركت مدى ما يغمرها مضيفها من سيول تأثير الهاماته الروحية.

غالبًا ما كانت تضع الطفل عباسًا على حضنها وقت خطابها، فلقد أيقظت يداه الناعمتان غريزة أمومتها.

في أحد الأيام، وبينما كانت تلاعب الصبي لعبة يحبها، حضر سيد شهير[1] يطلب مقابلتها، لكنها لم تترك عباسًا حتى انتهت اللعبة.

انتظر السيد، وانتظر كثيرًا حتى يقابلها، وكان الخدم يعلمونها بوجوده مرة بعد أخرى. وأخيرًا قالت وسط تعجبهم: -

(لماذا أترك سمو حامي حمى الأمر المبارك، وأذهب لرؤية أحد المؤمنين؟)

فتحير كلّ من سمعها. غير مدركين عظمة مهمة والد الطفل، وليس لديهم فكرة عن مستقبل الطفل.

وعندما سُمح بدخول السيّد أخيرًا لمقابلتها، دار الحديث بينهما عن الباب وأمره. ومن خلال إشارتها لنقطة معينة، وجد السيد فرصة مناسبة ليشرع بتقديم خطبة عصماء عن دلائل ظهور الباب في الأحاديث الإسلامية.

بعدما أصابها الملل من طول سرد الدلائل، قاطعت الطاهرة محدثها من خلف ستارة السيدات بكل وضوح: -

(يا صديقي! دع الأفعال تشهد على إيمانك وليس الكلمات. لماذا تكرر ترديد الأحاديث القديمة، بينما يوم العمل والخدمة بين أيدينا. إذا كنت رجل علم حقيقي، هلم واظهر علامات الله! قدم نفسك فداء جماله!

(1) - آية الله يحيى الدارابي، مستشار الامبراطور القاجاري لشؤون الديانة الإسلامية بعد إيمانه بالبابية. (المترجم).

إذا كانت لديك الشجاعة، فأثبتها! ناد ليل نهار: «قد ظهر البشير الموعود! لقد ظهر القائم، قد جاء الإمام الموعود! لقد ظهر».).

اندهش السيد من عميق معاني كلماتها وملأته العزيمة، فقام من محضرها فورًا، عازمًا على تقديم مثال عملي لما دعت إليه، ولينال مستقبلًا شرف الشهادة.

ومع قدرتها المتزايدة، جاهدت الطاهرة لتحذو حذو نصيحتها للسيد. واهتمت بشكل خاص بالبابيين الذين يظهرون قيادة وقدرة في التبليغ. وساعدتها ذاكرتها العجيبة جيدًا. فكانت تقدم الأجوبة الفورية الدقيقة لأصعب الأسئلة غير العادية عن كتب الشرائع المقدسة القديمة وعن شريعة الباب.

وجد ‹ميرزا حسين علي› الوقت الكافي، ليشرح لها ما عصيَ عليها فهمه من بعض الفقرات المبهمة، وبهذا تدرجت معارفها الروحية وقدراتها لمستويات أعلى تحت رعايته.

لم يستمر استقرارها طويلًا في ذلك القصر الجميل بين مفارشه الفاخرة وآنيته الزجاجية الثمينة والملابس الفخمة وتجوالها في الحدائق الغناء وتناول المأكولات الشهية، وبين من أحاطها من الخدم المحبوبين والأصدقاء المخلصين.

فعندما وقع منزل ‹الميرزا حسين علي› تحت خطر الأعداء، وبدأوا بنهب ممتلكاته وتدميره وتدمير محتوياته، تدبر نقل الطاهرة إلى منزل وزير الحربية للبقاء عدة أيام تحت رعاية شقيقة هذا الموظف الحكومي حيث ستكون في مأمن هناك.

حتى جاء نداء ‹الباب›، آمرًا قادة البابيين للتقدم نحو خراسان.

الفصل الثاني عشر

كان قد نزل من قلم الباب لوحٌ قبل مغادرة الطاهرة كربلاء،[1] يخاطب حوارييه والخلّص من أتباعه ويلزم جميع أتباع الدين المخلصين الإسراع في التوجه إلى أرض الخاء (مقاطعة خراسان).

لقد عرفت الطاهرة بخبر انعقاد المؤتمر، وطيلة فترات إقامتها المضطربة وما حاط بها من مصاعب في بغداد وبقية المدن الجنوبية، بقيت في خاطرها ذكرى النداء، باعتباره أمرًا محبوبًا تجب طاعته بأسرع وقت، وعندما غادر الآخرون متوجهين إلى خراسان، كانت متأكدة أنها ستكون من ضمنهم.

ذلك كان في بداية صيف عام 1848، حينما كانت تعيش في منزل وزير الحربية، ساعتها وصل «أقاي كليم» شقيق (حسين علي) ليطلعها على خطة شقيقه في تدبر إرسالها إلى خراسان.

---

(1)- يحتاج وصول الرسائل أيام زمان إلى وقت طويل، نظرًا لانعدام المواصلات السريعة، حيث كان يعتمد على سرعة الخيول أو المشي على القدمين، خاصة وتبليغ هذا الأمر كان عامًا لجميع البابيين. إضافة إلى ضرورة مراعاة السرية المطلقة. كذلك كانت الرسائل تتأخر بسبب انتشار أمواج العداء من قبل أهل إيران عمومًا حيث اعتقل وقتل العديد من البابيين، مما يدعو لبذل منتهى الحيطة والحذر. والأهم من ذلك، توضح هذه الحادثة مدى حكمة ورؤية جناب (الباب) الإلهية العميقة وتقديره الإعجازي في تحديد موعد انعقاد مؤتمر بدشت في موعده المحدد بفترة مناسبة. (المترجم).

التمعت عيناها بالأمل، وقالت: - (لقد صليت أن يفتح الطريق... كانت هناك إشاعات عن محاولة تحرير الباب من سجنه، ومن المحتمل أن يتناول المجتمعون ذلك. متى موعد الرحيل؟)

أجابها «كليم»: - (فجر يوم غد. ومن الأفضل الشروع بالتجهيزات فورًا).

فأكدت له الطاهرة: - (بالتأكيد سأفعل، ولكن رجاءً أخبرني أولًا عن المكان، أين سيكون لقاؤنا).

- («بدشت»؟ إنه منتجع صيفي قرب «شاه رَوَد». مكان يمتلئ بحدائق جميلة، يختاره العديد من الناس لقضاء عطلاتهم، إما في بيوت صيفية أو في خيام. لقد وصل علمي، أن العديد من الأحباء المخلصين هم في طريقهم إلى هناك الآن، بعضهم يسافرون مسافات طويلة على الأقدام).

مرَّت على خيال الطاهرة صورٌ بهيجة تتوقع مشاهدتها.

قالت في نفسها: - (سأراهم..!).

- (كم هو رائع.. سأرى، قدوس وملّا حسين، أول وآخر حروف الحيّ، وزوج أختي مرضية العزيز).

***

فور انبلاج أنوار فجر الصباح، ركب الجميع على ظهور خيولهم؛ الطاهرة ترافقها قانتة، يحرسهما «كليم»، متوجهين بعيدًا عن القصر.[1]

لقد حذر (ميرزا حسين علي) شقيقه كليم، باتخاذ منتهى آيات الحذر،

---

(1) - كتب جناب كليم: توكلنا على الله، الطاهرة وخادمتها وأنا، وركبنا إلى منطقة مجاورة للعاصمة.

خشية أن تكون هناك محاولة من قبل السلطات أو الحرس لمنع مغادرة الطاهرة، وأخبره بتجهيز كل ما يحتمل أن تحتاجه الطاهرة في سفرها.

حينما اقترب الثلاثة من بوابة المدينة، لاحظوا بارتياح أن أمطار ليلة الأمس الشديدة، تسببت بانتشار رمال فوق الطريق، فامتد هذا البساط الرملي الطويل ليساعد بكتم صوت وقع حوافر خيولهم.

ثم ارتفع الأذان في هذه الأثناء، ليصرف انتباه حرس البوابة ويشغلهم بالاستعداد لأداء صلاة الفجر. فساق المسافرون خيولهم حثيثًا خلال بوابة المدينة دون حوادث، مدركين أنهم كانوا تحت حماية «يد العناية الإلهية».

بعد مرور ساعتين تقريبًا، وصلوا إلى بستان يتوسطه بيت ريفي. فترك كليم السيدتين وذهب للاستقصاء.

عاد بعدها بصحبة رجل مسن صغير الحجم كان قد تُرك البستان تحت حمايته، وبعد مشاركتهم الطعام، اقترح الخولي أن تبقى السيدتان تحت حمايته، أثناء عودة كليم إلى طهران.

سأل كليم: - (هل أخبر شقيقي أنكِ راضية بهذه الترتيبات؟)

فابتسمت الطاهرة دليل الموافقة.

قال لها كليم مؤكدًا: - (إما سأعود، أو أرسل شخصًا آخر لمرافقتكما، حينما تستأنفين رحلتكِ إلى بدشت).

ثم امتطى حصانه ومضى.

***

قضت الطاهرة أسبوعًا هانئًا هادئًا داخل البستان، حتى وصل أحد حروف الحيّ ومرافق له، مُرسلان من قبل أقاي كليم لمرافقة الطاهرة.

ثم انضم إليهم محمد حسن قزويني الملقب بـ«الفتى» ومجموعة أخرى من المؤمنين مشكلين مجموعة رائعة لحراستها.

في طريقهم شرقًا، علمت الطاهرة إن البستان الذي لجأت إليه، قد أطلق عليه ‹ميرزا حسين علي›، اسم «حديقة الرضوان». وقال إن البيت الصغير كان قد أعد تدبيره لاستضافة أحباب الله من قبل العناية الإلهية. ورغم ما اتخذه ‹ميرزا حسين علي› من احتياطات، فقد ثبت أنها رحلة متعبة للطاهرة خلال وديان وسفوح الجبال الجميلة الوعرة إلى خراسان.

حين وصولهم ، وجدوا أن عددًا كبيرًا من الحجاج قد وصلوا أيضًا، قد وصلوا قبلهم إلى هناك. وعلمت إنه قد استأجر ثلاثة بساتين، واحدًا له، وواحدًا لمحمد علي بارفروش، وآخر للطاهرة وخادمتها قانتة.

عندما وصل ‹ميرزا حسين علي› خبر استمرار الشاب محمد علي بارفروش في رحلته إلى «شاه رود»، أسرع بنفسه لملاقاته في منتصف الطريق، لينصحه بالعودة لحضور مؤتمر بدشت.

موقع المؤتمر الآمن، ومجاميع بيوت الصيف المنتشرة حوله وحدائقها الصغيرة المليئة بالورود وأريجها، منح الطاهرة شعورًا بالأمان.

نهضت في اليوم التالي، قبل شروق الشمس، فاستحمت وارتدت ملابسها، وهي تسمع بانتباه كثرة حناجر البلابل المغردة تحيي بهجة اليوم الجديد.

تبعت قانتة سيدتها إلى خارج البيت، وعندما وقفتا تحت ظلال شجرة وارفة لبعض الوقت، شاهدتا هادي، زوج خاتون جان، يصل على عجل من أجل خدمتهما وحراستهما.

وقال لهما: ـ (إنهما قادمان، (ميرزا حسين علي) ومحمد علي بارفروش. إنهما ما زالا على صهوة حصانيهما داخل المخيم. هل تسمعان وقع حوافر جيادهما؟)

علت وجه الطاهرة الجميل إمارات الترقب وهي تصغي السمع بشفتين مفتوحتين وعيون بارقة.

نعم.. نعم.. يمكنها أن تسمع جيدًا صوت وقع حوافر خيول. وهناك أصوات أخرى، أصوات تجميع أعواد الخيام، رجال ينادون على بعضهم، وأحدهم يضحك بفرح غامر.

أخذت نفسًا عميقًا من هواء الجبال المنعش، وبدأت ترتل دعاء الصباح للحمد والشكر. بينما وقفت قانتة وهادي إلى جانبها برؤوس منحنية يستمعان لما ينهمر من ألحان الكلمات البهيجة.

وكما هو الحال دائما في مثل لحظات التعبد هذه، دعت الطاهرة ربها الذي يتحكم بهذا الكون ـ محبوبها الأزلي ـ بصوت مرتفع تمجد الواحد الأحد الذي يلتجئ إليه الجميع واثقين أن المناجاة المخلصة له تسمع وتستجاب.

وأخيرا.. تباطأ لحن الترتيل وتنعم الصوت لينتهي بهمهمة خافة من القناعة والسلام.

في مكان ما فوق المنحدرات الخضراء الممتدة نحو قمم الجبال الشاهقة خلف البيوت الصغيرة والخيام البيضاء للمخيم، كان هناك ثغاء خروف وطفل ينشد أغنية جميلة.

عاشت الطاهرة طوال حياتها في ترف ورفاهية، في بيتها في قزوين

أولًا، ثم في كربلاء، بغداد، وفي طهران في قصر (ميرزا حسين علي)، لكن بساطة حياة ما هي فيه الآن تحيطها بالبهجة والسرور.

وبينما كانت تنتحي جانبًا معجبة بوردة تتفتح لتشم عبيرها، آنسها شعور مفاجئ بنفاد صبرها، منتبهة في الوقت نفسه، لحقيقة كونها امرأة مفعمة بالطاقة، لم تعتد الانتظار حينما يكون هناك عمل ينتظر الإنجاز.

حملتها أفكارها إلى محمد علي البارفروشي، الشاب الذي حُجزت له الحديقة الثالثة. فهي لم تشاهد هذا الشاب الوسيم العالم الألمعي، الذي حاز لقب «محبوب الباب»، منذ أيامها في كربلاء، عندما ألهبته بنار علومها ورؤاها، وأثارته للإسراع في العثور على الموعود (الباب).

كانت تعلم أن سبب تأخير انعقاد المؤتمر، تأخر وصول البارفروشي. وعلمت بغريزتها أيضًا أن رغبة الباب أن يكونا كليهما، هي والحرف الأخير من حروف الحيّ (القدوس)، التلميذ المخلص، الذي من خلال روحانيته العالية وغيرها من الصفات الفريدة، نال لقب «رئيس» حروف الحيّ، وإنه لا بد أن يشارك بكل وسيلة ممكنة في المؤتمر.

لكنه، بحضور زوج مرضية الشجاع، وبقية حروف الحيّ الراغبين بتقديم احترامهم لها، تغير مجرى تسلسل أفكارها.

عموما، فالواحد والثمانون عضوًا من البابيين، حضروا بدشت ليمكثوا جميع أيام المؤتمر الواحد والعشرين.

فورًا، وحالما التأم الجمع، أجرى (ميرزا حسين علي)، أعظم إشارة تغيير. فلقد أنعم على كل واحد من الحضور لقبًا جديدًا، منهيًا بصورة رمزية الظهور السابق، وإعلان بداية الظهور الجديد.

واختار لنفسه من الآن فصاعدًا لقب «بها». وعلى المرأة الوحيدة، من حروف الحيّ، لقب «الطاهرة»، وأن يعرف محمد علي بارفروش، باسم «قدوس».

إذا كان هذا غامضًا، كذلك كان مجرى المؤتمر بقيادة «بها»، فقد تولى مهمة قيادة ميلاد اليوم الجديد؛ الشريعة الجديدة؛ إشراق شمس معارف ومفاهيم جديدة.

في هذا المؤتمر كان يجب إبعاد المفاهيم الخاطئة القديمة والمعتقدات الخرافية للحقائق الإلهية برياح التطهير. فكلمة الله التي نزلت من عند ‹الباب›، كانت مناقضة لتعاليم العديد من مفاهيم الملالي. وعلى الجميع الانتباه الآن، أنه لم يعد عليهم تعظيم مبدأ قتل من لا يؤمن بما آمنوا. ولتصحيح وتقويم مسارهم الفكري، كان من الضروري تطهيرهم من الأخطاء القديمة وإعطاؤهم رؤية جديدة «محبة الآخر».

لقد كان صحيحًا أن النبي محمدًا قد ظهر لبشر بمستويات دانية، وأن معاركه الدفاعية، تحولت بعد وفاته، إلى حروب فتوحات مقدسة. أما الآن، ومن خلال أوامر الرسول ‹الباب›، فقد نسخت تلك المفاهيم القديمة بظهوره. وأن مفاهيم الأوامر الإلهية الجديدة، لم يعد هناك مجال لتجاوزها من الآن فصاعدًا.

ستكون الصعوبة في تفهيم الملالي المؤتمرين، كيفية تطبيق تعاليم الشريعة الجديدة النازلة التي قُدمت لهم في بدشت بشكل عملي، وأن الأحكام الجديدة يجب الإيمان بها حرفيًا.

كانت المفاجئة تتبع المفاجئة والتغيير يتبعه تغيير، حينما كانت تقدم

الأفكار الجديدة. فلا عجب أن بعد كل جلسة كان ينسحب المستمعون من محضر «البها»، ليشكلوا مجموعات صغيرة للمناقشة والحوار.

رغم سعادة الحضور، إلا أن التلاميذ خلال أول أيام المؤتمر المثيرة، كانوا مرتبكين لسمعاهم تعاليم جديدة جريئة وتغييرات جوهرية، ومن المحتمل أن هذين الشابين المميزين - الطاهرة والقدوس - فقط، كانا يدركان تمامًا مصدر هذه الإبداعات الجديدة وعظمة اليد البارعة التي كانت تدير المؤتمر من خلف الحجبات بحزم ولطافة.

وعلى كل حال، فقد انصدم الجميع حينما انتشر ذات صباح خبر مرض (البها).

كان من أوائل من وصلهم الخبر، القدوس، فأسرع إلى خيمة (البها) يستأذن الدخول، ليجده مستلقيًا على فراشه مغمض العينين، فاتخذ له مجلسًا على يمينه.

وبالتدريج حضر بقية الأصحاب وسمح لهم بالدخول، فتجمعوا حول (البها). وما كادوا يستقرون، حتى وصل رسول من الطاهرة ليخبر القدوس بأن الطاهرة تدعوه لزيارتها في حديقتها.

التفّت عيون الحضور تنظر نحو الشاب تتساءل إذا كان سيترك مجلس (البها)؟

رفع القدوس وجهه نحو المراسل محدقًا بحاجبين مقطبين وعينين تبرقان، وقال له بحزم قاطع: - (لقد فصلت نفسي عنها تماما، أرفض مقابلتها).

انسحب المبعوث فورًا.

لكنه سرعان ما عاد ليكرر ذات الطلب ويناشد القدوس بالاستجابة الفورية لدعوة الطاهرة. ويقول: ـ

(إنها تصر على زيارتك. فإذا تمسكت برفضك، فستأتي هي بنفسها إليك).

شبك القدوس يديه حول صدره محولًا بصره عنه.

بينما ارتفع صوت همهمات واستغراب بين البابيين الحاضرين.

حينما أدرك المبعوث مدى إصرار القدوس على رأيه، استل سيفه من غمده ووضعه عند قدمي القدوس. وقال: ـ

(لن أعود بدونك. فاختر.. إما مرافقتي إلى محضر الطاهرة، أو قطع رأسي بهذا السيف).

ردَّ عليه القدوس بغضب: ـ (سبق وأوضحت لك عدم رغبتي بزيارة الطاهرة. وسأنفذ لك خيارك الذي تركته لي).

جثى المراسل محمد حسن على ركبتيه أمام القدوس مادًا رقبته ليتلقى الضربة القاتلة، حينما ظهر هيكل الطاهرة فجأة أمام عيون الواقفين.

لقد كانت متبرجة ودون حجاب..!

فأوقع ذلك استغرابًا شديدًا، وكأن صاعقة سماوية ضربت المجتمعين. بعضهم غطى وجهه بيديه، وبعضهم سجد على الأرض، وآخرون غطوا رؤوسهم بعباءاتهم حتى لا يشاهدوا هيكل قداسة الطاهرة.

إذا كان النظر إلى وجه امرأة غريبة عابرة، يعتبر خطيئة كبرى. فيا لها من جريمة لا تغتفر لتقع عينا رجل على هيكل الطاهرة المقدس.

لقد أصاب الجميع ذعر شديد.

ووقف الكل تلفهم المفاجأة والدهشة أمام هذا المشهد غير المتوقع.

لقد كانوا يعتبرونها تجسيدًا لرمز عفة مقام «الفاطمة» الشريف.[1]

كان الاعتقاد يقضي بعدم النظر حتى إلى خيالها، ففي ذلك قلة احتشام كبيرة.

إن ما حصل من تباين كبير في سلوك وهيجان الرجال، كان بسبب تصرف المرأة الوحيدة في المؤتمر.

وبأقصى درجات الاحترام والهدوء والصمت، خطت الطاهرة لتتقدم نحو القدوس، وجلست إلى جانبه الأيمن.

رصانتها ورباطة جأشها، تعارض بشدة ما ظهر على ملامح الوجوه المرتعبة من الذين كانوا يراقبونها باندهاش وتعجب بالغين.

لقد صُعق الحضور، فظهورها المفاجئ نشر فوقهم خيام الخوف والغضب والذعر، وهزَّ أرواحهم من الأعماق. ويبدو أن علانية كشف وجهها، قد أذهل قدراتهم العقلية.

اهتزَّ أحد الرجال رعبًا بشكل لا يوصف، وراح يصرخ بجنون وهو مستثار لدرجة أن اقتلع حنجرته بيديه العاريتين، ثم ولّى من أمام الطاهرة وصدره مغطى بالدماء.

وقلده آخرون، وتركوا أصحابهم وتخلوا عن إيمانهم، بينما وقف أمامها عدد آخر يلفهم الذهول والارتباك.

---

(1) - ابنة النبي محمد وزوجة الإمام عليّ.

بقي القدوس جالسًا في مكانه ممسكًا بالسيف المجرد، ذاهل الوجه بغضب لا يمكن وصفه. كان يبدو عليه وكأنه ينتظر اغتنام اللحظة المناسبة لينقض على الطاهرة ويضربها ضربة مميتة.

لم تهتم الطاهرة بمظهره الغاضب، وبقي وجهها ينم عن ذات الملامح الهادئة والثقة والوقار التي ظهرت بها أمام جمع المؤمنين حين دخولها قبل قليل. كان وجهها يشع نورًا لشعورها بالسعادة والنصر. فوقفت غير مهتمة بما أوجدته من صخب واضطراب في قلوب الأصحاب، وراحت تخاطب بقية المؤتمرين بعفوية تامة، وبشكل ملفت للنظر، وبفصاحة لا مثيل لها، وبعمق وتوهج. وأنهت كلماتها بآية من القرآن: -

«إن المتقين في جنات ونهر. في مقعد صدق عند مليك مقتدر.»[1].

كانت تنقل ببصرها أثناء تلاوتها الآيتين، بين «البهاء» و«قدوس»، حتى لا يتمكن من يراقبها معرفة المقصود منهما بإشارتها.

ثم أوضحت بحماسة: -

(أنا الكلمة التي أخبر عنها القائم).

(أنا الكلمة التي ستسقط الرؤساء والملوك على الأرض).

ثم التفتت إلى القدوس تلوم فشله في إنجاز الأمور التي تعتقد أنها مهمة لارتفاع أمر الدين في خراسان[2].

---

(1) - سورة القمر. 54، 55.

(2) - هذه الملامة المباشرة للقدوس، كانت إشارة واضحة بأن المقصود من الآية القرآنية، هو «بهاء الله». (المترجم).

ردَّ القدوس عليها بشكل حاسم: -

(أنا حرٌ باتباع ما يمليه عليّ وجداني. فلست خاضعًا لإرادة ورغبة أتباعي من التلاميذ).



لوحة فنية حديثة متخيلة رسمها الفنان البريطاني Ivan Lloyd تظهر ظهور قرة العين الطاهرة سافرة الوجه وسط المجتمعين من الرجال معلنة عن استقلالية الشرعة البيانية و قائمية حضرة الباب وسط حالة من الامتحان و الاضطراب.

ثمّ التفتت الطاهرة مرة أخرى نحو الحضور تدعوهم لتهيئة احتفال لائق بهذا اليوم الحافل، وقالت: - (هذا يوم عيد وفرح عالمي، يوم تكسرت فيه قيود الماضي. فلينهض من شارك في إنجاز هذا اليوم العظيم ويعانق صاحبه).

كان هذا اليوم الخالد، وهؤلاء الذين اتبعوه دون تردد، شاهدًا على تغييرات خطيرة في حياة وعادات المجتمعين البابيين. ففجأة ألغيت وأهملت أسس وتقاليد العبادات القديمة، من صلاة واحتفالات بمناسبات إعتاد هؤلاء المؤمنون المخلصون إتباعها باعتبارها تعاليم اسلامية أساسية مستحيلة التغيير ولا غنى عنها.

ومع أن نوعا من الفوضى والتشويش قد ساد الجمع، ونهض بينهم من يدافع بحماسة مفرطة عن هذه الاصلاحات الجديدة. إلا أن البعض أدان هذه التغييرات الجوهرية ووصفها بنوع من الإلحاد، ورفضوا إبطال ما اعتبروه تعاليم أساسية للإسلام.

كان بينهم من يؤمن أن الطاهرة هي التلميذ الوحيد للباب القادرة على التقرير في مثل هذه الأمور، والكفؤ الفريد المستحق للطاعة بين المؤمنين. بينما استنكر آخرون تصرفها وانضموا للقدوس باعتباره الممثل الوحيد «للباب»، وأنه الوحيد القادر على تولي إدارة مثل هذه الأمور الثقيلة.

ومجموعة أخرى شاهدت سلطة الطاهرة والقدوس معًا، واعتبروا أن كل ما يحدث، هو اختبار وترتيب إلهي للتفريق بين الصادقين والمكذبين، وبين المخلصين والخائنين.

ونقل عن الطاهرة في مناسبات أخرى، أنها تجرأت على نفي سلطة القدوس: -

(أنا أعتبره تلميذًا أرسله «الباب» لي لتثقيفه وتعليمه. وليس أكثر من ذلك).

في المقابل، شجب القدوس الطاهرة باعتبارها «مصدر البدع»، وندد بمن يتبعها ووصفهم بـ «ضحايا الخطأ».

استمر هذا الوضع الشائك عدة أيام، حتى تدخل «البها» بطبيعته القيادية، ليوفق بينهما، ويلئِم ما أحدثه الجدال من جراح قاسية بينهما، ووجه مساعيهما نحو طريق «الخدمات الهادفة».

حدث لعدة مرات أن تبادل المجتمعون نظرات الاستفهام والتعجب

معتقدين أن هذين الشابين الغيورين المتحمسين «طاهرة وقدوس» كانا في حالة من الغضب الشديد. ومع ذلك، فدائمًا - عاجلًا أم آجلًا - يعم الحضور تفهّم واضح وقناعة تامة بأن حالات الجدال الساخنة، ما هي إلا وسيلة لتوضيح نقطة البحث ليوصلا الجميع إلى حالة من الفهم والقناعة.

وغالبًا ما بدا، أن نقطة خلافهما تجلب انتباه الموجودين بطرق ذكية إلى أهمية المعاني الروحانية موضع النقاش. ومن خلال صدمة المستمعين، كانا ينجحان في تفكيك التعاليم المبهمة لغالبية الملالي. ومن خلال قوة روح كلمات ‹الباب› المحيية للنفوس والعقول، كانا يحاولان استئصال قوة الكراهية الجامحة الكامنة داخل مفاهيم العديد من رجال الدين المسلمين.

إن القوانين الإلهية، ونقاشاتهم التوضيحية، لا يجب فرضها بالقوة والتسلط، بل من خلال المحبة الإلهية والرغبة بالحياة طبقًا لمفاهيمها.

كانت محاولة مخلصة للاستفادة التامة من أهمية المشورة. هل كان التخلص من الحجاب، علامة على دونية المرأة، كما هو الحال في مثال الطاهرة؟ هل كانت - في الواقع - تود القول أنه لن يكون هناك تمييز بين الجنسين مستقبلًا؟ وإن البشرية واحدة؟

وعن مسرحية السيف الصغيرة؟ هل كان موحى بها أيضًا؟ ألم يوضح ‹الباب› في تعاليمه أن سيفه الوحيد هو «سيف كلمة الله الروحانية»؟

كانت الطاهرة مفعمة بالحياة والحيوية، فبعدما تنتهي من جلسات النقاشات والدروس، تجلس أيضا مع صديقتها وطالبتها قانتة.

تنهدت وقالت ذات مساء: -

ـ (أتمنى أن يتعلموا، كما نحاول كلانا. لقد أخبرت القدوس اليوم، إذا كان قد تناول في نقاشاته تعليمهم معنى النشور والعَود. ثم أخبرت المجتمعين أن هذه الكلمة، تعني ولادة ثانية، واستعملت النبات والبذور كمثال على ذلك، فمثلما تبدو نباتات وبذور الطبيعة ميتة في الشتاء تنتظر موعد الربيع لتشق أغطيتها وتظهر الحياة من داخلها. كذلك تتجدد كلمة الله على ذات الحال، لتعيد الحياة إلى البشر. إنها تعطي مرة بعد مرة، كلما كانت هناك حاجة إليها، فبعدما تبقى هاجعة، تعود للحياة عند مجيء الربيع الروحاني).

ـ (ومثلما هي النبتة كامنة داخل البذرة، كذلك الإنسان يحمل في قلبه بذرة محبة الله وحقيقتها... إن الأحجار مثل بعضها، إلا أن الزجاج يكمن في داخلها... هل انتبهتِ لما أعني؟)

قالت قانتة وهي تنظر إلى وجه الطاهرة المعبّر: ـ (أظن ذلك. ولكنكِ لم تخبريني، كيف استجاب القدوس؟)

ابتسمت الطاهرة وتلاعبت غمازات خديها وعيونها السوداء الجميلة.

ـ (أوه.. قدوس! لقد قفز على قدميه وهو يقول إنه سيخبرهم الحقيقة، وقد فعل. قال إن عودة كلمة الله هي عودة الحقائق، وليس أمرًا متعلقًا بجسد المسيح، بل يتعلق بصفاته؛ هذه الصفات الإلهية التي عكسها المسيح ثم محمد، والآن ‹الباب› المبارك، عكستها جميع المظاهر الإلهية بكمال الإتقان).

علقت قانتة بهدوء وقالت: ـ (سبق وذكرتي من قبل، إن الله تكلم مع البشر من خلال السيد المسيح، وفيما بعد من خلال المصباح المحمدي، والآن يتكلم من خلال نور شمس الحقيقة ‹الباب› المقدس).

ثم همهمت: ـ (لقد أحببت ذلك).

قالت الطاهرة: ـ (عندما يرى الآخرون من خلال تظاهرنا الزائف بمعارضة أحدنا للآخر، وعندما تتوقف مجموعة عن الولاء لي، أو تغضب من القدوس، وتتفوه بكلمات نابية، ثم يدرك الجميع أننا متفقان عقائديًا في الأساس، يكون «البها» راغبًا جدًا للمشاركة في تقدم أعمال المؤتمر. أنا متأكدة، أنه مصدر إلهامنا. إنه يؤثر فينا ويرسم لنا معالم الطريق. في غالب الأحيان، حينما أنظر إليه، أشعر بتشجيعه على شكل ابتسامة خفيّة أو إيماءة خفيفة من التي لا يراها أحد إلا القدوس. أفرح كثيرًا في بعض الأحيان، وأنا متأكدة أن القدوس يشعر بذات الشعور في مثل هذه المواقف).

ثم... جاء اليوم الذي حُسمت فيه العقبات، ووقف البهاء بجلال سلطانه ليشيد بالمؤتمرين على اهتمامهم المستمر. وأعلن صراحة أن دين النبي محمد، قد خطى خطوة إلى أمام، ولكن ظهورًا جديدًا قد جاء من «الباب». وأوضح أنه خلال هذه الفترة من المباحثات والنقاش، قد شُرحت الاختلافات المبهمة بين التعاليم القديمة والجديدة للحقيقة وفهمت.. التجديد، البعث ـ وابتسم ليضيف ـ إحياء الموتى والولادة الجديدة.

حينما ابتعد أولئك المنشقون عن المؤتمر وتوجهوا نحو الشمال، وهم يتفجرون غضبًا وغيظًا، حملوا معهم أوهامًا وتخيلات. كان بعضهم يلوم القدوس، وبعضهم الآخر يلوم الطاهرة، أما الأقل تنورًا والأكثر جلفًا وحماقة، فقد ظنوا أن تصرفات الطاهرة الجريئة وظهورها سافرة الوجه واليدين أمام الرجال، هي دعوة تبيح لهم ارتكاب المفاسد والفسوق. وخلال مسيرتهم ـ والمؤتمر لم ينته بعد ـ ارتكبوا أفعالًا غير لائقة نسبت لعموم المجموعة الدينية في المؤتمر، مما أثار حنق وغضب سكان القرى الصغيرة فوق الجبل.

كان «البها» ينوي الرحيل إلى منزله القديم في مقاطعة نور، وكانت الطاهرة تهم بمرافقة المجموعة. أما زوجة «البها» وأطفاله فكانوا في بيتهم ما زالوا ينتظرون عودته. أما قانتة فكانت في طريقها للعودة إلى طهران.

قالت قانتة وهي غارقة في الحزن بعد أن تقرر فصلها عن المرأة التي تعتبرها أكثر امرأة يمكن محبتها: ـ (ستكونين وحيدة تماما في هودجكِ يا سيدتي).

ابتسمت الطاهرة: ـ (لن أكون وحيدة).

فحينما تجهزت قانتة للركوب والسفر مع حارسها إلى طهران. كان هناك من يساعد الطاهرة لركوب هودج مزدوج مع القدوس. وكعادتها في وداعتها وحنانها، مالت بجسدها خارج الهودج لتشير إلى قانتة بوداع حميم.

قال القدوس ممازحًا وهو يجلس بجانب الطاهرة داخل الهودج: ـ (أهلا وسهلًا بسمو الطاهرة التي تعتبر هذا الخادم المتواضع تلميذها الوحيد الذي عليها تعليمه).

ضحكت الطاهرة غير مهتمة بمن يستمع أو يتساءل عن سبب ضحكها. كانت متأكدة أن ‹البهاء› سيفرح حينما يعلم إنهما مستريحان وسعيدان، فهو يعلم جيدًا بمقدار الألفة التي يشعران بها تجاه بعضهما. ولم يستغربا في الساعات التالية، حينما اتضح لهما مقدار التناغم بين قوى عقليهما وروحانيتهما، وبدا، وكأن الحديث بينهما لا يحتاج إلى تفاسير، وأن كلًّا منهما يعلم أفكار الآخر. وغمرتهما بهجة روحانية هائلة. فمضت ساعات السفر الطويلة، مسرعة والرحلة هادئة منعشة، هدوءًا لطيفًا بعد ارتباكات المؤتمر.

كانا ما يزالا منبهرين لكثرة ما شاركا به من أدوار مهمة في طرح الأحكام والمعتقدات القديمة والحديثة داخل المؤتمر تحت رعاية ‹البهاء›. لقد

كان مؤتمرًا، لم يسبق أن شهدته الأجيال الماضية، ولن يكون مثله مستقبلًا لأجيال عديدة قادمة، لقد اتفقا على مقارنته - رغم عدم اتضاح عظمة المؤتمر في ذلك الحين - بعظمة وهيمنة ظهور مظهر إلهي.

قالت الطاهرة: - (كنا نتشارك عشاءً إلهيًا رائعًا لمدة اثنين وعشرين يومًا. والآن إذا ما أصابتنا بلايا - وستحصل لنا، إذ ليس من طبيعة ديننا الانتصار بسهولة - فستتمكن من تحملها).

علّقَ القدوس موافقًا: - (نعم.. اثنان وعشرون يومًا رائعة. ومع ذلك، فقد كان هناك الكثير من الأمور الجانبية تناولها المجتمعون في جلساتهم المنفردة. كم رغبت إخبارك، كم كنتِ ممتازة في ذلك اليوم، حينما حضرتي كاشفة الوجه، ذلك اليوم الهائج الخطير! كانت تلك أول مرة يمزق فيها حجاب الجهل والتعصب).

فجأة.. ضحك..

فالتفتت إليه تسأله: - (ما يضحكك؟ بماذا تفكر؟)

- (كنت أفكر في شدة ذهول أولئك الرجال حينما دخلتي تمشين بينهم بجسارة مميطة اللثام عن وجهك. لقد فكروا بمدى جنونك... ولكن، فيما بعد، سحرتهم منطقكِ وتفسيركِ الرائع للأوامر الإلهية الجديدة).

لا غرو أن تتحفز قدرات الطاهرة على الإبداع داخل الهودج، تجاوبًا مع وجود الهامات الشاب الروحية، فانفجرت قريحتها لنظم الشعر مثلما لم يحصل منذ عدة شهور. وراحت القصائد تنزل من قلمها واحدة تلو الأخرى، بينما كان الموكب يتحرك نحو منزل أجداد البهاء. أما رفاق طريقها فكانوا مسرورين بتلاوة قصائدها أثناء مواصلة سفرهم.

كان الجو هادئًا ومناظر الأرياف رائعة. لكن تلك المجموعة الصغيرة التي انشقت عنهم وسبقت جمعهم الكبير متجهة نحو الشمال، كانوا قد تركوا سكانًا غاضبين في القرى الصغيرة التي مروا بها، بسبب تماديهم في سوء تصرفاتهم. فلقد اتخذ هؤلاء المخالفون موضوع كشف الطاهرة لنقابها، عذرًا للتجاوز على الحدود التقليدية القديمة، وفسروا تصرفها ليس كخطوة نحو تحرير المرأة لنيل كرامتها، بل دعوة للتحلل الأخلاقي. وبهذا تسببت تصرفاتهم تجاه نساء الريف اللائي مروا بهن، سخطًا وغضبًا انعكس فيما بعد على الطاهرة وجماعتها.

في وقت متأخر لإحدى الأمسيات، وبينما كان الموكب يقترب من قرية نيالا الصغيرة، التفتت الطاهرة إلى القدوس وقالت: ـ (أظن أن قريحتي الشعرية بدأت تخفت قليلًا. لقد كانت جميلة خلال فترة الإبداع، وطالما أصبح هناك مدّ وجزر يأتي ويذهب، أشعر بحاجتي للراحة والهدوء).

نظر إليها القدوس بشيء من الريبة والاكتئاب، وأطال التفكير. ثم قال: ـ (قبل دقيقة فقط، كنت أفكر في الانضمام إلى ملّا حسين، وفكرت بمدى ما سأشعر به من أحزان لفراقك وفراق ‹البها›... هذه الرحلة التي تدبر هو أمرها معكِ، كانت أعظم هدية ثمينة).

رفعت عينيها لتنظر إليه، وهو يكمل حديثه: ـ (إن متعة التعرف عليكِ، ولطافتكِ ورقتكِ، لم تكن إطلاقًا، أقل مقدارًا من قوة لهفتكِ وإصراركِ في نشر عقيدة ‹الباب›).

كان الجو هادئًا ومناظر الأرياف رائعة. لكن تلك المجموعة الصغيرة التي انشقت عنهم وسبقت جمعهم الكبير متجهة نحو الشمال، كانوا قد تركوا سكانًا غاضبين في القرى الصغيرة التي مروا بها، بسبب تماديهم في سوء تصرفاتهم. فلقد اتخذ هؤلاء المخالفون موضوع كشف الطاهرة لنقابها، عذرًا للتجاوز على الحدود التقليدية القديمة، وفسروا تصرفها ليس كخطوة نحو تحرير المرأة لنيل كرامتها، بل دعوة للتحلل الأخلاقي. وبهذا تسببت تصرفاتهم تجاه نساء الريف اللائي مروا بهن، سخطًا وغضبًا انعكس فيما بعد على الطاهرة وجماعتها.

في وقت متأخر لإحدى الأمسيات، وبينما كان الموكب يقترب من قرية نيالا الصغيرة، التفتت الطاهرة إلى القدوس وقالت: - (أظن أن قريحتي الشعرية بدأت تخفت قليلًا. لقد كانت جميلة خلال فترة الإبداع، وطالما أصبح هناك مدّ وجزر يأتي ويذهب، أشعر بحاجتي للراحة والهدوء).

نظر إليها القدوس بشيء من الريبة والاكتئاب، وأطال التفكير. ثم قال: - (قبل دقيقة فقط، كنت أفكر في الانضمام إلى ملّا حسين، وفكرت بمدى ما سأشعر به من أحزان لفراقك وفراق (البها)... هذه الرحلة التي تدبر هو أمرها معكِ، كانت أعظم هدية ثمينة).

رفعت عينيها لتنظر إليه، وهو يكمل حديثه: - (إن متعة التعرف عليكِ، ولطافتكِ ورقتكِ، لم تكن إطلاقًا، أقل مقدارًا من قوة لهفتكِ وإصراركِ في نشر عقيدة (الباب)).



أبيات شعرية بخط يد قرة العين الطاهرة السيدة الوحيدة من بين حروف الحي و أعظم امرأة في تاريخ الدورة البيانية

قالت الطاهرة: ـ (شكرًا قدوس، أنا أيضا سأختزن كنزَ ذكرى اجتماعنا الرائع في هذه الأوقات معًا).

في وقت متأخر من تلك الليلة، حينما نصب (البها) وأصحابه خيامهم قرب قرية نيالا، تحت سفح أحد الجبال، لم تكن هناك أية إشارات على مدى ما تسببت به المجموعة الصغيرة التي سبقتهم من استياء وشراسة ضدهم بين أهل نيالا.

كانوا يغطون في نومهم هادئين تمامًا، عندما انحدرت من سهل الجبل، في أول الفجر، جموع المهاجمين من رجال وأطفال، وهم يرشقون خيامهم بالحجارة والصخور ويصرخون بشتائم قبيحة.

وأول ما انتبه من نومه، أيقظ (البها) القدوس، وناوله بعض ملابسه طالبًا منه الإسراع للاختباء مستفيدًا مما تبقى من الظلام، ثم نادى في طلب المساعدة، وأسرع لتخليص الطاهرة.

استجاب أحد المؤمنين المخلصين الشيرازيين الجدد لندائه، ونتيجة لبسالته وبراعته الفائقة في استعمال السيف، لم تصب الطاهرة بأية جروح. ولم تعلم بهروب القدوس إلا بعدما هدأ الشغب وخف الهجوم.

فيما بعد.. ذهب (البها) لمقابلة رؤساء القرى، وتمكّن من توضيح مقدار قباحة أفعالهم غير اللائقة.

لم تكن الطاهرة تبكي على الشاب الصغير الذي دافع عنها ببسالة، وهي تضمّد جراحه، فلقد كانت جراحًا غير خطرة، لكن بسبب خسارتها رفقة الصديق الألمعي الذي علمت توًا بمغادرته.

كانت عائلة (البها) تنتظرهم بلهفة في «نور»، واستقبلتهم بفرح غامر. وبقيت الطاهرة تسكن معهم. أما بقية الواصلين الذين لم يشتتهم هجوم نيالا، فقد قضوا مدة كافية للاستراحة في منزل (البها)، ثم أكملوا رحلتهم بملابس نظيفة وطعام كافٍ آملين مقابلة (الباب).

ولكن.. بعد وصول الطاهرة و(البها) إلى مدينة نور، سرعان ما وصلهم خبر نقل (الباب) من سجنه في قلعة (ماكوه) إلى سجن قلعة (جهريق). فكان من الواضح أنه ليس في مقدرة أصحابه الإقدام على تحريره[1].

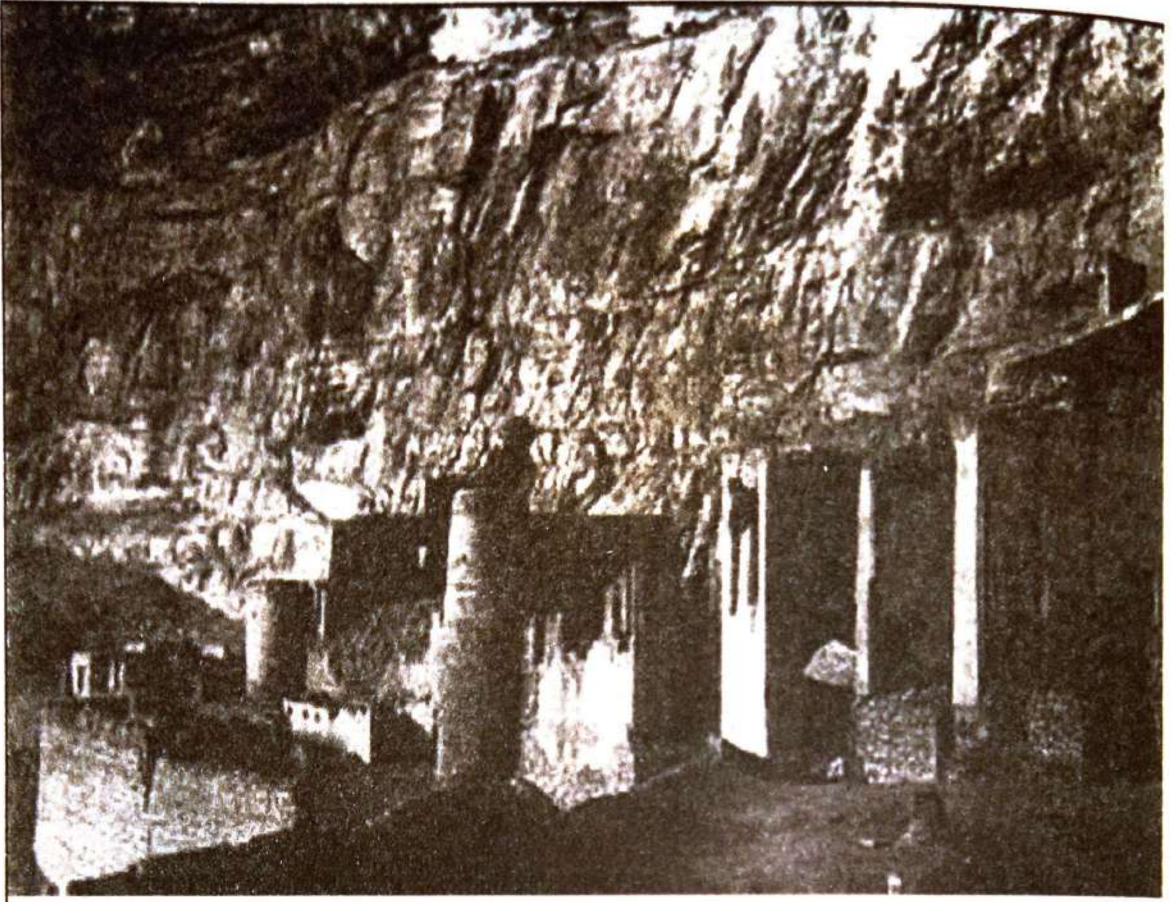
تمتعت الطاهرة لعدة أيام، برفاهية وروعة بيت أجداد (البها)، والذي كان أكثر فخامة وأروع تأثيثًا من قصره في طهران. مستمتعة بصحبة ولده الصغير عباس (عبد البهاء) الذي كان هناك أيضًا. فكانت تصحبه في نزهاتها داخل الحديقة تراقب تصرفاته الناضجة، وتفكر بأولادها، الذين لا بد أنهم كبروا الآن، لكنها فقدتهم إلى الأبد، إلا من ذاكرتها.

يا لهم من أطفال أعزاء.. يا لهم من أطفال محبوبين.. الأولاد الأقوياء، والبنت اللطيفة.

خلال تلك الأيام الأولى في نور، كانت الأخبار المحزنة تتوارد عقب بعضها البعض. في البداية، وصل خبر سجن القدوس في «ساري». ثم وصل خبر وقوع الملّا حسين «باب الباب» أول حروف الحيّ، في اشتباكات خطيرة مع جنود الحكومة والغوغاء من الأهالي، وفشلت محاولة وصوله إلى (الباب) مع راياته السود الخفاقة وتسبب له ولأصحابه بحزن رهيب.

---

(1) ـ كان قد وصل المجتمعين في مؤتمر بدشت، رسالة من (الباب)، تأمرهم بترك هدف تحريره. (المترجم)



أسوار و أبراج سجن ماه كو الذي مكث فيه حضرة الباب
تسعة أشهر (1847-1848م)

ليس بعيدًا عن مدينة بارفروش، هاجم الأعداء جماعة البابيين الصغيرة تحت قيادة الملّا حسين، مما اضطرهم للانسحاب تحت مقاومة مستمرة إلى نواحي مازندران المحيطة، التي وصفها «الباب» «الجزيرة الخضراء».

أما الطاهرة، فلقد شعرت ببعض العزاء والهدوء، حينما أسكت «الباب» من وصلوا إليه أخيرًا من تلك الجماعة المنسحبة مسبقًا من بدشت، والذين تسببوا بالمشاكل في نيالا.



صورة حديثة لقلعة چهريق في آذربيجان الغربية يعود تاريخها لسنة 2009م و هي آخر قلعة نفي إليها حضرة الباب و عرفت في آثاره بالجبل الشديد.

لقد ردَّ عليهم «الباب»: ـ (ماذا أقول؟ بعد أن أسماها لسان العظمة بالطاهرة؟)

في شهر اكتوبر سنة 1848م، شق الملّا حسين طريقه نحو منطقة مرقد طبرسي، حيث تحصن مع مجموعته من البابيين خلف جدران صخرية، قاموا بتشييد حصنها بجهودهم الذاتية على عجل.

ووصلت الأخبار لاحقًا عن شدة معاناتهم من قسوة البرد ومن ملابسهم الصيفية غير المناسبة وندرة طعامهم وأدويتهم.

وكما هي امرأة عملية على الدوام، امتلأت الطاهرة برغبة كبيرة للانضمام إليهم، والقتال إلى جانبهم، إن أمكن.

فسألت «البها»: - (هل يمكنني الانضمام إليهم؟ يمكنني ارتداء ملابس صبي والسفر ليلا. لابد من مساعدتهم. لا بد من زيادة تشجيعهم. إنهم شجعان وموثوق بهم، لكن من المؤكد أن تضطرب قلوب بعضهم أحيانًا. وأكثر من ذلك، يمكنني تشجيعهم على الإيمان بخلاصهم. يمكنني الصلاة معهم للأمر المبارك. لا يجب أن يفقدوا أرواحهم الغالية سدى).

لم يوافقها «البها»، بعدما ذكّرها أنها ساحة معارك، ليس فيها مكان لامرأة ضعيفة، مهما كانت متفانية للأمر المبارك.

وعلى كل حال، فهو نفسه، ركب حصانه فيما بعد ليتوجه إلى قلعة طبرسي، مصطحبًا معه أموالًا ومؤونة، مما جلب الفرح والسرور إلى قلوب المدافعين. وتفقد القلعة ووجدها جيدة، ما عدا أمر واحد: لم يكن القدوس بينهم.

فأصدر تعليماته للملّا حسين، بإرسال سبعة رجال إلى مدينة ساري، للمطالبة بإطلاق سراح القدوس من حبسه.

نجحت مهمة التحرير، وعمَّ الجميع الفرح والسرور.

كانت الطاهرة تنشر تعاليم الديانة البابية بين نساء قرى نور المتناثرة الصغيرة. وكانت تعمل بقلب مستريح، بعدما علمت بتحرير صديقها الطيب والتلميذ العزيز قدوس من سجنه، وسمعت كيف قضى وقته في ساري بالتبليغ، رغم اعتقاله، وكيف نجح في كسب ثلاثمائة مؤمن جديد.

من ناحية أخرى، كانت تعلم جيدًا ما كان يفعله الملالي قدر استطاعتهم على نشر الكراهية ضد البابيين، لأن البابيين كانوا يهددونهم باقتلاع جذور الخرافات والأوهام التي تسلطوا بها لآماد طويلة على عموم جهلاء الشعب الإيراني.

لقد قرر الملالي بإصرار وعناد على (أنه ليس هناك إلا طريقة واحدة لإطفاء نار البابيين والتخلص منهم، وهي ذبحهم وإفناؤهم عن بكرة أبيهم، رجالًا ونساءً وأطفالًا، وأن لا تبقى لهؤلاء المهرطقين الذين يسمون أنفسهم بابيين، شرارة حياة).

برقت عينا الطاهرة وأخبرت طلابها بما يهدد رفاقها من خطر، وقالت: - (رغم محاولاتهم المستمرة لإطفاء نور الشمس، ورغم محاولاتهم إطفاء هذه الشعلة المباركة، فشمعة (الباب) ما زالت مشتعلة).

الفصل الثالث عشر

حينما تبين أنه سيكون هناك مزيدٌ من سفك الدماء في قلعة طبرسي، وأن البابيين سيعانون مزيدًا من برد الشتاء والجوع في قلعتهم المؤقتة، إلا إذا جاءتهم المساعدات سريعًا، وجه «البها»، الطاهرة للعودة إلى طهران.

في الوقت نفسه، جلب موت محمد شاه المفاجئ انتباه الشعب نحو طهران. وهناك كانوا منشغلين بتنصيب الحاكم الجديد على العرش - ناصر الدين شاه - ابن الملك السابق.

بتمحور الاهتمام على أحداث موت الشاه، ومراسم تتويج ولده، كان المتوقع أن الاهتمام بأمر البابيين سيتضاءل وأحوال البلاد ستهدأ، خاصة في شمال إيران حيث المعارك مشتعلة. وبهذا يمكن للطاهرة السفر إلى طهران.

فأخبرها «البها»، بقراره حمل مساعدات وأموال إلى القدوس وباب الباب.

وهكذا تفرقا...

لكن الأمور جرت عكس ذلك، فالهياج والغليان ازدادا ليشملا جميع أنحاء إيران. وحتى مراسم تتويج الوريث الشاب وجلوسه على العرش، لم تكف لتحويل انتباه مجموعة من الهمج من الذين وجدوا أن في دين الإسلام سببًا جيدًا لمضايقة المسافرين.

فحينما شاهدوا الهودج المغطى، ولمحوا أنه يتستر على امرأة، أحاطوا به رافعين حرابهم وأسلحتهم النارية، ملوحين بها مطالبين بالتعرف على شخصيتها ووجهتها.

قال أحد مرافقيها بحماقة متفاخرًا، وقد راعه منظرهم وتهديدهم: - (هذه هي الطاهرة، قاصدة طهران).

ضحك القائد ساخرًا، وعيناه تتطاير شررًا: - (الطاهرة..! أنتم بابيون إذن؟).

قال حارسها بصوت واضح ينمُّ عن شجاعة ألهبت قلب الطاهرة: - (نعم نحن بابيون، تبارك اسم «الباب»).

قال القائد وعيناه الجسورتان تنظران نحو خيمة الهودج، بينما هو يحاول رفع ستارتها، متهيبًا ومتوجسًا أن يكون وجه الطاهرة مكشوفًا: -

(أنتم قيد الاعتقال).

كانت الطاهرة تجلس داخل هودجها ويداها ترتخي على حجرها بوداعة ساترة وجهها.

وكأن الهمجي شعر بوقاحته، فأعاد الستارة إلى حالها، ملتفتًا نحو رجاله يأمرهم بامتطاء خيولهم ومواكبة البابيين، ولكن دون تعريضهم لأذى.

سأله مرافقها: - (ماذا تنوي فعله معنا؟)

- (تسليمكم للسلطات، فمما لا شك فيه أننا سنُكافأ بجزيل العطاء. هناك جائزة لمن يمسك أذن بابيّ. ألم تسمع بذلك؟)

واست الطاهرة مرافقيها، وراحت تخاطب جميع من يلتفون حول هودجها: - (كل خطوة نمشيها، هي في سبيل الله، دعونا نتكلم عن الله..

عن عبادته.. عن تسليم أنفسنا لطريق الحق، بينما نحن نتقدم نحو ما ينتظرنا، اسمحوا لي بإرشادكم لدين ‹الباب›، لطريق النور والمحبة).

وفي منتهى الوداعة - كما هو حالها دائما - سار موكبها وهي محاطة بأصحابها المحبوبين، بينما بقيت ترتل آيات مألوفة لسامعيها من البابيين. كان مشهدًا غريبًا، أن تهتم امرأة، أسيرة، مجردة من أي وسيلة تتخلص بها من رجال يظهرون شدة تعطشهم للدماء، بأمور روحية. كان صوتها الناعم الرنان يصل أسماعهم من خلف الستائر، ليملأ قلوبهم القاسية حزنًا وأملًا غريبين، ويجعلها تشتاق المغفرة لتلطيفها.

لم يخطر في بالهم أن يطلقوا سراح أسيرتهم ذائعة الصيت، ولا أذيتها، أو التطفل على خصوصيتها ولا حتى بلمحة بصر مجردة.

وبهيبة المنتصر - ونادرًا ما يكون الانتصار هكذا - دخلت الطاهرة طهران.

اقتيدت ومجموعتها البابية فورًا إلى القصر الملكي، حيث كانت الطاهرة ذات مرة - منذ زمن بعيد كما يبدو الآن - تأمل برؤية الشاه السابق، لتخبره عن قصة دينها الجديد. في ذلك الوقت، كان إخوتها هم المعترضين وهم الذين «حولوا مجرى النهر»، كما قالت: «إلى مجرى جديد». مغلقيه لبعض الوقت في مدينة قزوين، قبل أن يحررها ‹البها›.

لم يتركها الملك المتوج حديثًا، تنتظر كثيرًا، فأرسل في طلبها، متجاهلًا رفاقها من الرجال. وبكل ما يمكن لجسدها المتعب التحكم به من مهابة ووقار، مشت بين خادمين يستهزئان بها وهي تخطو خلال قاعة صغيرة فاخرة حيث يكون قصره مفتوحًا.

كان الخدم لا يتكلمون اللغة الفارسية، لكنها كانت تفهم عليهم،

باعتبارها أمضت شهورًا طويلة تحت حكم الأتراك في العراق. وعلمت أيضًا، إن ناصر الدين شاه، كان يحسن اللغة التركية أكثر من الفارسية.

أخبر الخدم مرافقيها بالانتظار حتى يُعلن موعد مقابلتها. ثم أمروهم بالانصراف بعدما أدخلوا الطاهرة. ومرة ثانية، سارت بين الحرس إلى باب كبير ذي أعمدة مرصعة يؤدي إلى صالة الانتظار الرسمية للملك الشاب.

بعدما علا صوت آمرًا، فُتح الباب، فأشار لها الخدم بالدخول، ثم أغلق الباب خلفها.

شاب ضامر، يجلس على كدس من المخاد، نظر إليها بعينين جاحظتين مثل مصباح بألوان مختلفة، ذكّرتها بعيون نمرٍ. حاجباه السوداوان الغليظان امتدا إلى فوق أنفه الدقيق الطويل؛ وشفته السفلى حادة بارزة، ذقنه أنثوي، وحمرة شاربيه تبدوان كما لو أنهما صبغتا بالحناء تحاولان تثبيت استقرار ضعف جزء وجهه السفلي. كل ذلك أثار انطباعًا قويًا لدى الطاهرة.

هنا فكرت أنه وجه شاب مدلل يبحث عن رغباته، غريب الأطوار متبلد. فلم تتوقع منه أي تعاطف مع الديانة البابية.

انحنت خفيفًا دون قول شيء، بينما نهض ببطء وتمطى بحركة وجدت فيها تشابه مع حركة القطط تمامًا، وكانت هذه حالته حينما بدأ يدور حولها يتدبر موقع وضع حذائه الصغير الجميل بدقة واحدًا تلو الآخر، كما لو أنه كان يتراقص حولها.

- اسمكِ؟

- طاهرة.

- أنتِ بابية؟

- أبحث عن الحقيقة.

- لقد تسببتِ بشغب عظيم في جميع أنحاء إيران، أنتِ وجماعتك البابيين. عليّ بقتلهم جميعًا! هل تعلمين ذلك؟

- اعلم أن قتلهم لن يدمر الدين المقدس الذي وهبوا أنفسهم له. فذلك سيزيد من قوته.

خفض نظره نحوها بصبر نافد وقدمه تنقر السجادة بصوت خفيف.

- وصل علمي أنكِ تكتبين الشعر.

- نعم أفعل.

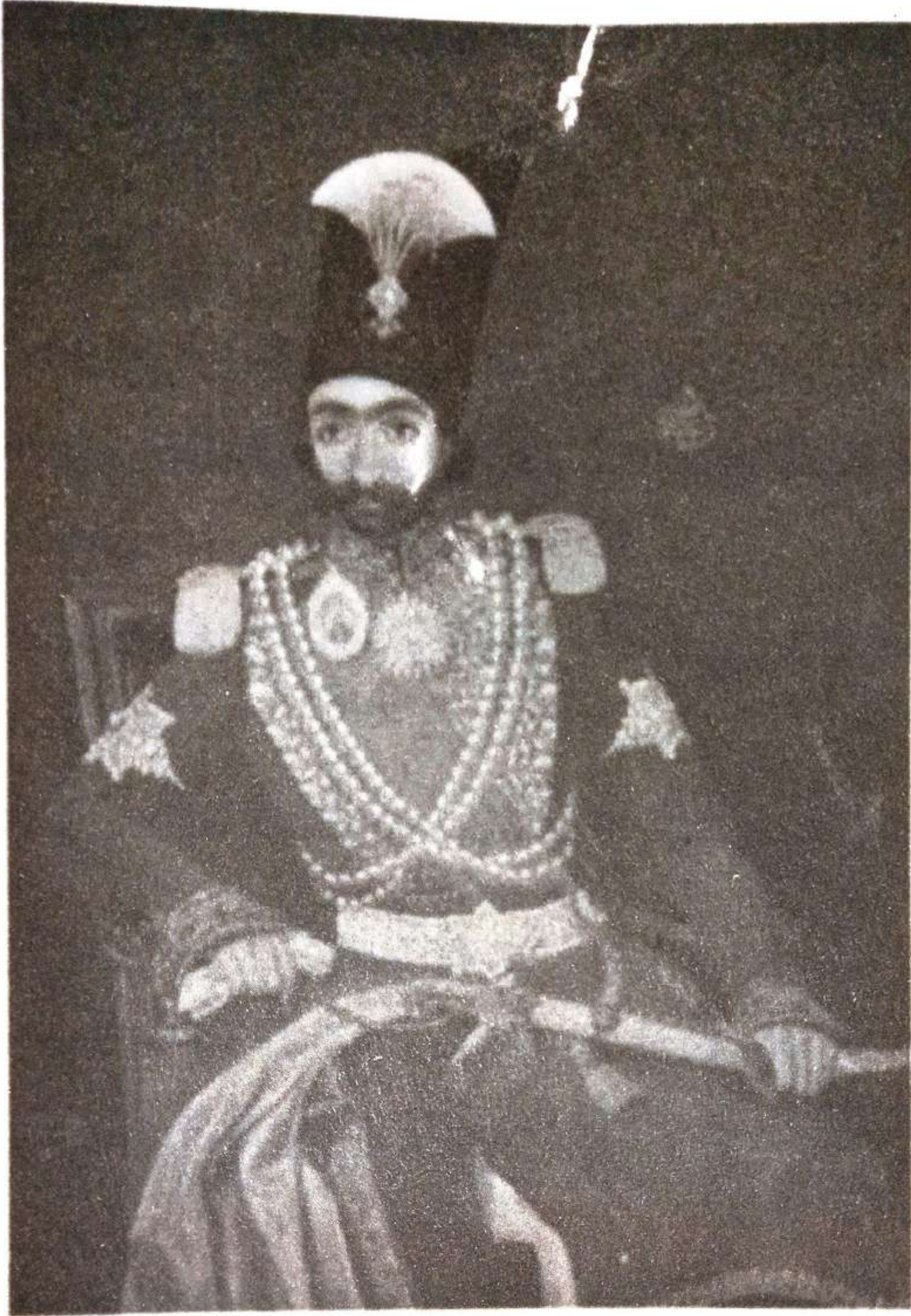
- أتوقع منكِ أن تقرئي لي شيئًا منها.

- سيكون ذلك شرفًا لي. جلالتكم.

- ووصلني أيضا خبر آخر، أنكِ كشفتي الحجاب عن وجهكِ في بدشت.

- الحجاب طراز عتيق. إنه مسألة تقاليد فقط. فكما تعلمون بالطبع، ليس هناك في قرآن النبي المقدس شيء يجعل من الحجاب ذو أهمية. إن تحرر المرأة يلوح في الآفاق.

أشار الملك إلى الحجاب، بحركة رشيقة من يده ذات الخاتم الأنيق.



ناصر الدين شاه وقد اعتلى عرش البلاد أكتوبر سنة 1848م

لم يكن قد سُمح للطاهرة بالاغتسال وارتداء ملابس نظيفة قبل موعد المقابلة. لكنها رفعت الحجاب بشجاعة. كانت عيناها السوداوان مليئة بحماسةِ مهمتها الدينية، فالتقتا بعيني حاكم إيران بهدوء وشجاعة.

وبدون أن تظهر عليه معالم التهكم أو الاندهاش، إذ يبدو أنه استحسن رؤيتها متعبة بوجه جميل منور بمعالم العزيمة. ارتفع حاجباه الغليظان، وجابت حدقتاه ملامحها تدور بتمهل، بينما اجتمع شارباه وزمَّ شفتيه.

التفت إلى خادمه الواقف قريبًا، وهو يضع يده على مقبض سيفه، وقال: -

(أعجبني منظرها. دعها تبقى هنا).

اصطُحبت الطاهرة إلى قسم الحريم، وقُدمت لها ملابس جميلة، وخادمة ساعدتها في إزالة وعثاء سفرها المتعب الطويل من مازندران. وخلال تلقيها الخدمة اللطيفة من الشابة الصغيرة ذات العيون السوداء، تلقت منها نبأ عدم تحقق مهمة ‹البها› لمساعدة المحاصرين من رفاقها. فقد سبق وعلمت إنه حاول أخذ مؤونة وتجهيزات إلى قلعة طبرسي، حيث القدوس وملّا حسين يترأسان حفنة البابيين المستميتين. والآن وصلها خبر فشل محاولته.

همست الخادمة: - (قالوا أنكِ بابية، أنا.. أيضا، أحب الشيرازي الشهير ‹الباب›. أنا من أهل مدينته، ووجودي هنا ليس برغبة مني).

حذرتها الطاهرة: - (انتبهي.. فبقية النساء يراقبننا).

ضحكت البنت ودارت بظهرها نحوهم: - (نعم سموَّكِ، الآن لن يستطيعوا رؤية وجهي. لقد أوصاني أحد الطهاة أن أقول لكِ أن ‹ميرزا حسين علي› الطهراني، قد ألقي القبض عليه، وأخذ إلى سجن في آمول. لقد ضربوه بالفلقة).

جفلت الطاهرة، كما لو أنها هي التي تلقت ضربات العصا القاسية

أسفل قدميها العاريتين. وقفت منتصبة لثوانٍ دون حراك وقد تحول العالم قاتمًا من حولها، وشعرت بحلقومها ينتفخ بما يكبته من دموع.

همست: ـ (بارك الله بكِ، صديقتي الصغيرة، سأنتظركِ. لتخبريني عن كل ما يصلك من أخبار بخصوصه، وعن «الباب» المبارك).

كانت تعلم جيدًا حاجتها الشديدة للبقاء قوية لا تقهر، رغم قلقها الشديد على سلامة «الباب» في سجنه، وسلامة «البها» في آمول، أو في أي مكان آخر نقل إليه، إضافة لقلقها على الرجال المحاصرين في قلعة طبرسي من الذين تبعوا الرايات السود إلى هناك.

فوقفت تذكّر نفسها: ـ (عليّ بمواجهة محنتي بشجاعة؛ عليّ أن أكون شجاعة كالرجال. فمن يعلم مدى أهمية كلمات قليلة في وقتها المناسب؟)

مضت عدة أيام، قبل أن يستدعيها الشاه إلى الحضور الملكي مرة أخرى. هذه المرة، ذهبت معطرة ترتدي ثيابًا ملكية، شعرها الكثيف ممشط يبرز بشرة بيضاء متلألئة، كما هو عقد اللؤلؤ على جيدها.

كان الشاه المتفاخر يرتدي هو أيضا ملابس أنيقة. حذاؤه لامع، بنطاله مخطط بشريط ذهبي على الجانبين يغطي قدميه تمامًا؛ سترته مزركشة بأصداف ذهبية، حزام ضخم مثبت على وسطه قطع من الألماس والزمرد، وشريط آخر من الألماس مشبك على قبعته الطويلة.

كان واقفًا وقد ثنى إحدى ركبتيه قليلًا، واضعًا يده على مقبض سيفه المرصع، وبغطرسة، راح يتفحص المرأة الأسيرة التي أعلن عن دخولها إلى محضره.

قال: ـ (يا عدوتي الجميلة، يا عدوة إيران ودين الإسلام، لماذا أنتِ

لستي بشعة مثل ما يحدث من أفعال بسببكِ؟ هل تعلمين أن أصحابك بدأوا يتضورون جوعًا ببطء شديد حتى الموت في قلعة طبرسي؟ هؤلاء التعساء الذين يعانون بشدة للبقاء على قيد الحياة من قساوة البرد وأمطار الرصاص المنهمر عليهم من جنودي).

ردت الطاهرة بروحانية عالية: - (إن نجاتهم حتى الآن، دليل كافٍ على تدخل الله لنصرتهم).

انفرجت عينا الشاه بفرح لهذا الجواب، مثل قطة كبيرة تبدو أنها تتمتع بالعبث مع عصفور صغير ضعيف يغرد نحوها بتحدي.

- (إنهم مجموعة أوباش تعساء. شيوخ وتلاميذ، لا يوجد بينهم جندي واحد. إن من واجبي.. من واجبي!.. إبادتهم جميعًا).

ثم نظر إليها وعيناه تحاولان اختراق النقاب والوصول إلى عقلها من خلال عينيها غير الهيابتين. وأكمل كلامه: - (من المحتمل أن لكِ عاشقًا في مازندران؟ إيه؟ لا؟ ألست خائفة؟ هل تودين الموت؟ أم إنكِ مستعدة، يا عدوتي الجميلة، لتتراجعي عن إيمانك وتعيشي؟)

كان رأس الطاهرة مرفوعًا حينما قالت: -

- (لن أنكر إيماني).

نظر إليها مبتسمًا بسخرية، رافعًا أحد حاجبيه، يشدّ شاربه جانبًا، وينتظر.

رفعت الطاهرة حجابها متجاهلة تهديداته، رغم أنها هزتها سرًا من الأعماق، وقالت: - (جلبت معي بعض قصائدي. هل يعجب جلالتكم أن أقرأ لكم شيئًا منها؟)

أجاب، كما لو أنه لم يتفوه أبدًا تلك الكلمات الشريرة قبل ثوان قليلة: -

(بكل سرور. تعالي اقتربي واجلسي بجانبي. فصوتك مثل خرير جدول مياه صغير، تتساقط قطراته على حصاة ملساء تضحك في الظلال، وبين الحين والآخر، تقفز مبتهجة أو تصرخ على حافة الجرف).

قالت الطاهرة وهي تجلس وتفتح لفافة أوراق قصائدها: -

(ها أنت تقول شعرًا. يبدو أنك مهيأ لأمور أخرى غير شن حرب على الضعفاء من الرجال والنساء من الذين لم يفعلوا شيئًا يضرك).

وقبل أن يرد على ملاحظتها الهازئة، بدأت بالقراءة.

- *«بانت بوارق وجهكِ*

- *وعلت أنوار طلعتكِ؛.....»*

(بهدوء، مال الملك إلى الخلف ليتكئ، وينصت بعينين شبه مغمضتين).

- *«... طبول الإخلاص قرعت*

- *فلمحتُ أقدام وخيام مصيبتي على أبواب قلبي.»*

(نهض الشاه متكاسلًا ليقول بصوت يملأه خبث دفين: - يبدو جليًا أنكِ شاهدتي «خيام المصيبة». لقد أمرت بنصبها حول أصحابك البابيين في قلعة طبرسي... استمري بالقراءة..).

«تقيد لهفة محبيك ألم ومصيبة

وبحماسة تخلى كسيري قلوب محبتك عن حياتهم.

محبوبي يشهر سيفه بغية ذبح عصمتي،

فأقنع إن أرضته نزوة ظلمه،

يأتيني ذلك الساحر القاسي في قيلولتي

فكأني أرى أنوار الفجر في جلال محياه؛

عبير الصين قد ينال عطرًا من شذى ضفائره،

بينما تهدم عيونه هجمات وثنيي التتار الفاشلة.

أنت الذي تحتقر الحب والخمر معًا في صومعة ناسك ومعبد راهب،

ماذا يمكن أن أفعل؟ وبشرورك تواجه دين إلهي؟

غايتك.. تجاعيد خصلات شعرك، وسرج وجواد.

ليس للمطلق مكان في قلبك، ولا لفكرة فاقة فقير.

لكَ أبهة الإسكندر، ولي طريق وعادة الكلانتر.[1]

يكفيني.. إذا سرَّكَ سوء حالي، فأنسحب.

هجرتَ أرض «أنا» و«نحن»؛ وجعلتَ موطنك الفناء،

حققت منتهى درجات السعادة، منذ أقدمت دون خوف.»

***

ثم.. راحت رخامة الصوت تدنو من الهمس حتى تلاشى...

.. رتبَّ الشاه جلسته وعيناه تومضان، ثم قال: -

«يا لكِ من امرأة! أشك أن هناك امرأة أخرى مثلك. لكن، ما معنى كل

(1)- رئيس الشرطة

هذا؟ في البداية شعرت أنكِ تترنمين بقصيدة غزل لي. «الفاتن الوحشي»، «جاءكِ في وضح النهار»، «شعره يقطر عطرًا عليكِ»، «عيناه تنقذانكِ من الإيمان الهرطقي».

ثم استدرتِ لتتهميني.! «تموج تجاعيد خصلات شعر حبيبي»؟ آه..! هل أنتِ غيورة، مثل بقية النساء تحت الشمس؟ وإشارتكِ إلى العمدة، من أخبرك أن قصر العمدة سيكون سجنكِ؟ هل كانت النساء يتكلمن؟ هل أخبرنكِ عن غيرتهن؟ سيقتلنكِ يا طاهرة. طاهرة البابيين. هل تعلمين ذلك؟ هذا هو سبب إصداري أمر احتجازك في بيت العمدة، لتكوني في أمان تحت إشراف زوجته).

صعقت الطاهرة، وكأن طعنة نجلاء مفاجئة اخترقت جسدها.

كيف علمت؟ يبدو وكأنها تعلم بقية الأحداث القادمة. لحظة تبصّر وإيقان. هذا دليل على رؤاها الروحانية.

استند الشاه بتراخٍ على أحد مرفقيه، يتفحص وجهها، وعيناه مثبتتان على شكل شفتيها الحمراوين الممتلئتين الجميلتين. وبدا وكأنه يبتغي التعليق حينما قاطعهما الحارس.

نظر الشاه نحوها بحدة، وعدل جلسته، ثم قفز على قدميه تاركًا الغرفة.

ومع أن كلمات سخرية الشاه المزعجة ما زالت ترن في أذنيها، إلا أنها نهضت ببطء تتساءل في نفسها، إذا كان بإمكانها العودة إلى غرفتها؟ ثم تزاحمت أفكارها. (بهاء)..! لقد قال إن (البهاء) ضرب بالفلقة على قدميه. يا له من أمر مرعب؟ وعن معاناة المحاصرين المروعة في قلعة الشيخ طبرسي. لا طعام.. لا ملابس دافئة.. لا وقود يدفئهم ليقيهم البرد القارس. لا شيء..!

طرق سمعها عن قرب شيء من الهمس، فترددت لبعض لحظات، لكنها شعرت بمؤازرة سطوة البهاء؛ وبظهر منتصب وأفكار هادئة، مشت بفخر واعتدال، متأكدة أنه رغم معاناة أجساد أبطال طبرسي، إلا أن أرواحهم يستحيل أن تتهاون.

انحنت للصلاة حال عودتها لغرفتها. وبانفعال شديد طلبت التأييد والمساعدة الإلهية. وباسترجاعها روحانيتها، بدأت بالشكر لله، لما ينزله عليها من شآبيب الشكر والمحبة.

كانت هناك حركة خفيفة دعتها لعطف رأسها.

ولفرط تعجبها، وجدت مجموعة من حريم الشاه قريبات منها، يستمعن لها بشوق وذهول، ووجوههن متوجهة إليها كأزهار تتطلع إلى الشمس، بشفاه منفرجة كما لو أنهن يشربن من كل كلمة، ماء الحياة.

***

حدث أمر نقلها من القصر إلى منزل العمدة بهدوء. ولكن.. رغم ركوبها هودجًا مغطى، إلا أن الناس تجمهروا طوال الطريق حيث كان يقاد حصانها، يحاولون الحصول على لمحة منها. كان مقامها في قصر الشاه، إضافة لإقامتها القصيرة في قصر «البهاء»، قد جلب انتباهها بشكل واضح إلى اهتمام الحكومة والجماهير بها.

بوصولها إلى قصر العمدة أو رئيس البلدية، جاءتها امرأة مؤدبة للترحيب بها.

فقدمت نفسها بصوت لطيف: ـ (أنا «رُبابة» زوجة المحافظ).

ـ (تفضلي... اسمحي لي أن أهيئ لكِ ما يبهجك ويريحك حتى عودة زوجي ليخبرني أين سيكون مقامك).

انتبهت الطاهرة فورًا لمشاعر المرأة تجاهها، لقد كان مثل بلسم مهدئ بعد ما قاسته من آثار الريبة منذ تركت بيت ‹البهاء› في نور في جبال مازندران.

مازندران...! لا يمكنها التفكير بسهول ومراعي ذلك الجبل الجميل دون أن يراودها القلق على محاصرة أولئك الرجال في قلعة الشيخ طبرسي؛ وعلى مستقبل عباس ذي الوجه الجميل الواعد.

هل جميعهم سالمون..؟

وبينما هي على هذه الحال تتساءل مع نفسها، إذا بُربابة تسألها: ـ (أنا متأكدة برغبتك لمعرفة أخبار أصحابك ممن يقاتلون قوات الشاه في مازندران. لقد سمعت اليوم في هذا الصباح، بعض الرجال يخبرون زوجي، أنه كانت هناك معركة رهيبة. وأصيب قائد البابيين في فمه، لكنه سيعيش).

سألتها الطاهرة متلهفة: ـ (قدوس؟)

أجابت زوجة المحافظ الودودة: ـ (لم أسمع اسمه، إنه لمن المؤسف جدًا أن يتقاتلوا. ليس هناك أمل أن يكسبوا هذه المعركة غير المتكافئة).

أجابتها الطاهرة: ـ (غايتهم حماية أنفسهم، لذا فقد يتمكنون من الاستمرار في عملهم لتجديد روحانية البشر. إن الشاه لن يفهم أنهم لا يهددون عرشه، ولا يرغبون في الانقلاب على سلطته. فأمرهم يتمحور حول ظهور القائم الموعود. هذه قضية دينية، وليست مسألة مفاخرة دنيوية).

كان صوتها هادئًا، خاليًا من دلالات الخوف. مثلما تتكلم دائما بطريقة توحي لسامعها بالبراءة والجمال وعمق قدسية الدين الجديد.

بسماعها هذا الكلام، انبعثت روح حياة في وجه رُبابة الصافي الجاد.

ثم نظرت إلى الطاهرة وقالت: ـ

ـ (سأفعل كل ما بوسعي من أجلكِ. رجاءً.. ناديني واطلبي ما تشائين مني. لقد سمعت الكثير عن قدراتك وعلمك وفصاحتك. وأدركت الآن أن ما سمعته عنكِ، لم يكن كلامًا بلا معنى. من المؤسف أن لا أستطيع القول: ـ «اذهبي لسبيلك، أنتِ حرة». لكن أوامر الشاه يجب أن تطاع؛ جلالتكِ).

أجابتها الطاهرة وهي ترفع نقابها وتقدم لصديقتها الجديدة ابتسامة حارة: ـ (أتفهَّم ذلك، فأنا لا ألومك. على الإنسان طاعة الأوامر. أوامري تأتيني من ‹الباب› المقدس. وواجبي هو نشر أمل اليوم الجديد، والتبشير بتمزيق حجبات الجهل وكسر قيود كبت النساء).

قالت رُبابة: ـ (هناك الكثير من النساء في طهران يرغبن سماعكِ، فهل لديكِ وقت للحديث مع صديقاتي؟)

أجابتها الطاهرة بتعبير ساخر: ـ (الوقت... هذا كل ما أمتلكه هنا. ادِعهنَّ للحضور).

وهكذا.. فبعد استقرارها فورًا ـ ورغم حبسها في البداية في غرفة على السطح، لا يمكن دخولها إلا بارتقاء سلّم خشبي متحرك ـ بدأت الطاهرة فورًا بإعطاء دروسها. كانت السيدات يقفن في باحة تحت أسفل غرفتها على سطح البيت، بينما تكلمهن من خلال شباك صغير عالٍ في غرفتها.

دام هذا السجن القاسي فترة قليلة. وربما بتدبير من زوجته، أو نتيجة التفكير بكثرة أعداد النساء اللائي كن يحضرن يوميًا لسماع السجينة، أمر المحافظ الفظ، قاسي القلب المشبع برغبات الغرور والتفاخر للظهور بمظهر محترم في عيني الشاه، أمر زوجته رُبابة بتجهيز جناح أفضل للطاهرة مع غرفة خاصة في الطابق الثاني من بيته.[1]

قالت رُبابة للطاهرة والسعادة تغمرها: ـ (أنا سعيدة لكونك أصبحت جزءًا من عائلتي، وآمل أن تتعطفي بمساعدتي في تدبير حفلة خطبة ولدي الكبير. نود أن تكون حفلة حقيقية جميلة. فالفتاة محبوبة جدًا، وجميع زوجات أصدقاء زوجي سيأتين لزيارتها).

كانت الطاهرة سعيدة بهذا التغيير؛ لكن سرعان ما تحولت الحفلة لتصبح الطاهرة مركز اهتمام جميع الحضور. فأهمل سماع عزف الموسيقى، وأبعدت السيدات صحون المكرزات وكؤوس العصائر من أيديهن ليتوجهن مفتونات ومسلوبات اللب من كلمات هذه الشخصية اللطيفة صغيرة الحجم مبعوثة (الباب).

وبانتهاء الحفلة، عدن إلى بيوتهن وفكرة واحدة تسيطر على عقولهن: أن النساء قد خضعن وحُكمنَ بقانون إسلامي جائر كما هو جارٍ حاليا، لكن

(1) ـ قالت مارثا روت: ـ لقد قرأت في أحد كتب التاريخ أن جناب الطاهرة سجنت في غرفة صغيرة منفردة في البداية فقط، ولأن نساء رئيس الشرطة أحبوها بدرجة كبيرة، طلبوا منه أن تنزل لتعيش داخل البيت معهن، فكان لها غرفة فيها شرفة في الطابق الثاني من المنزل. ويعتقد أنها سكنت هناك لمدة ثلاث سنوات أو أكثر، وبما أن الحبس لم يكن صارمًا، فقد استطاعت مقابلة العديد من الناس ممن جاءوا تحت أعذار مختلفة لاستماع أحاديثها. (المترجم).

باعتناق دين جديد يدعو للحرية، ستهمل جميع العادات البالية القديمة إضافة إلى ترك الحجاب.

ورغم انكسار قلبها حزنًا على رفاقها الذين يعانون من البرد والثلوج في قلعة طبرسي، إلا أن الطاهرة ملأت قلوب سامعيها بالبهجة عن الديانة البابية وتعاليمها. وقد انتابتها غصة واضحة وتجمعت الدموع في حلقومها، إلا أنها قاومت لابتلاعها، بعدما أشرق وجهها بقناعتها الثابتة رغم حزنها على أولئك الذين ترنو رغبة لتقديم حياتها فداءً لهم. وقالت تخاطب الحضور: -

- (كنَّ مستعدات دائمًا لتقديم الشكر والثناء لجزيل نِعم الله للبشر. امضوا بقلوب مسرورة، قدموا الفرح والأمل للآخرين مهما كانت أشكال صعوبة طرقكنَّ).

بهذه الحكمة كانت تنصح صديقاتها من البابيات، من اللائي كنَّ يتوافدن لرؤيتها باستمرار؛ طالما لم يكن للمحافظ اعتراض.

كان ذلك في نهاية شهر فبراير، عندما تسلمت نبأ مقتل الملّا حسين نتيجة إصابته السابقة.[1] والآن وقد شفي القدوس من جراحه، فقد بقي القائد الوحيد في قلعة طبرسي.

- (الأمور تجري هناك بشكل سيء جدًا).

هكذا أخبرها المراسل القادم من أرض المعركة.

- (المحاصرون يتضورون جوعًا. فمن شدة الجوع أكلوا حصان الملّا

(1) - قتل جناب الملاّ حسين «باب الباب»، حال إصابته برصاصة في فمه. (المترجم).

حسين بعد مقتله، لقد أخرجوه من حفرته، بعدما دفنوه احترامًا لقائدهم. إن أعداد القتلى من البابيين تزداد كل يوم داخل القلعة. لقد قتل حتى الآن قرابة المئة.

وبينما الدموع تنزل على خديها المنكمشين، أكمل المراسل: - (إن القدوس يعتمر الآن عمامة (الباب) الخضراء. آه.. صلّي من أجل أبطال الله، فمن المحتمل أن يقتلوا جميعًا قبل انتهاء الحصار).

كلما سمعت الطاهرة أخبارًا عن أصدقائها المحاصرين، تزداد محاضراتها بملاحظات أكثر عمقًا وعجلة، كما هو حال مشاعرها الآن بضرورة مخاطبتهم جميعًا... تلاميذ الباب الذين بحصارهم انقطعوا عن تعاليم الحق الواحد.

دائمًا، كلما أخبرت جلاسها عن الباب، تغمرهم بالذهول. أخبرتهم كيف أنه لم يكن بحاجة إلى إرشادات معلمين خصوصيين في طفولته، لكنه كان يتكلم من علمه اللدنيّ، وكيف أنه بعيد عن مهاجمة الإسلام، كان يهاجم تجاوزات رجال الدين؛ وكيف كان قادرًا في نقاشاته التغلب على كبار علمائهم وعمره أقل من عشرين عامًا، ليثبت لهم عدم إخلاصهم لتعاليم عقيدتهم.

أخبرتهم.. كيف أن ذكريات محاضراته المُلهَمة حركت حتى أشد المسلمين المتعصبين، وملأتهم بنوع من الرعب، علاوة على الأمل بيوم أفضل.

وأخبرت نظارها الولهين كذلك، أنه واستنادًا على الذين سمعوه، أن بلاغته نوع غير طبيعي. وأن هناك دائما تأييدات غيبية تحيط به؛ أمر قدسيّ دفعه للاهتمام بالعامة وترك والدته وزوجته وأقربائه فقط لإنجاز ما يعتبر رسالته الدنيوية.

لقد قدمت لهم الباب كرسول حقيقي، ثابت مستقيم، نور مشرق في الجنان، مثل أعلى يُجاهَد في سبيله. كان مستمعوها يستغرقون بعيدًا في عوالم روحانية متناسين أنفسهم، طافحين شوقًا ورغبة للتمثل به ولبذل أنفسهم لحماية حقيقة ما يدعو له. فلقد شعروا أن هذه الأسرار التي تقدمها هذه المرأة الضئيلة بصوتها الجسور ومقامها العالي، إنما تكشف أمامهم حقائق إلهية دامغة.

بقيت تواصل محاضراتها دون انقطاع، حتى وصل خبر مقتل القدوس في شهر مايو. بطريقة شنيعة ذات مراحل مرعبة في مسقط رأسه مدينة بارفروش.

قال الشاب الجالس عِند قدميها، بشعره الأشعث، وهو يلهث، وعليه ثياب قذرة ممزقة بالية من كثرة ما أصابه من جراح المعارك الكثيرة. كان يبدو ضعيفًا كهيكل عظمي مغطى بالدماء غير قادر على الوقوف: ـ

ـ (لقد أحاطونا بالقنابل، بينما نفدت ذخيرتنا، ولم يتبق بين أيدينا إلا الحراب والخناجر، فنظرت إلى خيام الأعداء وتساءلت إذا كان بإمكان أحدنا أن ينجو ليُخبر ما أقوله لكِ).

همست الطاهرة: ـ (نعم.. الخيام.. خيام البلايا والمصائب.. لقد رأيتها منذ زمن بعيد).

نظر إليها بعينيه البائستين دون أن يدرك ما رمت إليه، وابتلع ريقه بصعوبة ثم استأنف حديثه: ـ

ـ (لقد نجحنا مرارًا.. لم نكن نهزم على الدوام. لقد تغلبنا عليهم لسبعة شهور. أخيرًا، كانت هناك خيانة. لقد غُدر بالقدوس. لكن قبل ذلك اليوم، كان قد حذرنا أن نهاية الكثير منا ستكون قريبة. وقال يخاطبنا، لا تهابوا

تهديدات الأشرار، ولا ترتعبوا من صيحاتهم الفاحشة؛ لكل منكم ساعة منيّة محددة. أما هو، فكانت منيته في موطنه).

كانت الطاهرة قد طلبت الشاي، وها قد وصل..

فقاطعته وقالت: ـ (تفضل.. اشرب).

كان قلبها يدمى على الرجال في القلعة. وعلى القدوس، الرجل الباسل المتحمس القوي. قدوس الذي أحبته، لشخصيته المقدسة، ولمحبته وعشقه لدينه الذي قدمت نفسها لخدمته.

ارتشف الشاب الشاي وهو يبكي، وعندما سيطر على نفسه، قال مرة أخرى: ـ

ـ (لقد أقسم الأعداء أغلظ الأيمان. أقسموا بالقرآن الكريم وكتبوا عهدًا على غلافه الداخلي، بأن القدوس سيكون في أمان حين التفاوض معهم. فذهب إليهم وهو مصدقٌ قسمهم. ثم عادوا وأرسلوا خبرًا آخر لأشخاص بأسمائهم داخل القلعة، أنهم سيسمحون لهم بالانضمام إليه. فذهبنا.. ذهبنا، وإذا بهم يقتلوننا ويستعبدوننا. لقد باعوني، والآن فقط هربت من سيدي).

ـ (وماذا عن القدوس؟)

ـ (نعم سأخبركِ. لقد تُرك عدد قليل من أصحابنا في القلعة، حينما بدأ القصف من جديد. فتفجرت القلعة إلى فتات حجارة متناثرة).

امتقع وجه الطاهرة وتحول لونه أبيض، كما هو لون ردائها ذلك اليوم. وقالت بلطف: ـ

(استمر.. الموت هو الموت. المرء يموت مرة واحدة. لا أكثر).

أخذ نفسًا عميقًا حتى توسع أنفه.

(سطَّر الأعداء رجالنا على الأرض. لقد رأيتهم يفعلون ذلك. سطّروهم ومزقوا بطونهم وهم يضحكون. ضحكوا لأنهم شاهدوا حشائش خضراء داخل أمعائهم لم تهضم بعد. كانت بعض نسائنا تقف جانبًا تنتظر.[1] فأحاطوا بهم وقتلوهم. بعضهم قطّعوا بالفؤوس إربًا، وعلَّق البعض على أغصان الأشجار واتخذوا منهم أهدافًا للتنشين ببنادقهم. بعضهم رمي في نيران ملتهبة وهم يصرخون. أوثقوا أحدنا وأدخلوه فوهة مدفع.. وأطلقوه).

- (القدوس...؟)

كانت الدموع تنهمر بغزارة على خديّ الطاهرة. وشفتاها ترتجفان. وراح نفسها يتقطع.

- (لقد جردوه من ملابسه. وأسقطوا عن رأسه عمامة الباب الخضراء، ليلوثوها ويلطخوها بالأوساخ. ثم كبّلوه بسلاسل الحديد، وقادوه أمامهم يستعرضونه، بصقوا عليه.. ضربوه.. لطموه حتى بدى كتلة من الدماء. ثم قطعوا أذنيه. لكن لم تصدر من فمه كلمات نابية. ولم يدِنهم. كان يلهج بالدعاء من أجلهم، وحينما أمسى ضعيفًا جدًا غير قادر على الكلام. همس بصمت ضعيف: - «أغفر يا إلهي خطيئة هؤلاء. عاملهم برحمتك.

---

(1) - استمرت المعارك 11 شهرًا. وحينما أمر القدوس بإغلاق باب القلعة على المتحصنين داخلها في بداية المعارك، كان عددهم 313 رجلاً فقط دون نساء. ولما كانت هناك فترات قصيرة يتوقف فيها القتال عقب انتصارات البابيين، استطاع بعض البابيين المناصرين من المتجمعين في المناطق القريبة، تجاوز خطوط القتال واختراق طوق الحصار نتيجة ما كان يدب من فوضى بين معسكرات الجنود. وبذلك قد تكون بعض السيدات قد تمكنَّ من الانضمام إلى أزواجهن وآبائهن وأبنائهن المحاصرين. (المترجم).

لأنهم يجهلون ما اكتشفناه وارتوينا منه. لقد جاهدت لأوضح لهم سبيل خلاصهم؛ أنظر كيف قاموا على سحقي وقتلي! أرهم يا إلهي طريق الحق، واستبدل جهلهم بالإيمان»).

- (جليل كان تواضعه، مغفرته.. كلما كان يزداد سخط الحشود. لقد حلقوا عليه وقطّعوا جسده أشلاءً. وأشعلوا النيران بقطع جسده الدامية... فجمعنا خلسة ما تبقى منها، ودفناها في تلك الليلة بعدما تفرق الجمهور المسعور وذهبوا ليناموا...)

- (أنا آسف للتسبب لكِ بمثل هذا الحزن).

جلست الطاهرة منصعقة. ولم تتحرك حينما غادر المكان. ولم تعرف كيف وجدت طريقها لغرفتها.

وحالما كانت هناك، أغلقت باب حجرتها، تاركة لفجيعتها العنان بالتفجّر.

وراحت تشهق وتنوح: -

(قدوس!... قدوس!... محبوب الله!).

الفصل الرابـع عشر

علمت الطاهرة في اليوم التالي، إن تسعة من حروف الحيّ الثمانية عشر، قد قتلوا في قلعة طبرسي، من ضمنهم: محمد علي بارفروش، ملّا حسين بشروئي، محمد علي زوج شقيقتها مرضية. أما البقية، فقد حبسوا مثلها، وبعضهم استعبدوا.

لاحقًا وصلها خبر حالة ‹الباب› حين استلامه أخبار خسارة أصحابه في قلعة طبرسي، فقد سحقته هذه المصيبة. وجلس في زنزانته كسير القلب داخل سجن جهريق، يمتنع عن تناول طعامٍ والدموع تنهمر من مقلتيه باستمرار، كان حزنه بفاجعته عميقًا ومتواصلًا بلا حدود. لقد غمرته الأحزان لخمسة شهور، حتى تمكن أن يأخذ قلمه ويخصص أول صفحة إلى ملّا حسين (باب الباب)، أول من عثر وتعرّف عليه كأول الظهورين الموعودين.

كان ‹الباب› يعلم أنه لن يطول به الوقت حتى يستشهد هو أيضا. لهذا أمر بقية حواريه الذين تجمعوا في جهريق بالتفرق والانتشار في البلاد، وراح ينتظر بهدوء أمر استدعائه للمحاكمة. كان يعلم إن الأمر سيأتي من تبريز.

في الأيام الأولى لسنة 1850، انشغلت الطاهرة بحماسة كبيرة في نشر الديانة الجديدة؛ وإضافة لكتاباتها، راسلت جميع أصدقائها الأعزاء

وأحبابها من الأقرباء، فشغل ذلك الكثير من وقتها. وبإذن المحافظ، اشترت كتبًا جديدة تتطلع لمزيد من المعرفة والتنوير؛ وبسبب دقتها الدائمة في تنظيم عملها، كان يتبقى لها وقت للصلاة والدعاء والمناجاة، تملأ بها بقية ساعات يومها.

غالبًا ما كانت الباحة تحت شرفتها تمتلئ بالمعجبات اللائي كسبتهم للإيمان بدينها. كانت تهاجم بصراحة موضوع تعدد الزوجات، سخافة الحجاب، عدم امتلاك المرأة للروح، لتربط كل ذلك بجرأة إلى قوة الدين الجديد. لقد أعجبوا بها، وفي الوقت نفسه، كانوا يخشون على حياتها، ويخافون انتزاعها من بينهم بسبب جرأتها.

ومع أنها محجوزة في بيت المحافظ، إلا أنها كانت منتبهة دائما إلى إخلاص رُبابة التي تعتني بصحتها، حينما تذكرها دائما بأهمية تناول الطعام والتمشي معها في حدائق إيلخاني القريبة، وتعاملها في الوقت نفسه كإحدى أخواتها الصغيرات وكشخصية ملكية.

ذات يوم جاءتها رُبابة بخبر وصول زائر من منطقة الكاظم. كان اسمه ملّا محمد، وهو رجل دين معروف في تلك المدينة.

- (إنه يود حضور درسك لهذا اليوم. هل توافقين جلالتك؟)

أجابتها الطاهرة: - (نعم.. دعيه يدخل).

وبما أنه كان هناك رجال ونساء في درسها، جلست الطاهرة مع بقية النسوة خلف ستارة، بينما جلس الملّا، في قسم الرجال يتلفت حوله، وكانت جلسته توحي باهتمامه لمشاهدتها؛ هذه البابية الشهيرة، الطاهرة ذات الفم الذهبي. فتبسمت حينما رأته يتنهد تحسرًا لخيبته.

كان موضوع حلقة الدرس «الله ورسله». فاستمع بهياج متزايد، وفي الآخر استأذن السماح له بتقديم رأيه الشخصي.

حينما سمعت أن منظوره ينصب على التقاليد وليس على كلمات النبي محمد؛ قاطعته الطاهرة. وقالت: ـ

ـ («ليس لله نظير ولا شبيه. ليس له شريك. هو الأسمى فوق كل الكون.» هذه هي كلمات النبي. لذلك، فكل ما ادعيت أن الأئمة قد نطقوا به، ويعارض ما أنزله محمد، هو خطأ بكل تأكيد. فالتقاليد هي تقاليد؛ وليست كلام الله).

ثم استمرت في الكلام بهدوء وطريقة مقنعة.

ـ (علينا بتقبل كلمة الله التي جاء بها المسيح، محمد، وبقية المظاهر الإلهية. إنهم في توافق تام بأن الله هو القوي، الله الحيّ الدائم، حاكم الوجود. وأن رسله هم اللائقون فقط للكلام نيابة عنه).

ـ (لقد قال ‹الباب›، رسول الله ومظهره الإلهي في هذا اليوم، ‹شهد الله أنه لا إله إلا هو، له ملك ممالك التنزيل والخلق. وهو الذي أرسله حقًا، وهذا يوم ربيع الظهورات›).

ـ (هو عودة المسيح، أو عودة كلمة الله، التي كانت أولًا في محمد، وفي هذا اليوم ـ واستنادًا للنبوءات ـ فإنها تحققت بظهور جناب ‹الباب›. إنه ‹الباب›، أو البوابة، يبشّر بالذي سيظهر بعده سريعًا، والذي وصفه ‹من سيظهره الله›).

ـ (أؤمن، وأشهد، بوحدانية الله وفردانيته. لا يوجد سواه إله، ليس له

شريك. ومن خلال «الباب»، لقد أظهر أمره المبارك، وأتمَّ عهده، وفتح باب رحمته لكل من في السموات والأرض».

عمَّ جو المحاضرة صمت تام، قطعه صوت الزائر المدوي، وهو يعلن أخيرًا.

«أنا أؤمن.. أنا أؤمن أنكِ تتكلمين الحق. زيديني علمًا. أنا.. أيضا، يجب أن أكون أحد أتباع «الباب»».

تلت الطاهرة من خلف الستارة بصوتها الجميل، مناجاة قصيرة لمباركة إعلان إيمانه.

«أشهد يا إلهي أنه لا إله إلا أنت وحدك خالق السموات والأرض، والصلاة والسلام على أحبائك الذين لم يمنعهم شيء عن التوجه إليك، والذين بذلوا كل شيء أملًا لنيل ما عندك. إنك أنت الكريم، إنك أنت الرحيم».

رتلت الطاهرة هذا الدعاء بطريقة جميلة وبتوقد، مما ترك المستمعين هائمين في عالم من التعجب.

أما الملّا فقد تأثر بشدة.

وهكذا غادر الحضور المكان.

عندما كان الملّا جالسًا يقرأ دعاءً، كانت الدموع تنهمر على وجهه الملتحي، أما الطاهرة فكانت تجلس وحيدة في تأمل وخشوع خلف الستارة. وحينما انتهى من دعائه، جاءته وهي مميطة اللثام عن وجهها، وجلست بقربه لتبارك إيمانه وتحكي له قصة حياة «الباب» القصيرة الشريفة كما علمت بها.

ثم.. غادر الملّا وهو مشتعل بنار الإيمان حاملًا مهمة نشر ما آمن به، مقررًا بذل روحه للموعود إذا اقتضى الأمر.

***

في فبراير تلك السنة 1850، أُحضِرَ إلى بيت المحافظ أربعة عشر رجلًا. كانوا من السجناء البابيين. أحدهم كان خال الباب، شقيق والدته، تاجر غني من شيراز. أمروهم بإنكار دينهم أو الموت. فأنكر سبعة منهم وتم إطلاق سراحهم. أما السبعة الاخرون، فقد عذّبوا لعدة أيام، ثم قطعت رؤوسهم.

عانت الطاهرة كثيرًا من أجلهم. كانت تمشي وتقرأ الدعاء دون انقطاع طوال تلك الأيام، متهللة بمدى إخلاص هؤلاء الشهداء.

قال خال الباب وهو ينظر في وجه جلاده: ـ (مع آخر نَفَس لي، أسأل الله القدير أن يسامحك على ما تقترفه من ذنب، ويمنحك الانتباه من سبات غفلتك).

فثارت في قلب الجلاد أقصى مشاعر الشفقه، وما كان منه إلا أن أنزل سيفه وترك المكان وهو ينتحب. لكنه أجبر للعودة وإتمام القتل.

في التاسع من تموز (جولاي)، قتل ‹الباب› في مدينة تبريز.

كان عزاء الطاهرة الوحيد، أن ‹البهاء›، كان يطلق سراحه بعد كل اعتقال. كانت تؤمن أن الله قد رتَّبَ له الكثير لينجزه.

سريعًا بعد الإعدامات السبعة، ومن المحتمل أن هناك من ذكَّر الشاه، أن ما زال لديه سجين شهير من المؤمنين البابيين.

فكتب الملك رسالة إلى الطاهرة يطالبها: -

(اعلني تبرأكِ من الأفكار المهرطقة وعودي لتكوني مسلمة جيدة مرة أخرى، إذا فعلتِ ذلك، سوف أتخذكِ زوجة لي وسيدة لنساء قصري).

فأجابت الطاهرة فورًا بحزم قاطع وكتبت جوابها على ذات الرسالة: -

(الملك والثروة والحكم.. لكَ...

والعجب والهيام والفاجعة، لدرويش فقير.. مثلي...

إذا كان ذلك المقام صالحًا.. فهو لك..

وإذا كانت هذه المنزلة طالحة، فأنا أشتاق لها.. فاتركها لي).

كلما تذكرت رفضها أن تكون عروسة للشاه، ترتسم الابتسامة على شفتيها رغم بكائها.

لم تكن تلميذة (الباب) الصغيرة تهتم لمثل هذه الأمور الدنيوية وتذرف الدموع لأجل ذلك. بل على العكس! فرغم أن دينها كان يمر بمحنته، كانت الطاهرة ما تزال جليلة براقة متحمسة لا تكل ولا تهدأ في خدمته.

لكنها كانت بشرًا.

فبالرغم من جمالها، وبالرغم من مواهبها، وبالرغم من عمق عقليتها وعلمها، إلا أنها كانت من لحمٍ ودَمّ. وبسهولة، في أي وقت بعد إعدام (الباب) ونفي (البهاء)، وخسارة أتباعها من حروف الحيّ في قلعة طبرسي، كانت تترك العنان بكل معنى الكلمة، لتفجّر حزنها وجزعها البشري، شاعرة أن كل ما أحبته وعملت له، قد فقد الآن.

لكنها كانت ثابتة، متماسكة، قوية، مدركة تمامًا لحاجة البشرية إلى التفهّم. فطالما ما زال يسمح لها بالحياة والكلام، فستستمر في خدمة الله.

من المحتمل أن ما أظهره الشاه من لمحات الإعجاب بها، بعدما وصفها: ‹امرأة تمتلك روحًا وشجاعة لم يعرف التاريخ مثيلا لها›. كان بسبب تسامحه معها للبقاء في بيت المحافظ، كسجينة مدلّلة، تحت ضغوط مخففة وإعجاب زوجة المحافظ وابنها.

في أبريل سنة 1852، بعدما أعدم رئيس وزراء إيران، عدو الديانة البابية الحقود،[1] كان هناك احتمال لتعيين رئيس وزراء جديد، يكن احترامًا كبيرًا ‹للميرزا حسين علي›، الذي يلقبه البابيين الآن «البهاء»، وكان بينهم من يرفعه بإجلال إلى مقام الظهور الإلهي الثاني.

أرسل رئيس الوزراء الجديد رسالة مليئة بالاحترام واللطافة والدبلوماسية إلى ‹البهاء› الذي كان حينها في العراق منشغلًا بتأسيس قواعد الدين الجديد، يسأله العودة إلى إيران والنزول ضيفًا عليه.

ملأت الفرحة قلب الطاهرة، ليس فقط لعودة ‹البهاء› إلى طهران، بل للأمل الذي تملكها في اصدار العفو عنه. فبمساعدة رئيس الوزراء الجديد، فمن الوارد أن تخف وتهدأ حالة الفظاعة والوحشية الجارية في عموم البلاد والتي سحقت آمالها إلى الأبد.

لكن الأمل في تسوية الخلاف بين البابيين والحكومة، مُزقَ بعنف

---

(1) ـ أمير النظام، ميرزا تقي خان، ابن قربان رئيس طباخي القائم مقام، سلف رئيس الوزراء السابق الحاج ميرزا آقاسي. كان صهر الشاه وأخ زوجته، أعدم بقطع أوردة يديه في حمام عمومي.. (المترجم).

شرس في أغسطس من تلك السنة، جراء فِعلة ارتكبها شابان بابيان من شجعان المتعصبين[1]، بعدما عانوا تشويشًا شديدًا في ملكاتهم الذهنية إثر حادثة استشهاد (الباب).

فبينما كان الشاه ذات يوم يمتطي حصانه بين مجموعة كبيرة من حاشيته، تقدم عليه الشابان وأطلقا عليه النار، ثم حاولا إسقاطه من حصانه بهدف قتله بخناجرهم.

أصيب الشاه ببعض الجراح، بعدما استطاع مقاومتهما بنجاح، إلا أن هذه المحاولة نفخت الروح مرة ثانية في جذوة السخط والكراهية تجاه البابيين لتشتعل وتتحول إلى لهيب حقد وانتقام فظيعين. وبهذا أصبحت الطاهرة وسط عاصفة الحقد التي عمّت طهران وجميع مناطق إيران الشمالية.

وبدأ المحققون يتوافدون عليها لمقابلتها باستمرار، آملين الحصول منها على لمحة تصريح كافية لإدانتها، تبرر استحقاقها عقوبة الموت.

في مثل هذه المناسبات، أكدت كعادتها دائما، إيمانها في (الباب) على أنه هو الإمام المنتظر. إلا أن خصومها ذكروا لها بأن الإمام سيأتي من جابلقا وجابلسا، حسب ما ذُكر في النبوءات.

فانفجرت بهم غاضبة.

- (نعم.. نعم..! لكن طالما أن هاتين المدينتين غير موجودتين، فكيف سيظهر منهما؟)

وحينما أصروا على أقوالهم، وجهت لهم كلامها بغضب شديد: -

(1) - تذكر مصادر أخرى أنهم كانوا ثلاثة شباب. (المترجم).

(دلائلكم مثل دلائل مجموعة أطفال بُلهاء. إلى متى تتعلقون بمثل هذه الأكاذيب؟ متى سترفعون عيونكم العمياء نحو شمس الحقيقة؟)

صرخ أحد الملالي حال سماعه هذا التحقير، ونهض وهو يشير إلى جماعته للقيام واللحاق به: - (هذا هو الكفر الصراح! لماذا نطيل الحوار مع كافرة؟)

كانت هذه المجموعة هي من كتب حكم إدانة الطاهرة وقتلها باسم القرآن المقدس الذي تعرف معانيه هي تمامًا.(1)

لم يكن باستطاعتهم التغلب عليها. كانت متماسكة وقوية، تعلم حقيقة قدرها المحتوم، وترفض بشدة إعطاء ظهرها للدين البابي.

مثلما هي.. كان (البهاء) أيضًا بريئًا من تورطه في التآمر على حياة الشاه، لكنه اعتقل مرة أخرى ووضع في الأصفاد.

وبرؤيا نبوية، أدركت الطاهرة أن يوم استشهادها ليس ببعيد.

لكنها استغربت لدعوة الشاه لها مرة ثانية.

التفتت إلى رُبابة تسألها: - (ماذا يريد مني؟)

---

(1) - تقول السيدة مارثا روت في كتابها (أعظم امرأة إيرانية): - لقد أخبرني حفيد جناب الطاهرة الذي يعيش في طهران في مارس 1930م: - إنني سمعت من والدي أن ناصر الدين شاه طلب حضور ثلاثة من كبار رجال الدين لمناقشة جناب الطاهرة. وفي هذا النقاش سألوها ما هي اثباتات دينك؟ فأثبتتها من القرآن. فحاول رجال الدين ما في وسعهم التغلب عليها، إلا أنهم فشلوا في ردها. ورغب الشاه ترتيب جلسة مناقشة ثانية، إلا أن رجال الدين لم يسمحوا بحضور جناب الطاهرة في ذلك اللقاء، إضافة إلى أنهم طلبوا من الحكومة إعدامها بسرعة كبيرة. ولم يكن ناصر الدين شاه راغبًا في إعدامها. (المترجم).

اصطبغ وجه رُبابة بالشحوب والاصفرار، وقالت: -

(لا أعلم. ولكني سأكون مسرورة لترتيب مظهرك، لو أحببتِ ذلك).

نظرت إليها الطاهرة تتفحصها. كان وجه رُبابه صادقًا ومعبرًا.

فتبسمت الطاهرة وأبدت موافقتها.

ألبستها رُبابة بعناية فائقة، وعطرتها بعطر فريد، وعصبت حجابها على الطريقة الإيرانية، وخرجتا من بيت المحافظ في هودج مزدوج يرافقهما مجموعة من الخدم والحرس.

كانت رائحة أوراق الأشجار الكثيفة تنتشر في الهواء متوهجة تحت أشعة الشمس وتتدلى بكثافة مشكلة زخرفة جميلة. والنسيم كان عليلًا.

قالت الطاهرة وهي ترتب جلستها بجانب رُبابة داخل الهودج: -

(يا له من يوم جميل للنزهة.. ما هذا؟ أنتِ ترتجفين! لماذا؟)

أجابت رُبابة: - (أنا مرتعبة، ليس من أجلي، بل لأجلك).

هزّت الطاهرة رأسها تخاطبها بلطف: - (لا تخشي عليّ شيئًا يا رُبابة، الله حارسي وحافظي. لقد تركت نفسي وحياتي بين يديه منذ زمن بعيد).

تمتمت رُبابة مكسورة الخاطر: - (أنت الأشجع، والأرق، وأعظم امرأة مثالية عرفتها على الإطلاق، كان كل يوم من وجودك في منزلي، مكافأة وبركة لي).

قالت الطاهرة ببساطة: - (أنا مسرورة. لقد كنتِ صديقة مخلصة).

ثم.. عمَّ الصمت بينهما، وغرقا في أفكارهما، والحصان يحملهما

عبر الأزقة الضيقة والشوارع الترابية. كانت البيوت متلاصقة ومتقاربة من بعضها، جدرانها تبدو مائلة نحوهما تتساءل، وعيون نوافذها تلتمع بفضول. كانت الحفر والتجاويف على أرضية الشوارع والأزقة كثيرة، بينما كان الحصان يتخطاها برشاقة، إلا أنها أبطأت من مسيرتهما.

ابتعدن عن المدينة بمسافة مناسبة قبل أن يصلا إلى شارع عريض تحيط به الأشجار من الجانبين، رتبت أنحاءه بعناية فائقة، شجعهما على رفع ستارة الهودج للتمتع بالمشاهد الجميلة، بينما أشجار السرو تزين جانبي الطريق ومن خلفها ظهرت بوضوح قلاع وأبراج وجدران قصر الشاه العالية.

لقد كانوا بانتظارهم...

حيّاهم الحرس وفتحوا لهما الأبواب، فدخلتا وسط الحدائق التي أحاطت بهما من الجانبين، كانت أكوام الزهور والورود مبعثرة تملأ الحدائق، وبراعم الأوراد الذهبية والحمراء، والأزهار وردية مشذّبة تحيط بالمكان، وفي الوسط كان حوض ماء وفوقه جسر عبراه نحو مزيد من الحدائق والأشجار والنباتات والورود.

والآن.. شاهدا وهنَّ تختلسان النظر من فتحة بين ستائر الهودج، لمعان أحجار أرضية العرش المرمرية مرصوصة وسط قاعة طويلة منخفضة.

تمتمت الطاهرة: ـ (رائع).

انتابت رُبابة قشعريرة وهي تقول: ـ (مقام الحكم).

أمرا بالتوقف والترجل، واصطحبتا بسرعة خلال ممر طويل ذَكّرَ الطاهرة بمنزلها المحبوب في قزوين. أما الآن، فهي مجرد ذكريات عزيزة.

لفَّ صاحبتها العجب من روعة المكان وجماله، بزخرفته ومنحوتات تماثيله الفضية والذهبية المنتشرة.

كانت متعجبة أن كل ذلك لم يثر اهتمام الطاهرة.

أخبرتها الطاهرة وهي تنظر إلى الأمام مباشرة: - (لقد استدعيتُ، ورغبتي الوحيدة اكتشاف سبب ذلك).

لم يسمح لرُبابة بتخطي بوابة صالة استقبال الملك الضخمة.

تقدمت الطاهرة لوحدها نحو الملك الذي ينتظر وصولها، وهي تمشي بتأنٍ، وكل حركة منها تعلن عن عظمة جلالها.

توهجت عيناه، وهو ينظر لها متظاهرًا بعدم اهتمام، واضعًا مرفقه على ركبته، وذقنه على كفه المزين بالجواهر.

قال وهو يرفع حاجبيه يخاطبها: - (ألست خائفة مني!)

- (إن غالبية الشعب يخافني وخصوصًا النساء. يمكنني فعل أمور مفزعة لهم، أو أمورًا مفرحة، حسب نوع القضية... سأجعلك ملكة عظيمة، هل أقرر إعلان زواجي منكِ. لقد أحببتكِ. أنتِ امرأة طبيعية في بساطتكِ. نعم، فلكِ شخصية لا تحمل التكبّر).

رفعت إليه عينيها السوداوين بهدوء. ثم رفعت حجابها، لتقول: -

(الملك الحكيم - إذا كان عادلًا - يمسك بيديه، سعادته وسعادة شعبه. من واجب كل الشعب محبة وتبجيل حكومة يسيطر الملك على تصرفها تجاه كل مواقف شعبه. مثل هذا الحاكم سيكون له مكانة عالية من الشرف بين بقية الأمم. وبالتأكيد سيكافئه الله على عطفه ومساواته التي يحكم بها رعيته، لتفضيله العدل على الظلم، والمساواة على الاستبداد).

سألها: - (ماذا تقصدين؟ هل تقولين أنكِ تحبينني؟ أنتِ جميلة ورائعة حقًا، كما لاحظت ذلك منذ ثلاث سنوات مضت. فخورة وفوق ذلك طاهرة. رقيقة مع أنكِ حزينة. مرهفة ولكنكِ لست متملقة. لست متذللة. كَمْ أبغض النساء المتملقات! لكنكِ بابية... كيف تؤمنين بذلك الشخص الذي لم يعد موجودًا؟)

لسعت الدموع جفنيّ الطاهرة حينما خطرت على ذهنها معاناة (الباب). وقالت: -

(«لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد. ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد. لكم دينكم ولي دين»).

- (لذلك.. اسمح لي بعبادة من أشاء، وأعبد أنت من تشاء).

قال الشاب بنفاد صبر: - (أنا أعطيك فرصة لإنقاذ نفسك، فقط لسبب واحد، لأنه من المحزن قتل امرأة جميلة جدًا مثلك. من أجل رجل ميت وعقيدة ميتة).

أجابت الطاهرة بصلابة وقوة: - (هو لم يمت، ولا ماتت عقيدته. إنه لن يموت. إنه الباقي، القوي، كلمة الله المتجسدة الخالدة).

تنهد الملك متحسرًا. وصمت برهة ورأسه منحن.

ثم نهض وتركها لينصرف.

وبهدوء، عادت أدراجها تمشي على السجادة الطويلة، ثم لتجتاز الباب نحو رُبابة التي تنتظرها.

***

في يوم آخر لاحقًا، انتابت طهران موجة جديدة من الرعب.

بعد مضي أكثر من أسبوع على محاولة قتل الشاه؛ كانت هناك شريحة من رجالات السياسة ينصحون بالاعتدال والعفو عن قادة البابيين المسجونين المقرر قتلهم. لكن كان هناك آخرون أيضًا، وخصوصًا من رجال الدين يرتعدون خوفًا لمجرد التفكير بأن عليهم مواجهة هؤلاء البابيين المتحمسين، مثل ‹الباب›، القدوس، ملّا حسين والطاهرة؛ واستمروا يحرضون ضد قلة أخرى من أكثر المؤمنين البابيين تقوى ونفوذ كلمة.. ويصيحون: -

(السيف فقط هو الذي يمكنه سحق هذه الثورة الكافرة، اقتلوهم.. اقتلوا البابيين).

وجاء اليوم الذي غسل الشاه يديه ونفضها من هذه المسألة الشائكة، ليحولها إلى يد مرؤوسيه من متعطشي الدماء.

على الفور، أرسل هؤلاء، سعاة البريد إلى بقية المدن، مع أوامر تدعو لقتل البابيين المكروهين الأبرياء أينما وجدوا، رجالًا كانوا أم نساءً أم أطفالًا دون مساءلة، وبأبشع الطرق البربرية التي استنبطتها عقولهم المريضة إشباعًا لتعطشهم إلى الدماء.

«قتل البابيين يدخلكم جنان الله».

فقطعوا ألسنة ضحاياهم، وثقبوا لحوم أجسادهم وهم أحياء وحشروا بداخلها شموعًا موقدة، وقطعوا أجسادهم وعلقوها على أبواب المدن والقرى كعلامة تحذير، ورموا بضحاياهم الأبرياء أحياء داخل النيران.

كانت هذه بعض طرق الإبادة التي حسموا بها أمر أولئك الذين لم يعجبهم معتقدهم.

وبينما كانت المذابح تزداد حدة، جمعت الطاهرة حاجياتها كما لو أنها تستعد لرحلة بعيدة، تتفحص كنوزها وتعنونهم إلى أحبابها.

وفي إحدى الليالي، بعدما هدأ البيت، نهضت متجهة إلى شرفتها، غير قادرة على إغلاق عينها.

وبدأت تنساب في عقلها قصيدة: -

(جميلة هي الحياة..

ولكن محبة سيدي..

ألذُ وأجمل..

أنها أحلى من قرص عسل..)

عادت لغرفتها شبه المعتمة لتجلس، وتناولت قلمًا وورقة، تكتب وتكتب، وعقلها نشط بين مدٍّ وجزر من إلهام الكلمات.

الفصل الخامس عشر

سيدتي الأميرة: ـ (لقد تم استدعاؤكِ؟)

كانت رُبابة تقف عند شرفة باب غرفة الطاهرة في ضوء الصباح الرمادي، وعيناها حمراوان تملأها الدموع.

أعادت الطاهرة نظرها من النافذة وتبسمت في وجه مضيفتها المفجوعة التي مكثت في بيتها شهور حبسها الطويلة. كانت ترتدي ملابس جميلة من الحرير الأبيض، وغرفتها معطرة بأعذب الروائح. وشعرها ممشط ببساطة متهدل إلى الخلف بعقدة عند مؤخرة عنقها، وعيناها رغم حزنها، منتبهة وبراقة. وتمسك بعناية بين يديها صرّة مغلقة.

ـ (لا تبكِ يا رُبابة. فوقت عويلك لم يحن بعد. أحب أن أشاركك آخر أمنياتي، لأن ساعة اعتقالي وتجرّع الشهادة تقترب بسرعة).

ـ (أسألكِ أن تسمحي لولدكِ بمرافقتي إلى محل الإعدام، ويتأكد أن الحراس والجلاد الذين سأسلم إلى أيديهم لن يجبروني على خلع هذه الملابس. وأتمنى كذلك أن يرمى جسدي في حفرة وتردم بالحجارة والتراب).

كانت رُبابة تنحب بحرقة، ويداها على وجهها.

نظرت إليها الطاهرة بعطف كبير، واستمرت في تكملة بقية كلامها مثلما هي عادتها.

ـ (بعد مقتلي بثلاثة أيام، ستأتي امرأة إلى هنا. وهي صديقة عزيزة جدًا لي. اسمها خاتون جان. سلميها هذه الصرّة. أما طلبي الأخير منكِ، فهو.. أن لا تسمحي لأحد بدخول غرفتي من الآن حتى يتم استدعائي لمغادرة هذا البيت. لا تسمحي لأحد أن يقطع صلاتي).

تلعثمت رُبابة وهي تقول: ـ (و.. ولكن.. سعادتكِ.. هل يمكن أن أجلب لكِ طعامًا؟ شايًا ساخنًا؟)

هزَّت الطاهرة رأسها الجميل.

ـ (لقد قررت الصيام هذا اليوم، صيامًا لن أقطعه حتى أقابل محبوبي وجهًا لوجه. أقفلي الباب، ولا تخبري أحدًا بما أخبرتكِ به، حتى يأتي الوقت الضروري لإعلام ولدكِ. اتركي أعدائي يكتشفون حقيقة موتي بأنفسهم).

صرخت رُبابة ويداها مضمومتان تضرعًا: ـ (سيدتي..! جلالتكِ..! إن حراستك ليست مشددة. ولن أخبر أحدًا إذا هربتِ.. الآن، طالما هم منشغلون...)

ـ (منشغلون.. بذبح أصحابي ورفاقي في الدين؟... أنا أعلم، يا رُبابة، ماذا يشغلهم. الله يعين أصدقائي ليكونوا أوفياء مخلصين حتى النهاية).

للحظة.. هدأت الشفتان الحمراوتان اللتان طالما لهجتا بكلمات التسبيح والشكر لله، واسترخت من إظهار أحزانها.

ـ (تقولين عليّ الهرب؟! ولكن إلى أي حصن ألجأ..؟! إلى حمى من؟ لا.. الله هو ملاذي. لقد سلمت نفسي وروحي له).

قالت رُبابة: ـ (أنتِ شجاعة جدًا).

وكما سبق وقالت ذلك في مناسبة أخرى: - (كم... هي مدهشة وعجيبة، هل يمكن لأي امرأة أن تكون بمثل هذه الشجاعة؟)

فذكرتها الطاهرة: - (النساء مساويات للرجال. لا يجب أن يقال إننا لا نداني‌هم في الشجاعة. فكري بمن استشهدن من النساء هذا اليوم. أي نوع من الشجاعة كنَّ يمتلكنَ. ألا تفضلين الموت على مشاهدة قطع رأس ولدكِ وتقطيع جسده مثل حيوان وتعليق أعضائه مثلما تعلق قطع اللحم في محل قصاب؟ فكري بوالدة السيد المسيح. أي شجاعة كانت تملكها لتجلس عند أسفل الصليب... ياه... نعم، رُبابة، قد يكون الموت رحيمًا...).

- (ولكن يكفي هذا... خذي...).

أحنت الطاهرة رأسها بحركة أنثوية لطيفة وبرشاقة لا متناهية، لتخلع عن جيدها عقدها اللؤلؤي المزدوج.

وللحظة.. أمسكته بيدها مندهشة من لمعان بريقه رغم قدمه لترى فيه معانٍ عميقة.

قالت بصوت واضح تتأمل، وصوتها يمتلئ بالتعجب: - (ماذا كنت عندما ابتدأت أضع هذه اللآلئ أول مرة. طفلة صغيرة رقيقة غير مجربة. بنتٌ فتيّة غضّة هادئة. حبة رمل في محارة بلادي المتسعة، لا شيء، كما هو حال بحر عظيم لا يهتم بمحارة في أعماقه. هباءة متناهية في الصغر في عالم الحقيقة الواسع. لو صقلت، ولو نضجت، لو عكست على الآخرين فكرة صغيرة من الحقيقة، فعليّ أن أهتم بمفخرتها، إنها تخص ذلك الذي شملني واكتسيت بمحبته. محارة المحبة والأنوار»[1].

(1) - من وحي خيال الكاتبة، تشعر أنه شيء من الحقيقة.

مدت يدها بحبات اللؤلؤ، فأخذتها رُبابة وهي كارهة بيدين مرتعشتين.

قالت الطاهرة: ـ (ستكون هناك معاناة عظيمة وعوز شديد بين عوائل الشهداء، أرجوكِ وزّعي عليهم هذه اللآلئ وقسميها بينهم، ولا تذكري مصدرها، خشية أن يفضل من يستلمها الموت جوعًا على بيعها لشراء طعام. فهل تفعلين ذلك؟)

انتفخ صدر رُبابة بألم لمحاولاتها وقف نحيبها. ووجهها مجعد من شدة الحزن. وفتحت فمها.. لكن لا كلمات. أخيرًا، عضّت شفتها وسحبت دموعها، وحركت رأسها، وقالت: ـ

ـ (ليباركك الله).

وضعت الطاهرة إحدى يديها على كتف المرأة، وصحبتها إلى باب الغرفة.

كانت رُبابة تحاول بيأس السيطرة على نفسها. وهمست بينما إحدى يديها على رقبتها ووجهها منقوع بالدموع والبؤس: ـ (جلالتك.. نحن ـ ولدي وأنا ـ لا نؤمن بـ «الباب» كما تؤمنين به. نحن لسنا بابيين كما تعلمين، لكن لا أحد بإمكانه محبتك كما أحببناك. نحن نحبك لذاتك! امرأة نبيلة يمتلئ قلبك بمحبة البشر. نشعر ببراءتك. سنبقى نصلي حتى النهاية لخلاصك).

ظهرت لمحة ألم على وجه السجينة الهادئ، ثم رسمت ابتسامة عليه.

ـ (إن يد الله قد وجهت سبيلي إلى ملجئه. «هل من مفرجٍ غير الله، قُل سبحان الله، هو الله، كلٌ عباد له، وكلٌ بأمره قائمون»).[1]

(1) ـ دعاء نزل من قلم «الباب».

عندما أُغلق باب الغرفة، ودار المفتاح ليقفلها، نظرت الطاهرة حولها متفكّرة. ثم وبنظرة أخرى خارجًا نحو الفجر الكئيب المظلم، راحت تكمل عبادتها.

* * *

في ذلك اليوم الطويل، لم تعر أي اهتمام لوقع الأقدام المتكرر قرب باب حجرتها، كما هو حالها دائما حينما تركّز على موضوع بين يديها، كذلك كانت الآن، مركزة كامل كيانها نحو تعبدها.

* * *

بعد غروب الشمس بأربع ساعات، سمعت الطاهرة طرقًا عظيمًا على باب بناية المحافظ الخارجية، فنهضت على قدميها.. وقفة انتظار.. وجهها مثل شمع جامد.. خالٍ من التعابير. ثم سمعت صوت وقع أقدام رُبابه يقترب من باب غرفتها. طرقته عدة مرات، ثم أدارت المفتاح الثقيل داخل القفل، ودخلت تلهث بالأخبار.

- (خدم عزيز خان السردار (رئيس الشرطة) على البوابة. يطلبون تسليمك إليهم فورًا).

بدأت الطاهرة تترنم في ابتهال حزن وانتصار. تقدمت من زوجة المحافظ المفجوعة، واضعة يديها عليها، ثم قبلتها وسلمتها مفتاحًا صغيرًا.

- (لقد تركت بعض الأشياء لكِ. إنها في صندوقي. عندما تفتحينه، أتمنى أن تتذكريني وتفرحي لفرحي).

وبهذا.. سارت بثبات نحو الباب الخارجية للبناية، حيث يقف ابن

رُبابة حزينًا بانتظارها. برقعت نفسها بكثافة، ومضت لتخرج في الظلام مع الشاب لا تحمل معها شيئًا سوى شالٍ حريري مطوي بين يديها.

لقد أرسل السردار حصانًا لها. فامتطته تستعد للمغادرة، بينما أمسك ابن المحافظ بلجام الجواد، والحراس المسلحون يحيطون بها من الجانبين.

كان المحافظ بنفسه يقف عند البوابة وهو يتكلم مع حارسين آخرين.

قال، وهو يتجنب النظر إلى الضحية الضئيلة الصامتة الجالسة على حصانها بكبرياء بردائها الشبيه بثوب زفاف: - (لقد اتخذت كافة الاحتياطات اللازمة. وأمرت الحرس بالانتباه. لا نريد أي محاولة من جانب هؤلاء البابيين التعساء لاختطاف هذه المرأة منا. لقد قتلنا منهم اليوم سبع وعشرين. وسيكون كافيًا أن يزدادوا واحدًا آخر).

وأطلق ضحكةً...

نظر الحرس إلى هيكل الطاهرة المهيب الصغير والتفوا مغادرين.

تحول المحافظ نحو ولده يكلمه: - (يا ولدي.. أمكث مع هذه المرأة والحرس. وسلمها للسردار في حدائق إيلخاني،[1] وعندما ينتهي كل شيء، أخبرني. وسأنقل الخبر إلى الشاه بنفسي).

---

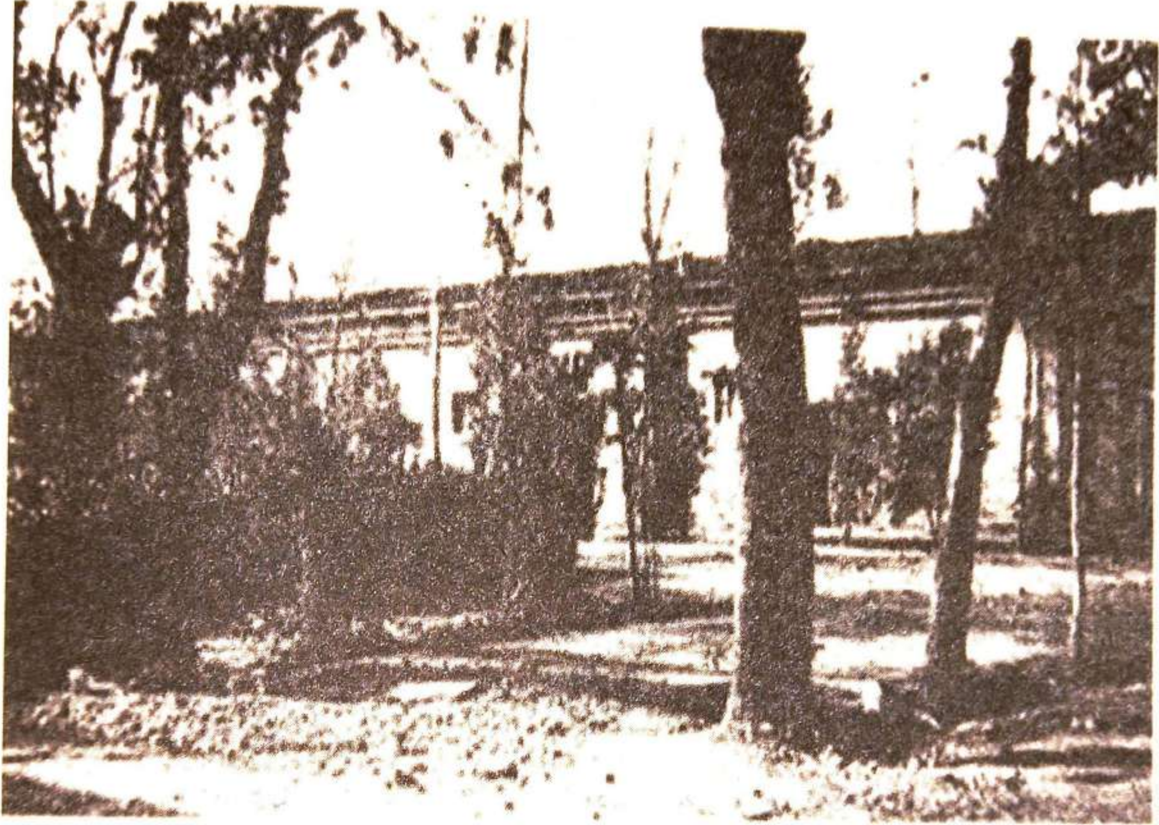
(1) - مكان فسيح أمام الوكالة البريطانية والسفارة التركية وهذا المحل اختفى منذ 1893. وفي وسط هذا الميدان وعلى رصيف الطريق خمس أو ست شجرات منفردة تؤدي إلى البقعة التي استشهدت فيها البطلة البابية لأنه في ذلك التاريخ كانت الإيلخانة تمتد إلى تلك الناحية ولما عدت في سنة 1898م وجدت إن الميدان قد اختفى وظهرت فيه مباني جديدة ولا أعلم إذا كان المالك قد احترم هذه الأشجار التي قد غرستها أيدٍ صالحة (من كتاب السيد علي محمد الباب لنقولاس صحيفة 452). (المترجم).

قالت الطاهرة، ببساطة ودون حزن، ولكن بصوت يرن عذوبة: -

(يمكنك قتلي متى تشاء، لكنك لن تستطيع وقف تحرر النساء).

لم تبد عليه أية دلالة على سماع كلماتها.

وبكل غطرسة، نزع معطفه القاتم، وتقدم نحو حصانها، ليقذفه فوق كتفيها.



حديقة إلخاني في طهران التي شهدت استشهاد قرة العين سنة 1852م

وهو يقول لولده: -

(هكذا.. لن يستطيع أحد التعرف عليها كامرأة، خذها بعيدًا).

كان السردار (رئيس الشرطة) ورجاله في الحديقة، خلف أبواب المدينة تمامًا، حيث أعدم خلال ذلك النهار سبع وعشرين بابيًا في المكان نفسه.

وكان الجلادون في بناية قريبة يشربون ويرقصون على أنغام المزمار، كان باستطاعة الطاهرة ومجموعة حراسها القليلة، سماع صيحات وضحك سكارى آخرين ما زالوا داخل الحديقة.

أوقف ابن المحافظ حصان الطاهرة عند البوابة.

نظر رئيس الشرطة إلى الخارج، وضحك بصوت مهتاج، وتمايل مبتعدًا يبحث عن كوز خمر آخر.

قالت الطاهرة باحترام، وهي تترجل وتواجه ابن المحافظ: ـ (لا أحبذ الكلام مع مثل هذا الشخص، هل يمكنك الكلام معه نيابة عني؟)

ـ (أنا تحت أمرك).

ـ (إذن.. قدم هذا المنديل للسردار، طالما يرغبون بخنقي. أذهب، لقد أعددته لهذا الغرض).

استلم الشاب قطعة الحرير المطوية وتقدم بها إلى السردار.

إلا أن رئيس الشرطة، أزاحه من أمامه. وزمجر كاشفًا عن أسنانه: ـ

ـ (لا تزعجني.. لقد كان لنا هنا، ما يكفي من عمل هذا اليوم..!)

ثم أومأ لأحد الخدم، وقال له: ـ

(خذ هذه القماشة، وأخنق بها المرأة البابية التي كانت تقود نساءنا للزندقة).

استلم الخادم المنديل بحذر شديد وتقدم نحو الطاهرة ببطء.

وما أن تقرّبَ منها.. حتى اهتزَّ مرتعدًا وعاد أدراجه.

فحملق السردار فيه ساخطًا.[1] ثم جأر عاليًا، وهو يمد ذراعه بكوز خمر، ويقدمه للكائن الجلف صاحب الشفتين الحمراوين والأنف المكسور، وطعنة السكين الواضحة في صفحة وجهه.

- (اشرب.. لقد ذبحتَ العديد من البابيين هذا اليوم. فلن تمانع بواحد آخر. امتحن خبرتك بهذه).

شرب الرجل كوز الخمر بشراهة، ثم مسح فمه بقفا يده القذرة، وعاد ليأخذ المنديل ويهزه ليبرمه بسرعة.

كان ابن المحافظ واقفًا يراقبه بيأس وقنوط، والخادم يترنح متوجهًا نحو الطاهرة.

وإذا بلون وجهها الشمعي يختفي، ليحل محله توهجًا طبيعيًا، وابتسامة خفيفة قوّست شفتيها الحمراوين.

تمتمت الطاهرة للمتوحش مستسلمة غير مبدية أي اعتراض، بينما هو يلف شال الحرير حول عنقها ويسحب نهايتيه بعنف ووحشية: -

- (عسى الله أن يغفر لكَ).

حملقت وعيناها مفتوحتان تمامًا. بينما امتدت يداها دون وعي لثوانٍ إلى المنديل الحريري لتغرس أظافرها فيه تحاول تخفيف شدته.

ثم.. سقطت يداها باسترخاء.

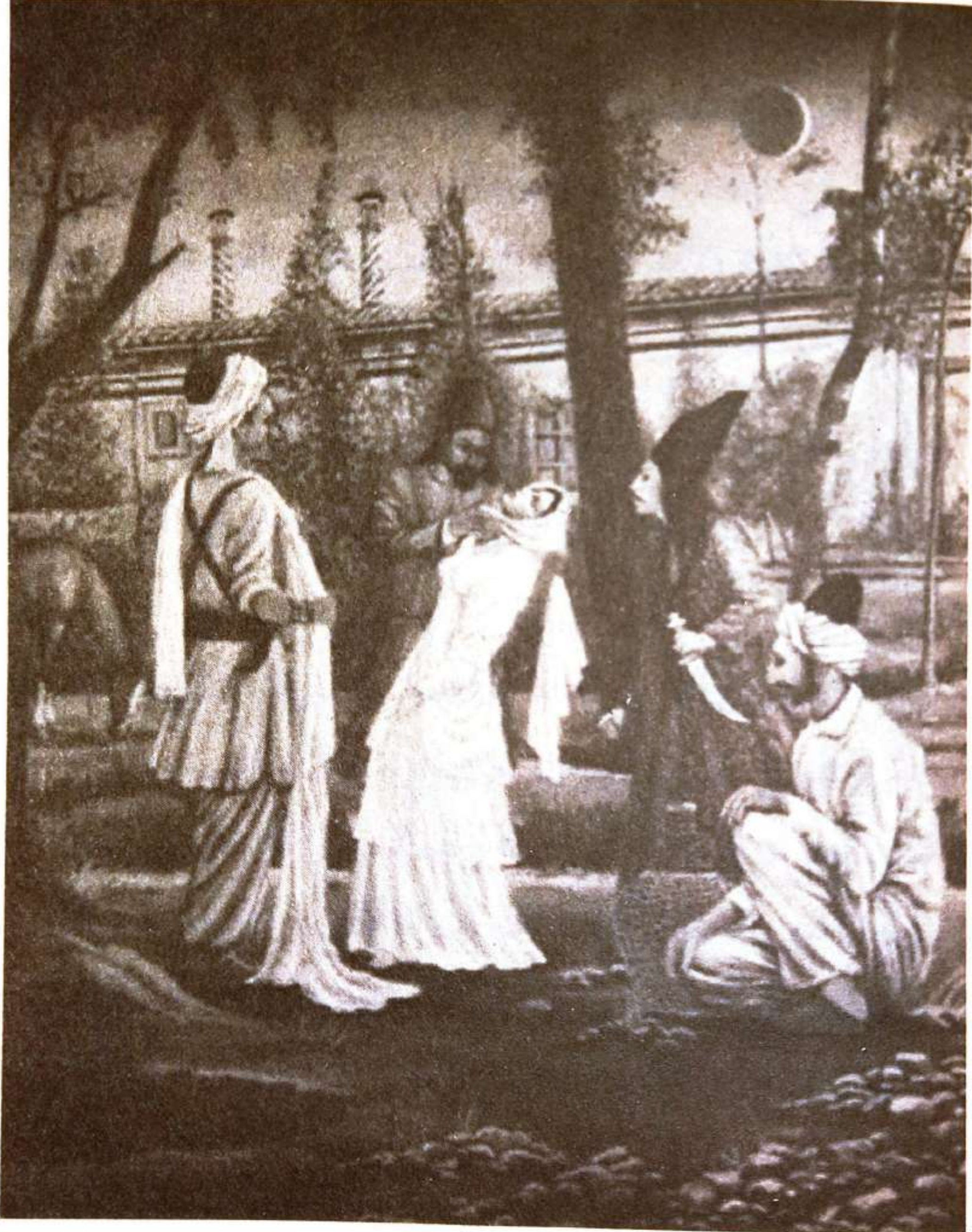
---

(1) - كانت نهاية رئيس الشرطة محمود خان، كالتالي: بعد تسع سنوات، وصل علم الشاه، أحد أعماله السيئة، فأمر أحد الجلادين بتجهيز حبال ولفها حول رقبة محمود خان، وقتله على الفور. ثم أمر بترك جثته معلقة على المشنقة. (المترجم).

كان هناك ضحكٌ متفجرٌ يعلو بين المخمورين، حينما سمحت لجسدها المختنق بالتهاوي، وكأن جبلًا من العفة والطهارة ينهار في الظلمات.

لقد تم القتل[1].

لقد أوقد نور الطاهرة في مصباح الأبدية شعلة خالدة.



(1) ـ في القرب من مكان استشهادها، كانت هناك حفرة عميقة لبئر لم يكتمل. فحمل جسدها ورمي داخله وأهيل عليه الحجارة والتراب. كما تنبأت. (المترجم).

الخاتمة

(وقد كرّس الجمال والأنوثة نفسيهما أيضًا لخدمة العقيدة الجديدة، وكانت زرين تاج، شاعرة قزوين الجميلة، سيئة الحظ، قد طرحت الحجاب وحملت شعلة تبليغ الأمر الجديد إلى أقصى الأطراف. تلك البطولة هي من أقوى أحداث التاريخ الحديث تأثيرًا.)[1]

(لم تُعزّ ذكرى بعمق كذكراها، ولم تشعل ذكرى حماسًا أعظم من ذكراها، ولا تزال تمارس نفوذها، الذي استخدمته ببراعة، على بنات جنسها.)[2]

(وأبرز الشخصيات في هذه الحركة (البابية) بأسرها تكاد تكون الشاعرة قرة العين. فقد اشتهرت بعفتها وتقواها وعلمها وأخيرًا اعتنقت دعوة الباب بعد أن قرأت بعض آياته ونصائحه. واشتد إيمانها لدرجة أنها، رغم ثروتها ونبل منشئها، تركت الجاه والأطفال والاسم والمكانة لأجل خدمة مولاها ونشر أمره... وكان جمال بيانها بدرجة أنه جذب الضيوف في حفل قران ليستمعوا إليها بدلًا من الموسيقى التي أعدها المضيف. أما أشعارها فمن أعظم الأشعار في اللغة الفارسية في قوة التأثير.)[3]

(1) - إيران والمسألة الإيرانية. لورد كرزون، الجزء 1، الصفحة 497.
(2) - مسألة الشرق الأوسط. ڤالنتين شيرول، الصفحة 124.
(3) - الومضة. سير فرانسيس يونگهزبند، الصفحتان 202 - 203.

(أوقفوا امتهانكم وتجديفكم! يا لسخف أهدافكم! هل تعتقدون أنكم تستطيعون دفنها هناك؟ سوف تظهر مرة ثانية وإلى الأبد أمامكم جميعًا! إنكم قد زرعتم ذكراها في عقول الرجال، وسوف تنتقل محبة روحها إلى ملايين القلوب النابضة الحيّة. لقد طمستم أعمالكم في أسفل السافلين وشيدتم صيتها فوق القمم. سوف تتوهج الشجاعة والإخلاص والحقيقة إلى الأبد بعد جناب الطاهرة).[1]

(آه يا طاهرة، أنت أغلى من ألف ناصر الدين شاه!).[2]

قالت السيدة ماريانا هاينش والدة رئيس النمسا، سنة 1925: - (إن جناب الطاهرة [قرة العين] القزوينية من إيران، هي أعظم وأعلى مثل لي في حياتي. لقد كنت في السابعة عشر من عمري عندما سمعت عن حياتها وعن استشهادها، لكني قلت في نفسي: - «سأحاول جهدي أن أفعل لنساء النمسا، ما حاولت جناب الطاهرة أن تفعله لنساء إيران وقدمت حياتها من أجلهن).

(قال لي الطلاب الإيرانيون الذين يدرسون في برلين وباريس، إنهم في بيوتهم عندما كان يرغب الآباء في حث بناتهم على العلم والدراسة، غالبا ما يقولون لهن: «كُنَّ مثل جناب الطاهرة.. كُنَّ مثل قرة العين». «آه يا طاهرة، إنكِ لم تموتي، إنك مررت فقط، إن روحانيتك وشجاعتك ومآثرك ستتوهج إلى الأبد، نُبلك ورفعة أخلاقك الإنسانية، أغنياتك الروحانية، ستكتنز في قلوب لا عدَّ لها. إنك لحد هذا اليوم، معلمنا البهائي

(1) - لورا دريفوس بارني. كتاب «أبطال الله».

(2) - سليمان ناظم بك، شاعر تركيا، كتاب «ناصر الدين شاه والبابية.

المثير الحيّ! وإن أعمالك هي مجرد البداية، لأنك ستنقلين أمرنا البهائي إلى الملايين التي لم تولد بعد!»)[1]

(وظهور امرأة مثل قرة العين، في أي بلد أو أي عصر، هو من الظواهر النادرة، وأما ظهورها في مملكة مثل إيران، فهو أعجوبة، بل يكاد يكون معجزة. فقد اجتمعت فيها عفة الجمال الرائع والمواهب العقلية الفريدة والبلاغة الحماسية والإخلاص الشجاع وتوَّجت هذه الخصال باستشهاد مجيد، فوقفت بين بنات وطنها شامخة فريدة خالدة. ولو لم يكن للدين البابي من دواعي العظمة، سوى أنه أنجب بطلة مثل قرة العين، لكفاه ذلك).[2]

(تقول السيدة مارثا روت في كتابها (الطاهرة أعظم امرأة إيرانية): - وبينما كنت في طهران سنة 1930م، قدمت لي الدكتورة سوزان مودي تقريرا حول استشهاد جناب الطاهرة أخبرها بها الرجل المسن جناب أديب المبلغ البهائي المشهور، وكان قد تشرف بزيارة بهاء الله في عكاء. كان جناب أديب أستاذًا في الجامعة وأنشأ أخيرا «مدرسة التربية للبنين» في طهران. وكان والده مدرسًا في عائلة فتح علي شاه).

وما يلي قد كتب بتوقيع جناب أديب، وكان صديقا حميمًا لـ (قلي) الذي جاء مع جناب الطاهرة إلى طهران. وهنا أقتبس فقط الجزء الخاص باستشهاد جناب الطاهرة: -

(في كل مجلس عقد في طهران، كان الرجال والنساء يتكلمون بمحضر جناب الطاهرة بمنتهى الأدب والوقار. وجاء إليها العديد من

(1) - كتاب الطاهرة أعظم امرأة إيرانية. مارثا روت.
(2) - مقالة سائح. الحاشية K، الصفحة 213. (المترجم).

الأعيان والسيدات المعجبات لتغمرهم بالسرور والغبطة بسبب كلماتها المتشبعة بالأمل. وكان الجميع من كل الطبقات وحتى الأمراء ووزراء الدولة ينجذبون لفصاحتها وينحنون بخضوع أمامها عند الدخول في محضرها. ولقد انتشرت خطبها وتوضيحاتها في مختلف أنحاء إيران ولم يكن لأحدٍ قليل شكٍ حول ثقافتها وعلمها. عندما كنت شابا، اعتدت دراسة الفلسفة مع ميرزا عبد الوهاب شقيق جناب الطاهرة. وعندما كنت أخطأ أو يحصل لي إشكال أسرع في طلب مساعدته. ذات يوم من أيام الصيف، ذهبت إليه في غرفته الخاصة وكان جالسًا لوحده. بعد جلوسي بقليل وعندما حصلت على فرصة مناسبة، قلت له أريد أن أسألك بعض الاسئلة، إلا أنني كنت مترددًا دائمًا، والآن إذا سمحت لي فسأفعل. فأعطاني الإذن. لذلك قلت: [إن شهرة وعلم وكمال جناب الطاهرة منتشر بين الناس بحيث أذهل العقول. ولا أحد يعرف الموضوع أفضل منك، لذلك أريد أن أعرف منك حقيقة أو كذب هذا الموضوع؟» فتنهد عبد الوهاب (شقيق جناب الطاهرة) وأجاب: «مع الأسف إنكَ سمعت عن كلام وفصاحة جناب الطاهرة فقط، لكنك لم ترَها؛ اعلم وتيقن حقًا، إنه في أي مجلس كانت تحضره، لا أنا ولا أي شخص آخر يستطيع أن ينبس ببنت شفة في محضرها، كان يبدو لو أن كل كتب القبل وكتب المستقبل مفتوحة أمامها، لقد اعتادت أن توضح الموضوع بتقديم البراهين الواضحة من كتب العلماء صفحة بعد صفحة، بحيث لا يملك أحد القدرة على الإنكار].

(كان القتيل الملّا تقي يردد دائمًا: «عندما تظهر علامات القائم الموعود، سيظهر زنديق قزوين أيضًا، وكلمات هذا الزنديق ستكون

كلمات امرأة دين؟» والآن ظهرت هذه المرأة ودينها. في الحقيقة إن كلامها وتوضيحاتها شاهد حقيقي لها. ومنذ ذلك الحين، أفتى رجال الدين بمنع جميع النساء من الدراسة، مخافة أن يصبحن مؤمنات مثل جناب الطاهرة. وبالنظر إلى الحياة القصيرة التي عاشتها قرة العين، فإن المرء ليندهش من حماسها المتأجج وانقطاعها التام عن ملذات الدنيا. ففي الحقيقة كان هذا العالم بالنسبة لها مجرد حفنة من التراب، كما قيل عن القدوس. كانت خطيبة بليغة متمرسة في أعقد أنظمة الشعر الفارسي. ومن أشعارها القليلة التي نُشرت، تلك التي تكتسب أهمية خاصة، لأنها تعبّر عن الاعتقاد في شخص «إلهي - بشري» (نسميه هنا الرب) وعندما يُظهِر دعوته يلقى استجابة عامة. فمن يكون ذلك الشخص يا ترى؟ ويبدو أن قرة العين استبطأت إظهار دعوته. فهل يمكن أن يكون هناك شخص تفكر فيه سوى بهاء الله؟ فكانت الشاعرة بهائية حقًا.)[1]

(... أما المبلغة الأخرى، وهي المرأة التي أشير إليها، فقد أتت إلى قزوين. وهي بكل تأكيد إحدى أكثر مظاهر الدين البابي سحرًا أخاذًا، فضلًا عن أنها موضع احترام شديد لدى البابيين.)[2]

(وكان عديدون ممن عرفوها وسمعوها في أوقات مختلفة من حياتها، يذكرون أنها فضلًا عما اشتهرت به من العلم والغزارة في الخطب، فإن إلقاءها كان من السهل الممتنع، وكان الناس أثناء حديثها يشعرون بتأثيره في أعماق قلوبهم، فتمتلئ بالإعجاب وتنهمر دموعهم من الآماق.)[3]

---

(1) - اتفاق الأجناس والأديان. الدكتور چين، الصفحتان 114 - 115.

(2) - الأديان والفلسفة في آسيا الوسطى. جوبينو، الصفحة 136.

(3) - المصدر السابق. الصفحة 150.

(ومع إن المسلمين والبابيين يذكرون بأجل العبارات جمال «قرة العين»، فإنه مما لا نزاع فيه أن ذكاء هذه المرأة الشابة وأخلاقها كانت أروع مما روي عنها. وإذ كانت تستمع، بشكل يومي تقريبًا، إلى المحادثات العلمية، فقد تولد لديها شغف عميق بها منذ سن مبكرة، وهكذا أصبحت مقتدرة تمامًا على متابعة المجادلات والمحاورات العميقة فيما بين والدها وعمها وابن عمها، الذي أصبح الآن زوجها، بل صارت تتحاور معهم وتدهشهم أحيانًا بقوة عقلها الحاد. فليس من المعتاد، في المجتمع الإيراني رؤية امرأة تهتم بالمساعي الفكرية، ولكن ذلك يحدث أحيانًا. ولكن العجيب حقًا أن تجد امرأة بمقدرة «قرة العين». فلم تصل في معرفتها باللغة العربية إلى درجة استثنائية في الكمال فحسب، بل إنها أصبحت متميزة أيضًا في معرفة الأحاديث الإسلامية وفي التفاسير المختلفة لآيات القرآن وكتابات كبار المؤلفين. واعتُبرت في قزوين بحق أنها معجزة.)[1]

[إن الغرس الذي زرعته قرة العين في البلاد الإسلامية ابتدأ يثمر الآن ويظهر. وتفيد رسالة موجهة إلى صحيفة كريستيان كومنولث في يونيو/ حزيران الماضي، بأن أربعين سيدة تركية، من المطالبات بحقوق المرأة في الاقتراع، قد نفين من إسطنبول إلى عكاء (التي كانت لمدة طويلة سجن بهاء الله). ففي السنوات القليلة الماضية ابتدأت أفكار المطالبة بحق المرأة في الاقتراع بالانتشار خفية داخل أوساط الحريم. وكان الرجال غير عالمين بها. بل كان كل الناس غير عالمين بها. والآن شرع الطوفان يندفع، ويعتقد رجال إسطنبول بضرورة اتخاذ إجراءات مشددة. فقد نُظَمت أندية للمطالبات بحق المرأة في الاقتراع وكُتبت ووزعت مذكرات

---

(1) ـ الأديان والفلسفة في آسيا الوسطى. جوبينو، الصفحة 137.

بارعة بمطالبهن، وصدرت مجلات نسوية ذات مقالات بديعة، وعقدت اجتماعات عامة. وذات يوم قامت عضوات تلك الأندية، وعددهن نحوًا من أربعمائة امرأة، بنزع الحجاب. فبهرت الطبقة الرزينة المتحجرة من المجتمع، وذعر المسلمون الحقيقيون، وأجبرت الحكومة على التحرك. فقسموا الأربعمائة امرأة من دعاة الحرية إلى مجموعات عديدة. ونفيت إحدى المجموعات، والمؤلفة من أربعين امرأة، إلى عكاء وسيصلن خلال بضعة أيام. والجميع يتحدث في هذا الأمر، ومن المدهش حقًا أن ترى كثرة أولئك المؤيدين لرفع الحجاب عن وجوه النساء. وكثير من الرجال الذين تحدثت معهم لا يعتقدون أن ذلك التقليد قديم فحسب، بل كابت للفكر أيضًا. وأرادت السلطات التركية أن تطفئ نور الحرية ذاك، ولكنها فاقمت اشتعاله، وساعد إجراؤها المستبد على خلق رأي عام أوسع نطاقًا وازدياد تفهم هذه المسألة الحيوية.](1)

(ومكثت هناك مدة طويلة تستقبل الزوار العديدين من الرجال والنساء وكانت تؤثر على النسوة وتظهر لهم حقيقة الدور الكريه الذي عينه لهن رجال الدين، وكانت تقنعهن كيف أن الدين الجديد أعطاهن حرية واحتراما. وكادت هذه المجادلات تمكث مدة طويلة لولا أن الميرزا أقا خان الذي تعين صدرًا أعظم أمر حاجي ملّا ميرزا محمد أندرماني، وحاجي ملّا علي كني أن يذهبا إليها ليمتحنا اعتقادها. فباحثاها في سبعة مجالس وناقشتهما بكل حماس وأظهرت لهما أن الباب هو الإمام المنتظر والموعود. فردا عليها بأن الإمام الموعود يظهر من جابلقا وجابرسا، فأفهمتهما بقوة بأن هذا كذب محض واختراع المحدثين الكذابين. وإن المدينتين المذكورتين

---

(1) ـ اتفاق الأجناس والأديان. الدكتور چين، الصفحتان 115 ـ 116.

لا وجود لهما مطلقا وما هما سوى خرافة تليق بالمجانين. وأظهرت لهما الأوامر والأحكام الجديدة وأثناء تبيين وجه الحقيقة، كانت دائما تظهر فساد نظرية جابلقا. وأجابتهما منفعلة (بان الأدلة التي تسوقانها هي أشبه بأقوال طفل غبي جاهل. فإلى متى تسيران وراء هذه الأكاذيب والخرافات الجنونية؟ وإلى متى لا ترفعان رأسيكما لتريا شمس الحقيقة؟ وإذ تأثر الحاجي ملّا علي من هذه الأقوال، قام وقال لزميله ما هي الفائدة من زيادة البحث والمناقشة مع كافرة. فذهبا إلى منزل أحدهما وكتبا حكما أبانا فيه عن ردتها وكفرها ورفضها التوبة وحكما عليها بالإعدام باسم القرآن).[1]

(وأعظم الأمثال في جميع الحركة، هو قرة العين الشاعرة، فكانت مشهورة بتقواها وفضلها وعلمها، وأخيرا تمسكت بدعوة الباب عندما قرأت بعض آياته ونصائحه واشتد إيمانها مع كونها غنية ونبيلة على شأن أنها تركت ثروتها وصيتها ومركزها وأطفالها لأجل خدمة مولاها، وقامت على نشر مبادئه ودينه... وكان جمال خطابها بدرجة أنها جذبت الضيوف من حفلة زواج وفرح ليستمعوا إليها بدلا من الموسيقى التي أعدها المضيف. أما أشعارها فمن أعظم الأشعار في اللغة الفارسية في قوة التأثير.)[2]

(أما المبلغة الأخرى وهي السيدة التي تكلمت عنها التي أتت إلى قزوين وهي بكل تأكيد إحدى الظهورات المهمة ذات الأثر البليغ في الديانة البابية فضلا عن أنها موضع احترام البابيين.)[3]

---

(1) ـ كتاب السيد علي محمد الباب لنقولاس. صحيفة 446 ـ 447.

(2) ـ كتاب اللمعة تأليف السير فرانسيس ينج هسباند. صحيفة 202 ـ 203.

(3) ـ الكونت جوبينو الاديان والفلسفة في اسيا الوسطى. صحيفة 136.

(والكثيرون من المسلمين والبابيين يمتدحون اليوم جمال قرة العين ومما لا نزاع فيه أن روح وأخلاق هذه السيدة الصغيرة كانت على غاية من الرفعة وعلو الشأن. وكانت كثيرا ما تشهد المجتمعات التي يغشاها العلماء، بل كانت يوميا تقريبا تحضرها، وكان لها شغف بها وكانت دائما على استعداد لمتابعة المجادلات والمحاورات العميقة التي كان والدها وعمها يذاكرونها وكذلك ابن عمها الذي تزوجها، بل كانت تفحمهم بأفكارها وتدهشهم بملاحظاتها الدقيقة التي تدل على شدة نباهتها. ففي إيران ليس من الامور العادية رؤية سيدة تشتغل بمثل هذه الأمور، بل إن تلك ظاهرة نادرة الحصول، فإنه كان من الأمور المتعذرة أن تجد سيدة مثل قرة العين في فضلها وعلمها فإنها زيادة على معرفة اللغة العربية معرفة جيدة للغاية، فإنها اشتهرت في علوم الحديث وفي تفسير القرآن بطريقة لم يتمكن من مثلها باقي العظماء. وأخيرا كانت في قزوين بحق إحدى المعجزات.)[1]

(1) ـ الكتاب نفسه صحيفة 137.

ملحق

ورد في كتاب مطالع الأنوار، للمؤرخ البهائي نبيل زرندي، الصفحة 581 في الطبعة الحديثة، ما يلي عن لسان رُبابة زوجة الكلانتر وولدها الذي رافق جناب الطاهرة إلى مكان استشهادها: ـ

وبعد ثلاث ساعات عاد نجلي ووجهه مغطى بالدموع وهو ينزل اللعنات على السردار وعلى أعوانه الفاسقين. وأردتُ تهدئة خاطره، وإذ جلس بجانبي سألته أن يحكي كيفية استشهادها، فأجاب وهو يبكي: [«والدتي! لا أقدر أن أصف ما شاهدته بعينيْ حق الوصف. فقد ذهبنا مباشرة إلى حديقة إيلخاني التي تقع خارج بوابة المدينة. وذعرت إذ شاهدت السردار وأعوانه غارقين في الملذات والفسق، وقد لعبت الخمرة بعقولهم وعلت أصواتهم بالقهقهة والضحك. وإذ وصلنا إلى البوابة ترجلت الطاهرة ونادتني وطلبت مني أن أكون وسيطًا بينها وبين السردار، لأنها لا تميل إلى مخاطبته وهو في غمرة مرحه. وقالت: ـ «يبدو أنهم يريدون خنقي، وقد أعددت منذ زمن منديلًا حريريًا ليستعمل لهذا الغرض، وأنا أعطيه لك وأريد أن تقنع هذا السكير الفاجر أن يستعمله في إنهاء حياتي.»

ولما ذهبتُ إلى السردار وجدته في حالة سكر شديد، وإذ اقتربتُ إليه صاح قائلًا: ـ «لا تكدر علينا صفو بهجتنا! فلتؤخذ هذه الشقية التعيسة وتُخنق ويطرح جسدها في بئر!» وقد دهشت من صدور مثل هذا الأمر، واعتقدت أن لا حاجة لإعادة السؤال، وذهبتُ إلى اثنين من خدمه كنت

أعرفهما، وأعطيتهما منديل الطاهرة. فعملا على إجابة طلبها ولفّا المنديل حول عنقها حتى أسلمت الروح. وأسرعتُ إلى البستاني لأسأله عن مكان يصلح لمواراة جسدها فيه، فأرشدني لفرط سروري إلى بئر حُفرت حديثًا وتُركت دون إكمال. وبمساعدة آخرين أنزلنا الجسد في قبره وملأنا البئر بالتراب والأحجار كما أرادت هي بنفسها. وتأثر الذين شاهدوها في لحظاتها الأخيرة تأثرًا بليغًا. وبرؤوس مطأطئة وصمت تام، تفرقوا في حالة من الحزن والأسى تاركين، تحت كومة من الحجارة جمعوها بأيديهم، ضحيتهم التي أنارت وطنهم بضياء لن يزول أبدًا.}

وقد بكيتُ دموعًا حارة على تلك الفاجعة التي رواها لي نجلي. وغلب عليّ التأثر حتى وقعت على الأرض مغشيًا عليّ. ولما أفقتُ وجدت أن نجلي قد وقع مثلي من شدة الألم وأصابه مثل ما أصابني، وكان مطروحًا في فراشه تنهمر منه دموع انفعال مخلص، وإذ شاهد حالي وما أصابني واساني بقوله: «إن دموعك ستكشفك أمام عينَي والدي وقد يحمله مركزه ومقامه أن يتركنا ويقطع كل علاقة تربطه بهذا المنزل. وإذا لم نحبس دموعنا فإنه قد يتهمنا أمام ناصر الدين شاه بأننا وقعنا فريستين لسحر عدو بغيض. ويحصل على موافقة الشاه بإعدامنا وربما يذبحنا بيديه. فلماذا نرضى بمثل هذا النصيب على يده ما دمنا لم نعتنق هذا الدين؟ وكل ما علينا عمله هو أن ندافع عن الطاهرة ونكذب أقوال كل من يتهمها في عرضها وشرفها ولنجعل حبها مكنونًا في أفئدتنا إلى الأبد، ونؤكد نبل حياتها أمام كل عدوّ مفتر.»

وكانت كلماته قد خففت هيجان قلبي، فذهبتُ وأحضرتُ صندوقها وفتحته بالمفتاح الذي وضعته في يدي. فوجدت فيه قارورة من ألطف الطيب وبجانبها مسبحة وقلادة من المرجان وثلاثة خواتم مطعمة بأحجار الفيروز

والعقيق والياقوت. وبينما أنا أنظر إلى ممتلكاتها المادية، تأملتُ في ظروف حياتها وأحداثها وأخذتني رجفة من التعجب إذ تذكرت شجاعتها وحماسها واهتمامها الشديد بأداء الواجب وإخلاصها المطلق. وجالت في خاطري إنجازاتها الأدبية، وحزنت لذكرى سجنها وبلائها والسخرية التي قابلتها بكل ثبات لا يظهر من أي امرأة في بلادها. وتفكرت مليًا في بهجة ذلك الوجه الذي يرقد الآن للأسف تحت التراب والحجارة. وأدفأت قلبي ذكرى فصاحتها الحماسية عندما ردّدتُ تلك الكلمات التي كانت غالبًا تنطق بها. وكانت سعة علمها وتبحرها في العلوم الشرعية والكتب المقدسة الإسلامية تمرّ على خاطري فتفاجئني وتقلقني. وأكثر من أي شيء آخر، تذكرت وأنا واقفة بجانب صندوقها، ولاءها القلبي للأمر الذي اعتنقته، وإخلاصها في نشر رسالته، والخدمات التي قدمتها لترويجه، والآلام والمصائب التي تحملتها لأجله، والقدوة التي صنعتها لأتباعه، والقوة الدافعة التي أطلقتها لتقدمه ورقيه، والاسم الذي نقشته لنفسها على صفحات قلوب مواطنيها، مرت كل تلك الذكريات بخاطري وتعجبت من الحافز الذي دفع امرأة بعظمتها لنبذ الغنى والمقام الرفيع اللذين أحاطا بها لتعلن ولاءها لدعوة شاب مغمور من شيراز. وفكرت في نفسي، ما سرّ تلك القوة التي انتزعتها من بيتها وأهلها ورعتها وحفظتها طيلة حياتها العاصفة، وقادتها أخيرًا إلى حتفها؟ وتساءلت في نفسي هل كانت هذه القوة صادرة عن الله؟ وهل كانت اليد الغيبية الإلهية هي التي ترشدها وتوجهها وتمخر بها في خضم مخاطر حياتها؟

وفي اليوم الثالث من شهادتها جاءت المرأة التي أخبرتني مقدمًا بمجيئها وسألتها عن اسمها، ولما علمت إنه مطابق للذي أخبرتني به الطاهرة، سلّمتها الرزمة التي ائتمنتُ عليها. ولم أكن قد رأيت هذه المرأة من قبل، ولم أرها بعد ذلك.

8

صفحة شكر

تدين الكاتبة في تأليف قصة الطاهرة إلى الكتب التالية: -

كتاب مطالع الأنوار لنبيل زرندي، المتَرجم من قبل شوقي أفندي رباني. حيث يقدم هذا الكتاب قصصًا حقيقية موثقة قدر الإمكان لإحداث السنوات الأولى للديانة البابية. لقد سافر المؤلف شرقًا وغربًا، ليسجل تقارير وذكريات عن شهود عيان للعديد من الأحداث والوقائع المسجلة في كتابه.

كتاب الطاهرة أعظم امرأة إيرانية لمارثا روت. هذا الكتاب كان تسجيلًا لدراسات المؤلفة عن تعاليم الباب، يضاف لذلك تقارير عن زياراتها للبلدان التي وقعت فيها الأحداث، ومقابلتها للعديد من البابيين من أحفاد وأقرباء وأصدقاء الشهيدة.

كتاب الطريق المختار لليدي بلومفيلد.

كتاب سنة بين الإيرانيين، أدوارد جراندفيل براون، المستشرق الشهير من جامعة كامبردج.

كتاب واقعة الباب، ترجمة أدوارد جراندفيل براون.

كتاب إيران والمسألة الإيرانية، اللورد كورزون. المجلد الثاني.

الطاهرة

قمة عملاقة شامخة باذخة.. سيدة جبارة ثائرة مُهابة.. شاعرة شابة رقيقة لطيفة.. روح شفّافة مُلهَمة.. عالمة مؤمنة وخطيبة فصيحة مجلجلة.. نيزك ناري في فضاء عشق محبوبها.. شهاب حارق لمعانديها.. محرّك خرافي لمن قرب مجال جاذبيتها.. مزلزلة لأعماق أسس معتقدات أعدائها.. جسورة محيّرة لعقول كل من سمعها وتعرّف عليها.. عظيمة جبارة أسقطت أوثان خرافات مجتمعها.. محطمة مكسّرة لأصنام أفكار كارهيها.. رمز قدوة فريد شجيعة لمحبيها.. تركت آثار خالدة مسحت مواقع سابقيها.. ذكرى عبير عطر لبنات جنسها.. باعثة لقوى الرعب في قلوب أعدائها.. مُبَجَلة عند أحبابها ومريديها.. قائدة حكيمة ملهمة في قراراتها.. شريفة عفيفة 'طاهرة' باعتراف من تعرّف عليها.. ثريا منير لديجور مجالها.. سافور صمّ آذان مناهضيها.. إعصار لمن وقف في سبيلها.. هي: فاطمة أم سلمة، زرين تاج، قرّة العين، روح الفؤاد، روح الزهراء الزكية في عَوْدِها... الطاهرة.





ISBN 978-9-9226235-2-8

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain_L
dar.alrafidain
dar alrafidain دار الرافدين

